روايات عالمية

العدد ٤٨٤ - أول يونيو ١٩٦٨

من الأدب الروسى

أحبك حيا وميتا

تأليف: إيفان تورجنيف

ترجمة: عبد الوهاب سالم

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

العدد ٤٨٤ - اول يونيو ١٩٦٨

من الادب الروسى

أحبك حيا وميتا

تأليف إيفان تورجنيف
ترجمة عبد الوهاب سالم

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

نقلت إلى العربية عن رواية

On The Eve

by

Ivan Turgenev

الشخصيات الهامة :

انا فاسيليفنا ستاكوفا
Anna Vasilyevna Stakova

اندريا بتروفتش برزنيف
Andrei Petrovich Bersenev

اوجاستينا كريستيانوفا
Augustina Christianova

دمتري نيكانوروفتش انزاروف
Dmitry Nikanorovich Insarov

بافل يوكو فليفتش شوبين
Pavel Yokovlevich Shubin

كاتيا
Katya

نيكولاي ارتيميفتش ستاكوف
Nikolai Artemyevich Stakhov

يلينا نيكولايفنا
Yelena Nikolayevna

يوفار ايفانوفتش
Uvar Ivanovich

زويانيكيتشنا مولر
Zoya Nikitichna Muller

(١)

ذات يوم من أيام الصـــيف الحارة عـام ١٨٥٣ استلقى شابان فى ظل شجرة كبيرة من أشجار الليمون على نهر موسكفا بالقرب من كونتسرفو احدهما فارع القوام يناهز الثالثة والعشرين ذو أنف مدبب وجبهة عريضة ، وقد رقد على ظهره واخذ يمد بصره بعيدا وهو يفكر وقد ضاقت عينـاه الصغيرتان الرماديتان قليــلا وظهرت على شفتيه العريضتين ابتسامة مكبوتة ٠

أما الآخر فقد انبطح على بطنه واخذ هو الآخر يتطلع الى الأفق البعيد وقد أسند راسه الأشقر على يديه ٠ كان يكبر صديقه بثلاث سنوات الا أنه كان يبدو اصغر منــه كثيرا بشـــاربه الذى لم يكد ينبت وزغب ذقنــــه الخفيف وكانت ملامح وجهه الدقيقة تنطق بشىء من براءة الطفولة وسحرها كما كانت عيناه العسليتان وشفتاه الممتلئتان تنمان عن هذه البراءة ذاتها ٠ وكان منظره بصفة عامة ينم عن الصحة والسعادة وسحر الشباب الذى خلا قلبه من الهموم ٠ وكان يغلق عينيه ويبتسم او يرفع راســـه الى اعلى كصبى يعرف أن النــاس تحب أن تنظر اليه ٠ وكان

يرتدي معطفا ابيض فضفاضا ، ويلف حول عنقه النحيل منديلا ازرق وقد وضع قبعته المصنوعة من القش الى جواره على الحشيش .

اما صديقه فكان يبدو مسنا وهو يرقد الى جانبه ولم يكن في مظهره ما يدل على أنه يستمتع بوقته . كان اسمه اندريا بتروفتش برزنيف ، بينما صديقه ذو الشعر الأشقر يدعى بافل يوكو فليفتش شوبين .

وابتدر شوبين صاحبه : لماذا لا تستلقى على بطنك مثلي ؟ ان ذلك أفضل بكثير ولا سيما عندما ترفع قدميك وتدق كعبيك بعضهما ببعض هكذا . ان الحشيش يكون تحت أنفك مباشرة فاذا سئمت من التامل في المنظر الطبيعي الذى أمامك فانك تستطيع أن تنظر الى دابة وهي تقف على احدى الحشائش او الى النملة التى لا تكل ولا تمل . اؤكد لك ان هذا افضل من وضعك الذى يشبه راقص الباليه وهو يستند الى صخرة من ورق الكارتون . قل لنفسك ان لك الحق في ان تستريح الآن ، ومما لاشك فيه ان كونك الثالث في الترتيب ليس بالأمر الهين . استرخ يا صديقى ولا ترهق نفسك .

القى شوبين هذه الكلمات بلهجة مرحة مازحة اشبه بلهجة طفل مدلل يتحدث الى أحد أصدقاء الأسرة الذين يأتونه بالحلوى. ولما لم يتلق ردا قال: ان مايدهشني كثيرا في النمل والهوام وغيرهما من الحشرات هو جديتها المدهشة.

انها تزحف الى اعلى واسفل وتبدو جادة وكأن حياتها هى الأخرى لها أهميتها . وهاهو انسان . والانسان سيد المخلوقات وارقاها ـ يحملق فيها وهى لاتبالى . والادهى من ذلك أن بعض الحشرات الدقيقة يحلو لهـا ان تستقر على أنف سيد المخلوقات وتتعدى عليها . ان هذا لأمر مشين . ومع ذلك فلنفكر فى هذا الموضوع ـ لماذا نحتقر هذه الحشرات ؟ ولماذا لا تتباهى هذه الحشرات بنفسها مثلنا ؟ هيا أيها الفيلسوف حل لنا هذه المشكلة . لماذا لا ترد ؟

فتحرك برزنيف وسأل : ماذا قلت ؟

ماذا قلت ؟ صديقك يعرض أفكارا عميقة ولكنك لا تنصت اليه .

كنت استمتع بالنظر . انظر الى هذه الحقول كيف تضوى تحت أشعة الشمس .. الوان رائعة حقا . هذه هى الطبيعة فى أبهى حللها .

فهز برزنيف رأسه قائلا :

عليك أن تظهر اعجابك بهذه الأشياء اكثر منى فهذا يتفق مع ميولك حيث انك فنان .

لا ياسيدى ليس الأمر كذلك . ان عملى يتعلق بالجسد . اننى أصنع نماذج للأكتاف والسيقان والأذرع . أما هذا المنظر فليس له شكل محدد بل انه يتبعثر على بقعة واسعة . ولا سبيل الى التقاطه .

ـ ولكن فيه جمالا ايضا · على فكرة هل انتهيت من عمل التمثال ؟

ـ اى تمثال ·

ـ تمثال الطفل والعنزة ·

ـ لا اهمية لهذا ·· لقد القيت نظرة على الاعمال الفنية لبعض الفنانين القدامى ثم حطمت التمثال الذى بداته · انك تقول وأنت تشير الى المنظر الطبيعى ، ان فيه جمالا ايضا · هناك جمال فى كل شىء ، لا شك فى هذا ، حتى فى انفك ، ولكنك لا تستطيع أن تتابع كل شىء جميل · فالقدماء لم يضطروا لمتابعة الجمال ولكن الجمال كان يهبط على اعمالهم من مكن لا يعرفه الا الله ·· ربما من السماء · كان العالم كله عالمهم · ولكننا لا نستطيع أن نحيط به كله ، فنحن اضعف من ذلك · اننا نلقى بسنارتنا عند نقطة صغيرة ونراقبها ، ويواتينا الحظ ان نحن حظينا بشىء · أما اذا لم نحظ به ·· وأخرج شوبين لسانه ·

ـ فرد برزنيف : على رسلك فهذا موقف فيه تناقض انه اذا لم تشعر بالجمال واذا لم تقدره حيثما وجدته تشعر به فى قلبك · فاذا لم يبعث المنظر الجميل أو الموسيقى الجميلة برسالة الى قلبك ·· اعنى انك اذا لم تشعر بالجمال ·

ـ فقاطعه شوبين وهو يضحك قائلا : بالطبع انك

شاطر وفيلسوف متخرج فى جامعة موسكو ومن الصعب مجادلتك ولا سيما بالنسبة لطالب طب مثل لم يتم دراسته بعد · ولكن دعنى اقل لك اننى فضلا على فنى ـ أحب الجمال فى النساء وفى الفتيات ولو أن هذا لم يحدث الا أخيرا ·

ـ ثم استدار على ظهره ووضع يديه تحت رأسه · وساد الصمت بينهما هنيهة وقد غيم السكون والقيظ على المكان ·

ـ وقال شوبين وهو يقطع حبل الصمت : اما وقد تحدثت عن النساء لماذا لا يصطحب احدهم ستاكوف ؟ هل رايته فى موسكو ؟

ـ كلا ·

لقد فقد الرجل العجوز عقله · انه ملازم لأوجاستينا كريستيانوفا طول اليوم لا يمل · انهما يجلسان معا ويحدق كل منهما فى الآخر · ياللحماقة ! لقد وهب الله هذا الرجل أسرة رائعة ، ولكنه يتعلق باهداب أوجاستينا كريستيانوفا · لم ار فى حياتى شيئا اقبح من وجهها الذى يشبه وجه الأوزة · وقد رسمت لها نموذجا كاريكاتوريا لا باس به سوف أطلعك عليه ·

ـ فسأله برزنيف : والتمثال النصفى ليلينا نيكولايفنا ؟ هل انتهيت منه ؟

كلا · ان لها وجها فى منتهى الجمال واضح الملامح دقيق التقاطيع حتى ليخيل اليك لأول وهلة أنه يسهل

عليك ان تعمل له تمثالا ولكنك تكتشف بعد ذلك أن الأمر ليس بهذه السهولة . هل لاحظتها وهي تنصت ؟ انها تنصت دون ان تتغير ملامح وجهها . نظرة عينيها هي التي تتغير ويبدو انها تغير كل كيانها . ما الذى يستطيع مثال ان يفعله في مثل هذه الحالة خصوصا اذا كان فنانا بسيطا مثلى ؟ انها مخلوقة مدهشة - ثم أضاف بعد برهة وجيزة : شخصية غريبة .

- فرد برزنيف : فعلا . انها فتاة مدهشة .

ورغم ذلك فهى ابنة ستاكوف ، وقل بعد ذلك ما تشاء عن الوراثة والأجناس . والغريب ان اى انسان يستطيع ان يحكم أنها ابنة ستاكوف . انها تشبهه كما انها تشبه امها أنا فاسيليفنا . اننى أحمل لآنا فاسيليفنا كل تقدير . انها تشملنى بعطفها . ولكنها بلهاء . من أين اذن ليلينا هذا الذكاء ؟ ومن ذا الذى أوقد الشعلة فيها ؟ هذه معضلة أخرى عليك حلها أيها الفيلسوف .

ولكن « الفيلسوف » لم ينبس بكلمة فانه لم يكن ثرثارا بطبعه وكان اذا تحدث تلعثم وأكثر الاشارة بيديه . وقد هبط عليه هذه المرة هدوء غريب ، هدوء قريب من الاجهاد والكآبة . وكان قد غادر المدينة منذ قليل بعد ان أتم عملا من الاعمال الشاقة المضنية التى استغرقت ساعات طويلة من وقته عدة أيام وكانت تختلج فى قرارة

نفسه انطباعات ومشاعر مختلفة منها المهدىء ومنها المثير وكان شابا شديد الحساسية ·

كان الجو لطيفا هادئا تحت شــجرة الليمون · اعواد الحشائش ساكنة ، زهور الليمون تتدلى جميلة من الشجرة تحمل عبيرها الى الصدور ، والمنطقة عبر النهر تسبح في ضوء الشمس القوى وقد سكنت الطيور واخذت بعض الحشرات الصغيرة تقفز هنا وهناك · وكان الرقود فى ظل شجرة الليمون ممتعا لذيذا يجلب النعاس ويثير جميل الاحلام ·

وتحــدث برزنيف فجأة فقــال : هل لاحظت ذلك الشعور الغريب الذى تثــيره فينا الطبيعــة ؟ انها تزخر بكل شىء ونحن نرى ذلك ونعجب بها · ولكنها تثير فى نفسى دائما شعورا بالقلق الذى يصل أحيانا الى حــد الحزن · فما سر ذلك ؟ ربما لاننا نشعر عندما نتاملها بما فينا من نقص أم نرى أن ما يرضيها هى لا يعتبر كافيا بالنسبة لنا ·

ـ فرد شوبين : ساخبرك يا بتروفتش عن مصــدر كل هذا · لقد وصفت لتوك مشاعر انــسان يحس بالوحدة، انــسان لا يعيش ولكنه ينظر الى ما حوله ثم يغيب فى ذهول طويل · ولكن لم تنظر حولك ؟ استمتع بحياتك وستجد أن كل شىء قد أصبح على ما يرام · انك قد تطرق باب الطبيعــة لأى فترة تحلو لك ولكنها لن تجيبك اجــابة تفهمها ·

ـ انها تصدر رنينا كالرنين الذى يصدر عن سلك مشدود ولكنك تخطىء اذا انتظرت منها أن نشدو لك بأغنية . انها روح حية تستجيب . انها امرأة . واذا كان الأمر كذلك يا صديقى فاننى انصحك أن تجد رفيقة لقلبك وعندئذ سيختفى فى الحال كل ما تشعر به من حزن . ان هذا هو ما « نحتاجه » على حد قولك . هذا القلق وهذا الحزن هما فى الواقع نوع من الجوع . فتناول الطعام تسر الامور على مايرام .. خذ مكانك فى هذه الدنيا يا صديقى وكن صلبا قويا . ولنتساءل الآن ما هى الطبيعة وما هو الغرض منها ؟ : استمع الى يا صديقى : الحب ـ يالها من كلمة قوية ملتهبة ! .. الطبيعة .. يا لها من تعبير مدرسى بارد .. اذن فلتحيا ماريا بتروفنا او بالاحرى .. اظنك تفهمنى ؟

ـ واعتدل برزنيف واسند رأسه على يديه ثم قال : هل من الضرورى أن تظهر استهزاءك وسخريتك ؟ انت على حق فى أن الحب كلمة عظيمة كما انه شعور عظيم . ولكن أى أنواع الحب تعنى ؟؟

ـ واعتدل شوبين هو الآخر ثم قال : تسالنى اى نوع من الحب اعنى ؟ أى حب مادام حبا . أنا بصراحة لا أعتقد ان هناك أنواعا مختلفة من الحب . انك اذا احببت ـ

ـ قال برزنيف مقاطعا : بكل قلبك .

ـ هذا شيء مفروغ فيه ، فالقلب ليس تفاحة يمكن قسمتها انك اذ أحببت فانت على حق · وانا لم اقصد أن أسخر او استهزيء ، فان قلبي في الوقت الحاضر ملىء بالرقة والحنان · لقد كنت احاول ان أبين السبب في ان الطبيعة تؤثر فينا بالطريقة التي عبرت أنت عنها · انها تفعل ذلك لانها توقظ فينا الحاجة الى الحب وهي الحاجة التي لا تستطيع هي ارضاءها ، انها تدفعنا برفق الى احضان اخرى دافئة ولكننا لانفهمها ونتوقع منها هي شيئا ما · آه يا اندريا أن كل ما حولنا مدهش فالسماء والشمس وكل شيء غاية في الجمال ولكنك رغم ذلك تشعر بالحزن · ولكنك اذا كنت في هذه اللحظة تمسك في يدك يد امرأة تحبها واذا كانت هذه اليد وهذه المرأة ملكا لك واذا كنت ترى الاشياء بعينيها وتشعر بها بشعورها فلن تثير الطبيعة فيك الشعور بالحزن او القلق ، كما أنك لن تلاحظ جمال الطبيعة ولكنها هي ستبتهج وتترنم بترنيمتك لأنك تكون قد وهبتها لسانا ·

ـ وهب شوبين واقفا وأخذ يسير جيئة وذهابا بينما احنى برزنيف راسه واعترى وجهه بعض شحوب ثم قال : انني لا اوافقك تماما فالطبيعة لا توحي دائما بالحب بل انها تهددنا أيضا كما انها تذكرنا باسرار مخيفة غامضة · أليس قدرا محتوما علينا ان تبتلعنا الطبيعة ؟ الا تبتلعنا الطبيعة على الدوام ؟ الطبيعة هي الحياة والموت وللموت فيها نصيب كنصيب الحياة تماما ·

ـ وقاطعه شوبين قائلا : هناك حياة وموت في الحب ايضا ٠

ـ واستمر برزنيف يقول : عنــــدما اقف في غابة وسط الأشجار في الربيع واتخيل انني اسمع صوت مزمار او اشعار بيرون الساحرة ٠٠

وحينئذ شعر برزنيف بشيء من الخجل ثم اردف : اليس ذلك ٠٠ ؟

ـ فقال شوبين : انه اشـــتهاء للحب واشـــتهاء للسعادة لا اكثر ٠ انني اعرف هذه الأصوات كما اعرف المشاعر الدقيقة والآمال التي تطوف برأس الانســان وهو في ظلال الغابة او وهو في الريف وقت المساء عندما تغرب الشمس ويكتنف الضباب صفحة النهر ٠ ولكنني اتوقع واريد ان احصل على قدر من السعادة من الغابة ومن النهر ومن الأرض ومن السماء والسحاب ومن كل عود من اعواد الحشيش ٠ انني اشعر بها وهي قادمة واسمع نداءها في كل شيء ٠ نحن نتوق الى السعادة في شبابنا ونملك زمام قدراتنا في طريق الصعود لا في طريق الهبوط ٠ نحن لا نزال في شرخ الشباب كما اننا لسنا اغبياء او مشوهين، ولسوف نظفر حتما بالسعادة ٠

وحرك راســه ونظر الى الســماء نظرة كلها ثقة ٠ والتفت برزنيف اليه ثم قال : انك تتحدث وكان ليس هناك ما هو اكثر اهمية من السعادة ٠

ـ فقال شوبين : وما هو الشيء الذى يفوق السعادة أهمية ؟

ـ فاجاب برزنيف : ها نحن هنا انا وانت • وكلانا فى شرخ الشباب كما تقول ولنفترض اننا لسنا فى حالة سيئة وان كلا منا يريد ان يكون سعيدا • هل هذه « السعادة » كلمة تستطيع أن تجمع بيننا وتثير فينا نفس المشاعر التى تجعلنا يدا واحدة ؟ ، أليست هذه الكلمة كلمة تنطوى على انانية ـ اى تفرق أكثر مما توحد ؟ •

ـ هل تعرف اى كلمات توحد بين الناس ؟

ـ نعم اعرف منها الكثير ، شانى فى ذلك شانك •

ـ انا اعرفها ؟ ما هى هذه الكلمات ؟

ـ منها الفن ، فانت فنان ، ومنها ارض الوطن والعلم والحرية والعدالة •

ـ وما رايك فى كلمة الحب ؟

ـ كلمة الحب ايضا من الكلمات التى توحد ولكن هذا الحب ليس هو الحب الذى تتلهف عليه ولا هو الحب كمتعة ولكنه الحب كتضحية •

ـ وقطب شوبين حاجبيه وقال : هذا يناسب الألمان فى تفكيرهم ولكننى اريد أن احب لأمتع نفسى • اريد ان اشغل المكان الأول فرد عليه برزنيف : المكان الأول ؟ انا اعتقد اننا خلقنا لنضع انفسنا فى المكان الثانى •

ـ ورد عليه شوبين قائلا : اذا فعل كل شخص كما تقول فسوف لا يذوق احد التفاح لان كل شخص سوف يعطيه لغيره ٠

ـ قال برزنيف : هذا يعنى انه ليست هناك حاجة للتفاح ٠ اؤكد لك ان هناك دائما من هم على استعداد لخطف طعام الآخرين ٠

ـ وساد الصمت بين الصديقين برهة ٠ ثم قطعه برزنيف بقوله : لقد قابلت انزاروف مرة اخرى منذ أيام وطلبت اليه أن يأتى لزيارتى ٠ بودى ان اقدمه لك ولعائلة ستاكوف ٠

ـ ومن يكون أنزاروف هذا ؟ هل هو ذلك البلغارى الذى حدثتنى عنه ؟ لعله هو الذى أوحى اليك بكل هذه الآراء الفلسفية ٠

ـ ربما ٠

ـ شخص غير عادى ، اليس كذلك ؟

ـ نعم ٠

ـ ذكى وموهوب ٠

ـ انه ذكى ، ولكننى لا أعرف ان كان موهوبا أم لا ، ولو أننى لا أعتقد انه كذلك ٠

ـ فيم يبرز اذن !

ـ سترى ٠ والآن أعتقد ان الوقت قد حان للعودة ولابد ان انا فاسيليفنا فى انتظارنا ٠ كم الساعة الآن ؟

ــ لقد تجاوزت الثانية · هلم بنا · ان الجو حار ، وكانت هذه المناقشة تثير الدم فى عروقى ، كما كانت هناك لحظات كنت انت تثير غضبى · اننى فنان واستطيع ان أرى كل شيء · قل لى بصراحة هل هناك امرأة بعينها تثير اهتمامك ؟

وتفحص شوبين وجه برزنيف ليرى تاثير سؤاله ولكن برزنيف استدار وخرج من ظل الشجرة · وتبعه شوبين · وسار برزنيف وقد رفع كتفيه ومد رقبته · ورغم ذلك فقد كان يبدو محترما اكثر من شوبين ·

(٢)

هبط الشابان الى شاطيء النهر وسارا بمحازاة الشاطيء وكانت المياه تجلب الانتعاش والاطمئنان ·

ــ وقال شوبين : كم اتمنى ان انزل للسباحة فى الماء مرة أخرى ولكننى اخشى ان تتاخر · انظر الى النهر وكانه ينادينا ·· يا الهى ، متى تتاح لى فرصة للذهاب الى ايطاليا ؟ متى ·· ؟

ــ لعلك تعنى متى ستذهب الى أوكرانيا ·

ــ يجدر بك أن تخجل من نفسك ياانديه بتروفتش، انك تلومنى على خطوة منهورة أسفت عليها اشد الأسف ·

لقد اخطات وما في ذلك شك . فقد اعطتني انا فاسيليفن نقودا . للقيام برحلة الى ايطاليا ولكنني بدلا من الذهاب الى ايطاليا ذهبت الى اوكرانيا لآكل الفطائر و ...

ـ فقاطعه برزنيف قائلا : لا داعي لاكمال حديثك فانا اعرف ما تريد أن تقول .

ـ دعني أقل لك ان هذه النقود التي صرفتها لم تضع سدى فقد رايت هناك انواعا كثيرة من الناس ولاسيما النساء انا اعلم طبعا انه ليست هناك حرية كما في ايطاليا .. سنذهب الى ايطاليا ولا تفعل شيئا هناك . سترفرف بجناحيك دون أن تطير . انا اعرف امثالك .

ـ لقد طار ستافاسر الى ايطاليا اليس كذلك ، ولم يكن الشخص الوحيد الذى طار . واذا لم استطع أنا أن اطير فان هذا سيعني انني كطائر البطريق ـ طائر بلا اجنحة . انني افتقد الهواء هنا اريد الذهاب الى ايطاليا ففيها ضوء الشمس وفيها الجمال .

وظهرت ، في تلك اللحظة ، فتاة تلبس قبعة من القش وتحمل مظلة قرمزية وتسير في نفس الطريق الذى كان يسير فيه الصديقان .

ـ وصاح شوبين فجأة : ما هذا الذى أرى ؟ لقد اتى الجمال لمقابلتنا حتى في هذا المكان تحية الى زوين الساحرة من فنان بسيط .

ورفع قبعته بطريقة مسرحية فوقفت الفتاة وهي تهز

اصبعها تجاهه وظلت واقفة حتى وصل اليها الصديقان فقالت لهما بصوت رقيق : لماذا لم تحضرا لتناول الغذاء ايها السيدان والطعام معد ؟

ـ فقال شوبين باستغراب : هل حقيقة ما أسمع ؟ هل اتيت انت يا زويا فى هذا الطقس الحار لاصطحابنا ؟ أهذا هو ما استطيع ان افهمه من كلامك ؟ حدثيني : هل الأمر كذلك .. كلا .. لا تفعلى والا ســـقطت ميتا من تأنيب الضمير .

ـ قالت الفتـــاة : كفى يا بافل ياكوفليفتش . ألا تستطيع أن تتحدث الى حديثا جادا ؟ هل تريد اغضابى ؟

قالت هذا السؤال الأخير ومدت شفتيها فى شيء من الدلال .

ـ فرد عليها قائلا : انت لا يمـكن ان تغضبى منى يا زويا نيكيتشنا . انت لا تقبلين أن تلقى بى فى أعمـاق اليأس القـاتل . اما فيما يختص بالحـديث الجدى فهو فوق طاقتى لانى لست رجلا جادا .

ـ وهزت الفتاة كتفيها والتفتت الى برزنيف وقالت: هذه هى الطريقة التى يعاملنى بها دائما . انه يعاملنى وكاننى طفلة صـغيرة ولكننى قد جاوزت الثامنة عشرة ونضجت .

ـ فقال شوبين : يا اله السماوات ..

قال هذا وقد رفع عينيه نحو السماء بينما ابتسم برزنيف .

ودقت الفتاة الأرض بقدمها وقالت : سأغضب منك يا بافل يا كوفيليفتش .. سأغضب بجد . لقد خرجت هيلين معى ولكنها فضلت البقاء فى الحديقة خوفا من شدة الحرارة ولكننى لا أخاف الحرارة . هلم بنا .

قالت ذلك وتقدمتهما فى الطريق وهى تتثنى فى مشيتها مع كل خطوة بينما راحت تحرك خصلات شعرها الحريرى من على وجهها بيدها الرقيقة .

وتبعها الصديقان وكان شوبين يضغط قلبه بيديه من آن لآخر دون ان يتكلم . ووصلا بعد دقائق الى كوخ من الأكواخ العديدة التى تحيط بكونتوسوفو . كوخ خشبى قرمزى اللون بين اشجار تتوسط حديقة جميلة . وفتحت زويا الباب ودخلت الى الحديقة وصاحت : لقد أحضرت الرجلين التائهين . وهنا قامت فتاة شابة ذات وجه جميل معبر من احد المقاعد بجانب الممر لاستقبالهما . كما ظهرت احدى السيدات على عتبة الكوخ وقد ارتدت ثوبا حريريا ورفعت فى يدها منديلا فوق راسها تتقى به الشمس ، وابتسمت لهم بفتور .

(٣)

كانت أنا فاسيليفنا ستاكوفا قد فقدت والديها وهي في سن السابعة وورثت مزرعة كبيرة • وكان لها اقارب على جانب كبير من الثراء وأقارب يعيشون في فقر مدقع• وكان اقاربها الفقراء من أسرة والدها، أما أقاربها الأغنياء ، ومنهم السناتور فولجين والأمير تشيكوراتروف ، فكانوا من أسرة والدتها•وقد الحقها الأمير ارداليون تشيكورازوف بارقى المدارس الداخليـــــة في موســـكو وضمهـا الى اسرته بعد أن أتمت تعليمها فيها • وكان يقيم في بيته الكثير من حفلات الرقص ولا سـيما في الشـتاء • وقد قابلها نيكولاى ارتيميفتش ستاكوف الذى تزوجها ، فيما بعد ، في احدى هذه الحفلات الراقصـة وكانت ترتدى فيها ثوبا قرمزيا جميلا• •

كان ستاكوف ابن ضابط متقاعد جرح عام ١٨١٢ وكوفىء بوظيفة مريحـة في بطرسـبورج • وقد التحق ستاكوف بالمدرسة الحربية وهو في السادسـة عشرة ، وبعد أن أكمل دراسته التحق بالحرس الامبراطورى • كان وسيما قوى البنية ، يجيد الرقص في الحفلات التى كان يقيمها مجتمع الطبقة الوسطى اذ كان الطريق الى المجتمع الراقى مغلقا أمامه •وكان منذ باكورة شبابه يتوق لتحقيق أملين : أن يعمل في حرس الامبراطور ، ثم أن يتزوج فتاة

غنية · ولكنه سرعان ما تخلى عن الأمل الأول وتعلق بالثانى أكثر وأكثر فكان يذهب الى موســكو كل شــتاء · وكان يتحدث بالفرنسية بطلاقة · لم يكن يعاقر الخمر ، لذا فقد اشتهر بانه فيلسوف · وكان يحب الجدل والمناقشة ·

ــ وكان ستاكوف فى الخامســة والعشرين عندما اوقع فى شباكه انافاسيليفنا فترك خدمة الجيش وتفرغ لادارة المزرعة التى جاءته بها على سبيل « الدوطة » ولكنه سرعان ما مل حياة الريف · ولما كان مســتاجرو الأرض يدفعون ايجارهــا بانتظام فلم تكن ثمة حاجة لبقائه فيها فانتقل الى بيت زوجته فى موسكو · ولم يكن يمارس أى رياضة فى شـــــبابه ، فاتجه فى هذا الوقت للعب القمار وعندما حرمته الحكومة تحول الى غيره من العاب الورق · ثم سئم حياته العائلية فتعرف على أرملة من أصل المانى وكان يمضى معظم وقته فى بيتها ·

وفى صيف عام ١٨٥٣ لم يرحل الى كونتسوفو بل بقى فى موســكو حتى لا يبتعد عنها · رغم ذلك فانه لم يكن يكثر التحدث معها ، وكان حديثه ، اذا فعل ، يدور حول موضوعات جدلية ، وقد أطلق عليه أحدهم اســـم « المجادل » وأعجبه هذا اللقب ، وكان يقول : ليس من السهل اقناعى ولا يستطيع أحد أن يخدعنى · ولكنه لم يدر أن اوجاستينا كريستيا نوفا الأرملة كانت تسميه « المخرف » فى خطاباتها التى كانت ترسلها الى ابنة خالها تيودوليندا بيترسيليوس ·

كانت أنا فاسيليفنا زوجة ستاكوف امرأة نحيلة القوام ذات تقاطيع دقيقة يغلب عليها طابع الحزن • وكانت وهي بالمدرسة الداخلية مولعة بالموسيقى وقراءة القصص ثم تركت هاتين الهوايتين للعناية بنفسها وبجمالها ثم تركت هذه أيضا • ولما تزوجت وانجبت ابنتها كرست نفسها للعناية بها ، ولكنها سرعان ما تخلت عن العناية بها وتركتها للمربية • ولم تفعل شيئا بعد ذلك بل أسلمت نفسها للحزن • وكانت صحتها قد ساءت عندما وضعت ابنتها يلينا نيكولايفنا الى درجة ان اصبحت لا تتحمل المزيد من الاعباء أو انجاب اطفال وهو امر كان ستاكوف يشير اليه تبريرا لعلاقته مع الأرملة • وكانت أنا فاسيليفنا شديدة الحزن ازاء جحود زوجها • وقد آلمها أبلغ الألم أنه أهدى ذات مرة للأرملة حصانين اشهبين من حظيرتها الخاصة • ولم تحاول بتاتا ان توجه اليه اللوم وجها لوجه ولكنها كانت تشكوه لكل من في البيت حتى لابنتها • ورغم أنها كانت لا تحب الخروج الا أنها كانت تشعر بكثير من الارتياح اذا زارها أحد ، اما اذا خلت الى نفسها فانها كانت تستسلم للحزن • كان قلبها رقيقا وطيبا ، وسرعان ما حطمتها الحياة •

كان بافل ياكوفليفتش شوبين من اقاربها الأباعد • وكان والده يعمل فى الوظائف المدنية في موسكو • وكان اخوته قد التحقوا بالمدرسة الحربية ، وكان هو اصغرهم ، وكانت صحته معتلة ، فكان محل عناية والدته واهتمامها،

فبقي في البيت . وكان والداه ينويان أن يلحقاه بالجامعة وقدما له كل ما يستطيعان من عون في هذا السبيل . وقد أظهر منذ البداية ميلا للنحت . ورأى السناتور فوجين ذات يوم تمثالا صغيرا من صنع هذا الصبي وكن في السادسة عشرة في منزل خالته فاعجب به واعلن انه سوف يحتضن هذا الشاب الموهوب . ثم تسبب موت والده المفاجئ في تغيير مجرى حياته . وكان كل ما فعله السناتور من أجله هو أن أهداه تمثالا من الجبس لهومر . أما أنا فاسيليفنا فكانت تقدم له العون المادي . وقد استطاع وهو في التاسعة عشرة ان يلتحق بمدرسة الطب بالجامعة ، ولكنه لم يكن لديه ميل لدراسة الطب . على ان الظروف في ذلك الوقت لم تمكنه من الالتحاق بأية مدرسة أخرى ، كما انه كان يعتزم دراسة التشريح . ومع ذلك لم يدرس التشريح ، فقد ترك الجامعة بمحض ارادته قبل نهاية السنة الأولى لكي يتفرغ كلية للفن الذي احبه . واخذ يعمل بجد واجتهاد ولكنه كان يفعل ذلك في فترات دون أخرى . وراح يتجول في ضواحي موسكو يرسم صورا للريفيات . وكان يلقى كثيرا من الشخصيات كبيرة وصغيرة وبعض العظماء والنحاتين الايطاليين والفنانين الروس ، ولكنه كان يرفض فكرة الالتحاق بالاكاديمية ، كما كان يرفض الاعتراف بأي استاذ . كان موهوبا بالفعل وقد ذاع صيته في موسكو . وكانت والدته قد

علمته الفرنسية فقد ولدت فى باريس وكانت تنتمى الى عائلة طيبة · واخذت ترعى شئونه وتسهر على راحته · وكانت فخورة به · وعندما كانت على فراش الموت ، وقد عصف بحياتها مرض السل رغم صغر سنها ، اوصت أنا فاسيليفنا بالعناية به ، وكان حينـذاك فى الواحـدة والعشرين · ونفذت انا فاسيليفنا وصـية الأم وخصصت له غرفة فى بيتها ·

(٤)

ـ قالت ربة البيت لضيوفها : هلموا لتناول الغذاء · فساروا جميعا الى حجرة المائدة · ثم قالت : اجلسى الى جانى يا زويا واعتنى ياهيلين بامر ضـيفنا · أما انت يابول فارجوك أن تكف عن مضايقة زويا · اننى اليوم اشكو من الصداع · ورفع شوبين عينيه الى أعلى فالتقتا بعينى زويا التى ابتسمت له ابتسامة خفيفة · كانت زويا نيكيتشنا فولر فتاة جميلة من أصل المانى روسى ، شقراء ممتلئة القوام ذات انف دقيق وشفتين رقيقتين قرمزيتين وكانت تستطيع أن تغنى بعض الاغانى الروسية باتقان كما كانت تجيد كثيرا من الألعاب البسيطة ، وتتقن العزف على البيانو فى روح مرحه منطلقة · وكانت تهتم بمظهرها واناقتها وقد احضرتها أنا فاسيليفنا لتكون رفيقة لابنتها ولكنها كانت تستبقيها دائما الى جوارها هى ·

ولم تكن يلينا تشكو من هذا ، اذ انها عندما كانت

تخلو الى زويا لم تكن تجد ما تحدثها فيه • واستمر الغداء فترة وتحدث برزنيف الى يلينا عن حيـــاة الجامعة وعن مشروعاته وتطلعاته • أما شوبين فكان ينصت فى صمت وهو يتناول طعامه بشراهة وكان يتطلع من آن لآخر الى زويا التى كانت تقابل نظرته بنفس الابتسامة الفاترة • وبعد أن انتهى تناول الطعام خرجت يلينا الى الحديقة فى صحبة برزنيف وشوبين وتبعتهم زويا بنظراتها ثمجلست أمام البيـــانو • قالت لها : انا فاسيلينفنـــا : لماذا لم تخرجي معهم ؟ ولما لم تتلق جوابا •• قالت لها اعزفى لنا مقطوعة حزينة •

ـ فقالت لها زويا : هل أعزف لك مقطوعة اللقاء الأخير لويبر ؟

ـ فردت عليها : نعم اننى احب ويبر • ثم جلست على احد المقاعد ودمعة تترقرق فى عينيها • وقادت يلينا الصديقين الى منضدة صغيرة من الخشب صفت حولها بعض المقاعد الخشبية تحت احدى الاشجار • ونظر شوبين حوله واخذ يقفز الى أعلى عدة مرات ثم همس قائلا : انتظــر • ثم جرى عائدا الى حجرته واحضر قطعة من الصلصال وبدا يشكلها تمثالا لزويا وهو يهز راسه ويتحدث الى نفســه ويضحك •

ـ قالت يلينا وهى تنظر الى ما يفعله : ها هو قد عاد الى الاعيبه القديمة • ثم التفتت الى برزنيف لاستئناف المحادثة التى بدات اثناء تناول طعام الغداء •

ـ ورد شوبين قائلا : الاعيبه القديمة ! هذا موضوع ينتهى • انها اليوم لا تطاق •

ـ قالت يلينا : لماذا تتحدث عنها هكذا ؟ • ان من يسمعك يتصور انها عجوز شريرة ، ولكنها فتاة رقيقة وجميلة •

ـ فقاطعها شوبين قائلا : اؤكد لك انها جميلة بل وجميلة للغاية •• وأنا واثق ان اى انسان يراها سيقول لنفسه ، ها هى زميلة جميلة لرقصة البولكا • انا واثق أيضا انها تعرف ذلك وتغتبط به • ولكن لماذا هذا انتمالى وهذا التواضع المفتعل ؟

أظنك تفهمين ما اعنى ولكنك لا تهتمين بمناقشة هذا الموضوع الآن • ثم حطم التمثال واخذ يعجن الطين مرة أخرى بطريقة يبدو فيها الضيق والتبرم •

ـ وتوجهت يلينا بالحديث الى برزنيف قائلة : انت تريد اذن ان تكون أستاذا بالجامعة •

ـ فأجابها بقوله : نعم • هذا هو الحلم الذى أريد تحقيقه • انا اعلم جيدا أن هناك هوة كبيرة بينى وبين مثل هذا المنصب ولكننى آمل أن احصل على تصريح بالسفر للخارج • وسامكث هناك ثلاث او أربع سنوات اذا لزم الأمر ثم •

ـ وهنا توقف عن الكلام ونكس راسه ثم رفعها بسرعة ومر بيده على شعره وهو يضحك ضحكة غريبة •

ـ وابتدرته يلينـا مرة أخرى قائلة : هل تريد أن تصبح أستاذا فى التاريخ ؟

ـ فأجابها : نعم

واضاف في صوت خفيض : أو الفلسفة ان امكن ٠

ـ وعلق شوبين على ذلك بقوله : هو مولع بالفلسفة الى حد كبير ٠

ـ ثم قال وهو يحفر خطوطا عميقة فى قطعـــة الصلصال بمسمار في يده ولـكن هل لابد من الســـفر للخارج ؟

ـ واستأنفت يلينا حديثها فقالت له وهى تنظر الى عينيه : وهل ترضى حينذاك عن مركزك ؟

ـ فأجابها : كل الرضا يا يلينا ٠ وهل يمكن أن تكون هناك وظيفة افضـــل من ذلك ؟ ســـاســـير فى نفس الطريق الذى سار فيه جرانوفسكى ٠ ان مجرد التفكير فى هذا يسعدنى ٠ لقد باركنى أبى قبل وفاته وسوف لاأنـــى أبدا كلماته الاخيرة ٠

ـ لقد توفى والدك فى الشـــــتاء الماضى ٠ أليس كذلك ؟

ـ نعم ٠ فى فبراير الماضى ٠

ـ فقالت يلينا : قيل لى انه ترك مخطوطات باللغة الاهمية فهل هذا صحيح ؟

ـ نعم ٠ لقد كان رجلا عظيما يا يلينا ولو كنت قد رأيته لاعجبت به ٠

ـ انا واثقة من ذلك.وما هو الموضوع الذى تتناوله هذه المخطوطات ؟

ـ هذا شيء يصعب شرحه باختصار . لقد كان والدى من انصار مدرسة شيلنج ولم تكن اللغة التى كان يستعملها واضحة دائما .

ـفقاطعته يلينا قائلة : ارجو ان تغفر لى جهلى يا اندريا بتروفتش اذا سالتك ما معنى شيلنجى .

ـ فابتسم برزنيف ابتسامة خفيفة وقال : اى انه من اتباع الفيلسوف الالمانى شيلنج . أما فيما يختص بنظريات شيلنج ـ

ـ فصاح شوبين فجأة وقال : رويدك يا أندريا بتروفتش هل تنوى أن تلقى محاضرة على يلينا عن شيلنج ؟ ارجو ان توفر عليها هذا العناء .

ـ فرد عليه برزنيف وقد احمر وجهه قائلا : كلا لا أريد سوى ان ... فتدخلت يلينا قائلة : وما هو اعتراضك على المحاضرة ؟ اننا نستطيع انا وانت ان نستفيد ببعض المحاضرات يا بافل .

ـ فالتفت شوبين ناحيتها وانفجر ضاحكا . فسألته بشيء من البرود : ما الذى يضحكك ؟

وكف شوبين عن الضحك وقال لاتغضبى . معذرة. ولكن ما قيمة مناقشة الموضوعات الفلسفية فى مثل هذا الجو وتحت هذه الأشجار ؟ اليس من الافضل لنا ان

نتحدث عن الطيور والزهور والعيون الجميلة والابتسامات الساحرة ؟

ـ واضافت يلينا قائلة : نعم وعن القصص الفرنسية وملابس السيدات ·

ـ فاجابها شـوبين : ولم لا نتحـدث عن مـلابس السيدات ما دامت جميلة ·

ـ لم لا ؟ لنفرض اننا لانهتم بالحديث عن الملابس انك تسمي نفسك فنانا متحررا ثم تعتدى بعـد ذلك على حريات الآخرين · ثم دعني اسالك سؤالا آخر : اذا كانت هذه هي طريقتك في التفكير ، لمـاذا اذن توجه النقد الى زويا ؟ انها هي الشخص الذى يمـكن التحدث اليه عن الملابس والزهور · فاحمر وجه شـوبين وقام من مقعده وقال بصوت يدل على الانفعال : اذن هذا هو ماتقصدين · تريدين أن أذهب اليها يا يلينا · او بمعنى آخر ان وجودى هنا غير مرغوب فيه اليس كذلك ؟

ـ انا لم افكر مطلقا في ابعادك من هنا ·

ـ ورد عليهـا شوبين بانفعـال : تقصـدين انني لا استحق صحبة غير صـحبتها وانني من طرازها ، وانني سطحي وأبله وتافه كتلك الفتاة الالمانية اليس كذلك ؟

ـ فقطبت يلينا جبينها واضافت : لقد كان لك فيها راى مخالف لهذا الراى يا بافل ·

ـ انك تؤنبينني الآن · حسن ، انني لا أنكر انه

مرت لحظة ـ لحظة واحدة فقط ـ كانت فيها هذه الوجنات النضرة ... ولكنني اذا بادلتك دقة بدقة وذكرتك ـ طاب مساؤك ـ لقـد كدت أترك لســاني يفلت مني . ثم عجن قطعة الصلصــال التي كان قد صنع منهــا تمثــالا لراس واندفع خارجا وذهب الى حجرته .

ـ فقالت يلينا وهي تتبعه بنظراتها : طفل .

ـ فرد عليها برزنيف قائلا : هو فنان وكل الفنانين هكذا ولا بد من التلطف معهم .

ـ اجابت يلينا : صحيح ولكن بافل لم يبرهن حتى الآن على أنه يستحق هذا . ماالذى انجزه ؟ أعطني ذراعك ولنخرج للسير قليــلا فقد قطع علينا حديثنا . لقــد كنا نتحدث عن مخطوطات والدك .

وتأبط برزنيف ذراع يلينـــا وأخذا يســيران في الحـديقة ، ولكنهما لم يســتأنفا المحادثة التي قطعت بل أخذ برزنيف يشرح آراءه عن عمل أساتذه الجامعة وعن عمله في المستقبل . وظل يسير الى جانب يلينا بخطوات بطيئــة وقد اتكأت على ذراعه ولــكنه لم يحاول أن ينظر اليها . وأخذت الالفاظ تنساب من بين شفتيه في سهولة ويسر ، وكان يستعمل جملا بسيطة دقيقة . وكانت عيناه تنتقلان من الأشجار الى الرمال الى الحشائش ويشع منهــا بريق عاطفةهادئة واحاسيس نبيلة. وكان صوته الهادىء ينم عن السرور الذى يشعر به من يدلى بأفكاره الى شخص عزيز . وكانت يلينا تنصت باهتمام بالغ ووجههــا متجه

اليه وقد ثبتت نظرها على محياه وعلى عينيه ، ولكنه كان يتجنب النظر الى عينيها ·

كان قلبها يتفتح وكان هناك شيء رقيق ونبيل وطيب يتدفق اليه أو ربما ينمو فيه ·

(٥)

امضى شوبين في حجرته بقية اليوم · وعندما ترك برزنيف أنا فاسيليفنا ويلينا وزويا وصـــعد الى حجرة صديقه كان الظلام قد حل وتلألأت النجوم وتوسط القمر السماء ، ولما وجد باب الغرفة مغلقا طرقه فرد شوبين من الداخل قائلا : من الطارق ؟

ـ واجابه برزنيف : أنا يا شوبين ·

ـ وماذا تريد ؟

ـ افتح يا شوبين ولا داعي للغضب · انت لا شك تشعر بالخجل من نفسك ·

ـ أنا لست غاضـــبا ـ انني نائم كما انني احلم بزويا ·

ـ كف عن هذا الحديث وافتح البـــاب فانا اريد أن أتحدث اليك

ـ الم يكفك الحديث مع يلينا ؟

ـ افتح الباب ودعني ادخل ٠

ولكن شوبين أجاب بشخير مفتعل فهز برزنيف كتفيه وبدا يسير عائدا الى بيته ٠

الليل حار ساكن ، برزنيف يتوقف من آن لآخر يرقب ما حوله ويسمع حفيفا يشبه حفيف ملابس النساء ٠ فكان هذا يثير فيه شيئا من الخوف ٠ وسرت في جسده رعشة خفيفة وتجمدت في عينيه دمعة وود لو انه استطاع ان يختبىء أو أن يستمر في السير بخطوات هادئة ٠ وهبت عليه نسمة من الهواء ، وفجأة ، سقط على الارض جعران من احد فروع الاشجار واحدث سقوطه صوتا أفزعه وجعله يتوقف عن السير مرة اخرى ٠ ثم تذكر يلينا فاختفت كل هذه المشاعر والأحاسيس العابرة في الحال وبقيت انطباعاته القوية السابقة عن الفترة التي قضاها مع يلينا التي ملكت صورتها كل مشاعره ٠

وعاود السير واخذ يسترجع كل ما قالته له ٠ وخيل اليه أنه يسمع وقع اقدام مسرعة خلفه فانصت جيدا وتبين له ان هناك شخصا يعدو كي يلحق به ٠ وفجأة ظهر شوبين من بين الظلال المعتمة للاشجار المحيطة به ٠ كان لا يلبس قبعته ، ولم يكن مهندما ، وكان يبدو شاحبا في ضوء القمر ٠ قال وهو يلهث : من حسن الحظ أنك سلكت هذا الطريق لأنني لو لم ألحق بك لما ذقت النوم لحظة واحدة ٠ اعطني يدك ٠ اعتقد انك ذاهب الى البيت ٠ أليس كذلك؟

ـ نعم ٠
ـ سأرافقك ٠
ـ اين قبعتك ؟
ـ لا تهتم بذلك ٠ لقد خلعت رباط عنقي كذلك فالجو حار ٠

وسار الصديقان صامتين فترة من الوقت ٠

ـ وتكلم شوبين فجاة فقال : اظن انني ظهرت بمظهر غير لائق اليوم ٠ اليس كذلك ؟

ـ فقال له برزنيف : هذا صحيح والحق انى لم افهمك لا سيما انني لم اركـ تتصرف على هذا النحـــو من قبل ٠ ما الذي اغضبك الى هذا الحد ؟ لقد كان السبب في غاية التفاهة ٠

ـ اجاب شوبين بحدة : هذه وجهـــة نظرك انت ٠ ولكنني لست في حالة تسمح بمناقشة هذه التفاهات ٠ ولك أن تعتقد ما تشاء ٠ ولكنني اريد ان اقول لك انني٠٠ انني ٠٠ احب يلينا ٠

ـ ورد عليه برزنيف وقد توقف عن السير : انت تحب يلينا ؟

ـ قال شوبين : نعم ٠ هل هذا يثير دهشـــتك ؟ ساقول لك اكثر من هذا ٠ لقد كنت آمل حتى هذا المساء ان ياتي يوم تبادلني هي فيه هذا الحب ٠ ولكنني تبينت هذا المساء انه لا امل لى في ذلك فهي تحب شخصا آخر ٠

ـ هل الامر كذلك ؟ ومن هو هذا الشخص ؟
ـ هذا الشخص هو أنت ٠
ـ قال ذلك وضرب برزنيف براحته على كتفه ٠٠
ـ انا ؟
ـ اجل ٠

فتراجع برزنيف قليلا ووقف واجما بينمـــا أخذ شوبين يحدق النظر في وجهه ثم قال له : يبـــدو انك صدمت ٠ انت شاب متواضع ولكنها تحبك فليطمئن قلبك من هذه الناحية ٠

ـ فرد عليه برزنيف بشيء من الضيق قائلا : ماهذا الهراء الذى تقوله ؟

ـ هذا ليس هراء ٠ ولكن لماذا توقفنا عن السير ؟
دعنا نسير وذلك أفضل كثيرا ٠ انني اعرف يلينـا منذ زمن طويل وقد خبرتها جيدا ولا يمكن ان اخطيء وقد استحوذت على قلبها ومضى الوقت الذى كانت تميل الى فيه ٠٠ ان مزاحي لا يستهويها ولـــكنك رجل جاد قوى الخلق وقوى البنية كما انك تفيض حماسة وتمثل بحق أولئك العلماء الذين يفخر بهم نبلاء روسيا ٠ وفضلا عن ذلك فقد شاهدتني يلينا منذ ايام وانا اقبل يدى زويا ٠
ـ يدى زويا ؟

ـ نعم يدى زويا ٠ لقد خانتني مقاومتي ٠ ان لهـا كتفين جميلين ٠

ـ كتفين ؟

ـ نعم · كتفين او يدين · ما الفرق ؟ لقد شاهدتني زويا في هذا الموقف بعد العشاء رغم انني كنت انتقدها قبل العشاء امامها · واخشى الا تفهم يلينا أن مثل هذا التناقض شيء طبيعي · ثم جئت انت بعد ذلك وانت رجل حساس رقيق المشاعر تستطيع ان تتحدث عن شيلر وشيلنج ، وهي تسعى دائما وراء الرجال المرموقين ، لذا فقد فزت أنت اما انا فانني تعس رغم انني احاول ان ابدو مرحا ·· انني ··

وانفجر شوبين باكيا ثم خطا جانبا وجلس على الأرض وامسك شعره بيديه ··

ـ فاقترب برزنيف منه وقال له : انك تتصرف كطفل يا بافل · ما الذى اصابك هذه الليلة ؟ وما هذا الهراء الذى تقوله ؟ هاأنذا اراك تبكى · انا اعتقد أن كل هذا تظاهر ·

ـ فنظر اليه شوبين والدموع تترقرق فى عينيه وابتسم ثم قال :

لك أن تعتقد ما تشاء يا اندريا اما أنا فاعتقد انني اصبت بحالة هستيرية · ولكنني احب يلينا ـ اقسم انني احبها ولكنها تحبك انت · على اى حال ، لقد وعدت أن أصحبك الى بيتك وسأفى بوعدى · ثم انتصب واقفا وهتف : ياله من ليل ساحر يشعر المحبون فيه بمنتهى

السعادة • انهم لا ينامون فى مثل هذه الليلة • سوف لا تنام يا اندريا ، اليس كذلك ؟

– ولم يجب برزنيف ولكنه أسرع الخطى • فقال شوبين : لماذا تسرع هكذا ؟ تاكد انه لن تمر بك ليله كهذه طول حياتك ، وكل ما ينتظرك فى بيتك هو شيلنج • لا شك انه سندك وقوى مركزك اليوم ولكن حتى هذا لا يعتبر مبررا لكى تسرع هكذا • الا تعرف الغناء ؟ ارفع صوتك بالغناء قدر ما تستطيع او اخلع قبعتك وامرح وابتسم للنجوم فانها جميعا تنظر اليك وحدك • ان النجوم تنظر الى المحبين وهذا هو سر جمالها • انك تحب يا اندريا اليس كذلك ؟ انت لا تريد ان تجيبنى • لماذا لا تجيبنى؟ ما دمت تشعر بالسعادة فمن الأفضل الا تجيب • اننى اثرثر لاننى تعس – لاننى شخص لا يحبه احد • انا كالممثل او مهرج السيرك • وكم كنت اشعر بالنشوة فى مثل هذه الليلة تحت هذه النجوم المتلألئة لو اننى عرفت ان هناك من يحبنى • هل تشعر بالسعادة يا برزنيف ؟

استمر برزنيف فى السير دون ان ينبس • وبدت امامهما انوار القرية التى يعيش فيها وهى تظهر وتختفى من بين الاشجار • كانت هذه القرية تتكون من اثنى عشر كوخا • وكان على يمين الطريق حانوت بدال اغلقت نوافذه وانساب من بابه المفتوح شعاع من النور • وكانت فتاة يبدو انها خادمة تقف فى الدكان تساوم صاحبه • كانت تضع منديلا حول راسها ووجنتيها وتضمه بيدها عند

ذقنها · ومر الرجلان عبر شعاع النور ونظر شوبين الى داخل الدكان وتوقف ثم صاح « انوشكا » فاستدارت الفتاة برشاقة وظهر وجهها الجميل وعيناها المسليتان وحاجباها الأسودان · وناداها شوبين مرة أخرى « انوشـــــكا » · فنظرت الفتاة اليه وخرجت مسرعة من الدكان وقد بدا عليها الخوف والخجل دون ان تكمل مشترياتها وعبرت الطريق الى الجهة المقابلة واسرعت الخطى وهى تتلفت خلفها اما البقال فانه كغيره من بقالى الريف لم يظهر اى اهتمام باى شيء وسعل وتثاءب بينما التفت شوبين الى برزنيف وقال : انها ·· انها ·· هنا اسرة اعرفها ·· انهـــا ·· لا تذهب بخيالك بعيدا ·· واسرع خلفها دون ان يكمل جملته ·

ـ وقال له برزنيف وهو يحاول أن يمنع نفسه من الضحك : جفف دموعك على الأقل ياشوبين ·

ولكنه عندما عاد الى بيته كان قد اختفى من وجهه كل تعبير للمرح ولم يعد يشعر بالرغبة فى الضحك · انه لم يصدق كلمة واحدة مما قاله شوبين ولـكن الـكلمات تغلغلت الى أعماق قلبه وقال لنفسه : كان بافل يستدرجنى ولكن هذه الفتاة لابد ان تقع فى الحب يوما · من يا ترى سيكون هذا الشخص ؟

كان برزنيف يمتلك « بيانو » فى حجرته ولو انه كان قديما ، فجلس اليه واخذ يعزف باصبع واحد · لقد تلقى كغيره من النبلاء الروس دروسا فى الموسيقى وهو

صبى فى المدرسة ولكنه لم يكن يجيد العزف . ورغم ذلك فقد كان يعشق الموسيقى . لم يكن يحب فن الموسيقى او الصور الموسيقية ولكنه كان يهوى الموسيقى البسيطة التى تثير فى الانسان مجموعة من المشاعر المختلطة . واستمر يعزف أكثر من ساعة وهو يدق نفس الانغام مرات ومرات ويتعثر وهو يبحث عن غيرها ويتوقف ثم يعاود العزف . كان قلبه مثقلا . وترقرقت الدموع فى عينيه أكثر من مرة دون ان يشعر بالخجل فقد كان يذرفها فى الظلام . وقال لنفسه : كان بافل على حق حين قال اننى لن أرى ليلة كهذه مرة اخرى . ثم قام من مكانه واشعل شمعة واستبدل ملابسه ثم امسك المجلد الثانى من كتاب تاريخ الهنستوفيين من تاليف رومر وجلس يقرا وهو يتنهد .

(٦)

عادت يلينا الى حجرتها وجلست أمام النافذة المفتوحة واخذت رأسها بين راحتيها . لقد اعتادت أن تمضى ربع ساعة كل مساء أمام النافذة تسترجع أحداث اليوم السابق . كانت فى العشرين من عمرها وكانت فارعة القوام ذات بشرة ناعمة وعينين رماديتين واسعتين وحاجبين مقوسين وجبهة عريضة وانف دقيق وشفتين رقيقتين وذقن مدببة . وكانت تتدلى على عنقها الرقيق

ضفيرة من الشعر الكستنانى الفـــاتح . كان كيانها كله وتعبير وجهها الذى ينم عن شيء من الخجل ونظرتها الصافية وابتسامتها الجميلة وصوتها العذب توحى كلها بجاذبيـــة غريبة وان كانت جاذبية لا تروق لكل النـــاس وكانت يداها نحيلتين وأصابعها طويلة كما كانت قدماها صغيرتين وكانت خطواتها سريعة رشيقة . وكانت يلينا فى طفولتها طفلة غريبة . فقد أحبت والدها حبا جما فى اول الأمر ثم هامت بحب والدتها ولكن عاطفتها نحوهما ونحو والدها بالذات اعتراها الفتور بعد ذلك . وبدأت تعامل والدتها وكأنها كانت تعامل جدتها العجوز المريضة . فى حين ان والدها الذى كان فخورا بها وهى طفلة بدأ يخشاها بعد ان كبرت ويقول عنها انها جمهورية النزعة شديدة الحمـــاس للحزب الجمهورى . كانت تكره الضعيف ولا تتحمل الغباء ولا ترضى عن النفاق . ولم يكن ثمة شيء يجعلها تتزحزح عن مبادئها . وان حدث وفقد انسان احترامها وما أسرع ما كانت تصدر حكمها على الناس . فانها كانت لا تعترف بوجوده كانت كل انطباعاتها تؤثر فيها تأثيرا عميقا ، ولم تكن الحياة بالنسبة لها أمرا يسيرا .

المربية التى عهدت اليها انا فاسيليفنا بالاشراف على اكمال تعليم ابنتها ـ وهو التعليم الذى يمكن أن يقال ان هذه المرأة لم تبدأه ـ كانت ـ روسية ابنة رجل فقد مركزه بسبب الرشوة ، وقد تلقت تعليمها فى معهد خاص لبنات الطبقة الراقية وكانت عاطفية طيبة القلب ولكنها كانت

زانفة وكانت كثيرة العشق وانتهت بان تزوجت وهى فى الخمسين ـ وكانت يلينا فى السابعة عشرة ـ من ضابط سرعان ما هجرها وكانت مولعة بالادب ولها بعض محاولات فى قرض الشعر .

وقد ولدت فى يلينا حب القراءة . ولكن يلينا لم تكتف بالقراءة بل كانت منذ طفولتها تتوق للنشاط وللقيام بعمل اخير . كان الشحاذون والمرضى والعوزون يشغلون جزءا كبيرا من تفكيرها . كانت تراهم فى احلامها ، وتعطيهم المعونات وتوفر لهم المساعدات بكل طاقتها . كانت الحيوانات الضعيفة والقطط الجائعة والطيور الصغيرة التى سقطت من أعشاشها بل وحتى الحشرات والزواحف تجد العناية والمساعدة عند يلينا التى لم تكن تتأفف من اطعامها بيدها . ولم تكن والدتها تلقى بالا لهذا الامر اما والدها فكانت تثيره هذه التصرفات التى كان يسميها « عاطفة مبتذلة » ، وكان يقول ان كلابها وقططها ستدفعه الى هجر البيت . وكان احيانا يناديها ويقول لها : لينا ، تعالى بسرعة فهناك عنكب يمتص دماء ذبابة مسكينة فانقذيها . وسرعان ما تهرول يلينا منزعجة وتنقذ الذبابة .

وعندما كانت يلينا فى سن التاسعة تعرفت على سائلة اسمها كاتيا . وكانت تتسلل خلسة الى الحديقة لكى تقابلها وتقدم اليها بعض الطعام والحلوى والمناديل والنقود . وكانت تجلس معها على الارض فى ركن ناء فى الحديقة وتقاسمها خبزها الجاف وتنصت الى قصصها . وكانت

لكاتيا خالة عجوز شريرة تكرهها كاتيا وتردد قولها بانها تريد ان تهرب منها لتعيش فى عالم « الحرية التى وفرها الرب للجميـــع » وكانت يلينا تنصت بشيء من الاحترام والرهبة الى هذه الالفاظ الجديدة التى لم تالفها . وكانت تركز نظراتها على كاتيا التى كان كل شيء فيها ـ عيناها السوداوان اللامعتان ببريق غريب ويداها اللتان احرقتهما الشمـس وصوتها وحتى رداؤها البالى ـ يبدو امامها غريبا. وعندما كانت لينا تعود لبيتها كانت تظل تفكر فترة طويلة فى المتسولين وفى « الحرية التى منحها الرب للجميع » . كما كانت تفكر فى ان تقطع لنفسها عصا من فرع احدى الاشجار وتحمل مخلاة على كتفها وتهرب مع كاتيا . كانت تفكر فى ان تجوب الشـــوارع والطرقات وقد وضعت على راسها اكليلا من سنابل القمح كما كانت كاتيا تفعل احيانا. واذا تصادف ودخل حجرتها احد أفراد العائلة وهى فى لحظة من هذه اللحظات فانها كانت تقابله بتجهم وعـــدم ارتياح . وقد ذهبت ذات يوم مطـير لرؤية كاتيا فابتل ثوبها ، ورآها والدها فأنبها ، فاحمر وجهها وتالمت ، فقد كانت شديدة الحساسية . وكثيرا ما كانت تسمع كاتيا وهى تغنى اغنية من اغانى الجنود فحفظتها . وقد سمعتها انا فاسليفنا ذات مرة وهى تغنيها فعنفتها وسالتها من أين جاءت بهذه الاغنية المبتذلة .

ـ فنظـرت يلينا الى امهـا دون ان تنبس بكلمة ، وكانت تشعر بانها لا يمكنها ان تبـوح بسرها حتى ولو

قطعت اربا ، وعاودها احمرار وجهها وتألمها • ومهما يكن الأمر ، فان اتصالها بكاتيا لم يستمر طويلا فقد مرضت الفتاة المسكينة بالحمى وفارقت الحياة •

وعندما علمت يلينا بخبر وفاة كاتيا حزنت عليها كثيرا وجفاها النوم عدة ليال ، وظل صوت هذه الفتاة المسكينة وكلماتها الاخيرة تتردد فى اذنها . بل وخيل اليها انها تناديها •

وهكذا تتابعت السنون وشبت يلينا . وكان شبابها يبدو هادئا الا أنه كان يتسم بالصراع والقلق • ولم يكن لها صديقات ولم يكن لسلطة الوالدين وزن لديها • وكانت تتمتع باستقلال كبير منذ ان بلغت السادسة عشرة • وكانت تعيش حياة خاصة بها تغلب عليها العزلة والوحدة، كانت ترفرف كالطائر الحبيس دون ان تكون حبيسة فلم يكن هناك من يحبسها او يقيد حركتها ، ورغم ذلك كانت تتوق للحرية • وكانت احيانا تعجز عن فهم نفسها بل وكانت تهاب نفسها • كانت الأشياء المحيطة بها تبدو لها غريبة • وكانت تخاطب نفسها : كيف يمكن ان أعيش بدون حب ؟ ولكن ليس هناك من أحب • وكانت هذه الأفكار والمشاعر تقض مضجعها • وقد أصيبت وهى فى سن الثامنة عشرة بحمى خبيثة كادت تقضى عليها ، وأثرت هذه الحمى على صحتها تأثيرا سيئا ولكنها شفيت منها تماما • على أن اباها ظل يتحدث دائما عن اعصابها حديثا يخلو من العطف • وكانت تتصور احيانا أنها تريد شيئا

لا يريده أى انسان آخر ولا يفكر فيه أحد فى روسيا قاطبة . ثم تتراجع عن ذلك وتضحك من نفسها . وقد تمضى اياما خالية البال وفجأة يثور فى أعماقها شىء لا تميزه ولكنه شىء قوى لا قبل لها بمقاومته ... شىء يبحث لنفسه عن مخرج . ثم تهدأ العاصفة فى حنايا صدرها ويعاودها الهدوء . ولكن هذه الانفعالات العنيفة كانت تهزها . ورغم انها كانت تحاول جاهدة ان تملك زمام نفسها فقد كان الصراع الذى يعتمل فى نفسها يعبر عن نفسه حتى فى هدوئها الظاهرى وكانت زميلاتها على حق فى التعجب من تصرفاتها وكن يعجزن عن فهمها .

وفى اليوم الذى بدات فيه قصتنا مكثت يلينا أمام النافذة أكثر مما اعتادته واخذت تفكر كثيرا فى برزنيف وفى حديثها معه . لقد شعرت بميل نحوه وآمنت بصدق عواطفه وطيب نواياه . لم يسبق لبرزنيف ان تحدث معها على هذا النحو وتذكرت نظرة عينيه وابتسامته . وهنا ارتسمت ابتسامة على شفتيها واخذت تفكر ولكنها لم تكن تفكر فيه . لقد أخذت تحدق النظر « فى الليل » من خلال النافذة المفتوحة . وظلت تنظر الى السماء المظلمة فترة ، ثم قامت من مكانها ورفعت يديها لاعلى نحو السماء دون ان تدرى لذلك سببا ثم أنزلتهما وركعت الى جوار سريرها ووضعت وجهها على وسادتها ثم انفجرت باكية رغم محاولاتها ألا تستسلم للمشاعر التى سيطرت عليها .

(٧)

فى اليوم التالى استقل برزنيف عربة وعـــاد الى موسكو . كان يريد أن يشترى بعض طوابع البريد وبعض الكتب وان ينتهز الفرصة لمقابلة انزاروف . وكان اثناء محادثته الاخيرة مع شوبين قد فكر فى دعوة انزاروف الى مسكنه ولكنه امضى وقتا طويلا فى التعرف على مكان هذا البلغارى . وكان انزاروف قد انتقل الى مسكن جديد لم يكن من السهل بلوغه . فقد كان يقع فى الفناء الخلفى لأحد المنازل المشيدة على طراز بطرســبرج بين شــارع ارباط وشارع بوفارسكايا . واخذ برزنيف يتنقل من منزل الى آخر وهل يسأل حارس المنزل أو من يجده ولكنه لم يوفق فى محاولاته تلك . واخيرا رقت لحاله امرأة ترتدى ثوبا باليا واشارت له الى مـسكن انزاروف ، وهناك وجـــده برزنيف وكانت الحجرة التى يســتأجرها انزاروف كبيرة وشبه خالية . كان بها ثلاث نوافذ وفراش صغير فى أحد الاركان ومقعـد من الجلد فى ركن آخر وقد علق على الحائط قفص كان به ، ذات يوم ، كروان حبيس وقد هرع انزاروف الى مقابلة برزنيف حــال اجتيازه باب الغرفــة وهتف به : اى ريح طيبة أتت بك الى هنا . ثم شد على يده وقاده الى المقعد الوحيـد فى الحجرة ، وهو يقــول : جلس على هذا المقعد . بينما جلس هو على حافة المنضدة . ثم اضاف مشيرا الى كومة من الأوراق والكتب على الأرض :

الحجرة غير مرتبة كما ترى .. انني لم ارتب اموري بعد اذ لا وقت لدي .

كان انزاروف يتحدث الروسية جيدا وكان ينطق كل كلمة بدقة ووضوح ، ولكنه كان يتحدث بلهجة غير روسية .. وكان اصله الاجنبي اكثر وضوحا في مظهره . كان يناهز الخامسة والعشرين ، كان نحيلا ذا ملامح دقيقة وانف مقوس وشعر اسود وجبهة صغيرة وعينين ثاقبتين وحاجبين اشعثين وشفتين رقيقتين . وكان يرتدي معطفا انيقا .

وساله برزنيف قائلا : لماذا تركت مسكنك السابق ؟

ـ هذا المسكن ارخص واقرب للجامعة .

ـ ولكننا الآن في العطلة . هل تنوي تمضية الصيف في المدينة ولقد كان من الأفضل لك أن تستاجر كوخا مادمت قد قررت ان تترك المسكن الاول .

ولم يجبه انزاروف وقدم له غليونا وقال له : معذرة- فليس عندي سجائر او سيجار . وتناول برزنيف الغليون واشعله .

ـ وتحدث برزنيف قائلا : لقد استاجرت كوخا بالقرب من كونتسوفو وهو رخيص ولطيف وهناك حجرة فائضة في الدور العلوي .

ـ ومرة أخرى لم يجب انزاروف .

ـ وجدب برزينيف نفسا طويلا من الغليون وقال له : كنت اقول لنفسي لو انني وجدت شخصا مثلك على استعداد لشغل تلك الغرفة لكان هذا شيئا جميلا ٠ ما رايك يا ديمتري ؟

فنظر اليه انزاروف وقال : هل تعرض علي ان اسكن معك ؟

ـ نعم فعندي حجرة زائدة في الدور العلوي ٠

ـ اشكرك جدا يا اندريا ولكنني أعتقد ان مواردي لا تسمح بذلك ٠

ـ لماذا ؟

ـ امكانياتي لا تسمح لي بالمعيشة في الريف ٠ كما أن الاحتفاظ بمسكنين في وقت واحد عملية لا تتحملها مواردي ٠

ـ فقال برزنيف : ولكنني لم ٠٠٠ ثم توقف ٠ وعاد فقال : ولكن ذلك لن يكلفك أي مصاريف اضافية ٠ سوف تحتفظ بهذا المسكن طبعا ، ستجد ان كل شيء رخيص للغاية ، كما اننا نستطيع أن ننظم عملية تناول الطعام معا ٠

ولاذ انزاروف بالصمت ، وشعر برزنيف بشيء من الحرج ٠ ولكنه قطع الصمت قائلا : تفضل بزيارتي على الأقل ٠ وسيكون من بواعث سروري أن اعرفك باحدى العائلات التي تسكن الى جواري ٠ ولهذه العائلة ابنة

مدهشة حقا . كما ان لى هناك صديقا عزيزا . وهو رجل موهوب ، وأنا واثق انك سترحب بصداقته . أستحلفك ان تاتى . ولو اننى افضل أن تنتقل الى مسكنى . سيكون فى وسـعنا ان نعمل ونقرأ معـا . اننى أدرس التاريخ والفلسفة وهى مواد تهمك كما أننى أمتلك مجموعة كبيرة من الكتب .

وقام انزاروف من مكانه وأخذ يسير فى الحجرة جيئة وذهابا ثم قال : هل لى ان اسالك كم تدفع ايجارا لكوخك؟

ـ مائة روبيل من الفضة .

ـ وكم عدد غرفه .

ـ خمسة .

ـ أى ان ايجار الغرفة عشرون روبيلا .

ـ نعم . ولكننى فى الحقيقة لست فى حاجة الى هذه الغرفة وهى خالية .

ورد انزاروف بلهجة قاطعة : لن أقبل هذا العرض الا اذا وافقت على أن أدفع ايجار الغرفة ان فى استطاعتى ان أدفع عشرين روبيلا خصوصا انك قلت انى استطيع ان اوفر فى كل شىء .

ـ بالتأكيد . ولكننى لا اشعر بالارتياح لهـــذا الحل .

ـ انا لا اقبل اى حل آخر يا اندريا .

ـ حسن • لك ماتريد ، ولكن اسمح لى أن اقول انك صلب الرأى •

ومرة اخرى لم يجب انزاروف ••

واتفق الصديقان على اليوم الذى سيرحل فيه انزاروف • واستدعيا المالك ولكنه ارسل ابنته اولا وهى فتاة فى السابعة من عمرها فاستمعت الى كل ما قاله لها انزاروف ثم خرجت فى هدوء ودخلت امها وكانت حاملا فى شهرها الاخير فاخبرها انزاروف انه سيرحل الى الريف بالقرب من كونتسوفو ولكنه يريد ان يحتفظ بمسكنه وطلب منها ان تعتنى بحوائجه • فخرجت واخيرا دخل المالك بنفسه وقد بدا عليه انه يفهم الموقف ، ولكنه سأل قبل أن يغادر الحجرة : بالقرب من كونتسوفو ؟ اليس كذلك ؟ ولكنه عاد وتساءل : ولكن استحتفظ بالحجرة ؟ لابد لى ان اعرف • فأكد له انزاروف أنه سيحتفظ بها

وعاد برزنيف الى بيته وهو فى غاية السرور لنجاح مهمته • واوصله انزاروف الى الباب مودعا ثم خلع معطفه بكل عناية وبدأ فى ترتيب أوراقه •

(٨)

جلست انا فاسيليفنا ذلك المساء فى حجرة الجلوس وهى توشك على البكاء • كان معها زوجها وضيف اسمه

بوفارايفانوفتش ستاكوف وآخر اسمه نيكولاى ارتيميفتش من الاقارب الأباعد وهو ضابط متقاعد في الستين من عمره تقريبا ضخم الجثة ذو وجه منتفخ • وكان منذ تقاعده يعيش في موسكو على دخل يأتيه من ثروة تركتها له زوجته وكانت من أسرة تعمل بالتجارة قبل وفاتها ولم يكن هذا الضابط المتقاعد يقوم بأى عمل بل ولم تكن لديه قدرة على التفكير قط واذا فكر فانه كان يحتفظ بأفكاره لنفسه •

اما يوفار ايفانوفتش فكان يرتدى حلة بنية اللون ويلف حول عنقه منديلا أبيض• وكان يأكل كثيرا وبكميات كبيرة • وكان اذا أراد ان يعبر عن رأيه ثنى اصابع يده اليمنى ورفعها فى الهواء فى عصبية كان يتكلم بصعوبة وكان يجلس على مقعد كبير بالقرب من النافذة ويتنفس بمشقة •

وكان نيكولاى ارتيميفتش ستاكوف يغدو ويروح فى الحجرة وقد وضع يديه فى جيبيه وارتسمت على وجهه نظرة تنم عن عدم الرضا • واخيرا توقف وهز رأسه ثم قال :

ــ نعم •• لقد كانت اخلاق الشباب فى ايامنا تختلف عما هى عليه الآن • فالشبان فى أيامنا لم يكونوا يتجاهلون من يكبرونهم • ولكن الانسان يدهش من سلوكهم الآن • قد اكون على خطا وهم على صواب ــ ربما• ولكننى لا ازال احتفظ بآرائي الخاصة عن كل شيء •

على اى حال ، انا لم اولد غبيا • مارايك فى هذا يا بوفار ايفانوفتش ؟

ونظر اليه بوفار واخذ يثنى اصابعه •

ومضى ستاكوف فى حديثه قائلا :

ـ خذ يلينا نيكولايفنا مثلا ، اننى حقيقة لا افهمها فعقلى يعجز عن ذلك ان قلبها كبير حتى أنه يتسع لجميع المخلوقات الى اصغر صرصور او ضفدعة • انه يتسع لكل شيء ولكل انســـان الا اياها • انا اعرف ذلك ولكـننى لا اتدخل فيما لا يعنينى فذلك امر يتعلق بالاعصاب والعلم والتحليق فى الآفاق العليا وهى كلها امور لا افقه فيهـــا شيئا • ولكن ما خطب المستر شوبين • انا اسلم بانه فنان عظيم ولا اجادل فى هذا ، ولكن عدم احترامه لشـــخص يكبره سنا ويدين هو له بالكثير شيء لا اقبله انا لا ابالغ ولكن لكل شيء حد •

ودقت انا فاسيليفنا الجرس بانفعـــال وجاء الخادم فسالته قائلة : اين بافل ياكوفليفتش ولماذا لا يأتى عندما اناديه ؟

فهز ستاكوف كتفيه وقال :

ـ لماذا تريدينه ؟ انا لم اطلب منك ان ترسـلى فى طلبه ولا اريد أن تفعلى ذلك •

ـ ماذا تعنى بسؤالك هذا ؟ لقد ضايقك • وربمـــا

اثر ذلك فى سير علاجـك • اننى أريد أن يوضح لى كلْ شىء كما اريد أن اعرف كيف اغضبك •

ـ اكرر انى لا ارغب فى ذلك • واســتأنف يقول بالفرنسية : تصورى كيف يكون هذا أمام الخدم !

فاحمر وجه انا فاسيليفنا قليلا ثم قالت :

ـ لا تقل هذا يا نيكولاى ارتميفتش • اننى لا افعل مثل هذه الاشياء ••• (واضافت بالفرنسية) امام الخدم •• اذهب يافيديا واحضر بافل ياكوفليفتش فى الحال •

فخرج الخادم ••

وقال ستاكوف : لا داعى لذلك انا لم اقصــد هذا أبدا •

ثم اخذ يسير فى الحجرة جيئة وذهابا مرة أخرى ••

ـ ولكن لابد لبول ان يعتذر لك •

ـ له ؟ وما اهمية اعتذاره ؟ ان الاعتــــذار ليس الا مجرد كلمات ••

ـ ماذا تعنى بقولك ـ لماذا ـ لابد لنا ان نؤنبه •

ـ افعل ذلك انت فقد يستمع اليك • اما انا فانى لا احمل له اى ضغينة •

ـ كلا ، كلا ، يانيكولاى ارتيميفتش • لقد أصبحت حاد الطبع منذ مجيئك • بل ويبدو انك فقدت كثيرا من وزنك فى الفترة الاخيرة ، واخشى ان تكون المياه المعدنيــة قد اصبحت لا تفيدك •

ـ انا لا استطيع ان استغنى عن المياه المعدنية دهى ضرورية لكبدى المريض ٠

وحضر شوبين في هذه اللحظة كان يبدو عليه التعب وكانت ابتسامة ساخرة تعلو شفتيه ٠ وسالها قائلا :

ـ هل ارسلت في طلبي يا انا فاسيليفنا ؟

ـ بالطبع ٠ استمع الى يابول ٠ هذا شيء مريع ٠ انا غير راضية عنك ٠ لماذا تظهـــر عـدم الاحترام لنيكولاى ارتيميفتش ؟

ـ هل اشتكى لك نيكولاى ارتيميفتش منى ؟

وجه اليها هذا السؤال وهو ينظر الى ســـــتاكوف والابتسامة الساخرة لا تبارح شفتيه ٠ فابتعد ستاكوف وخفض عينيه ٠٠

ـ اجل ٠ انا لا اعرف كيف اهنته ولكنك لابد ان تعتذر له في الحال فصحته ليست الآن على مايرام ٠ ثم ان من واجب الشبان أن يحترموا من يحسنون اليهم ٠ وحدث شوبين نفسه قائلا :

ـ يا الهى ٠ ياله من منطق ! ثم استدار الى ستاكوف، وقال له وهو ينحنى امامه نصف انحناءة :

ـ انا على استعداد لأن أقدم لك اعتذاراتي يانيكولاى ارتيميفتش اذا كنت قد جرحت مشاعرك ٠

فأجابه ســـتاكوف قــائلا : وليس الامر كذلك على

الاطلاق . وعلى كل فقد عفوت عنك عن طيب خاطر وانت تعلم أنني لا احمل ضغينة لأحد .

قال شوبين : لاشــك في هذا . ولكن هل لي أن اسأل : اتعرف انا فاسيليفنا ما ارتكبته أنا في حقك ؟

فقالت انا وهي تمــد رقبتهـا : كلا انا لا اعرف شيئا .

فصــاح ستاكوف قائلا : يا الهي . فقد طلبت اليك ورجوتك واخبرتك عدة مرات اني أكره هذه المواقف . إن الانسان ياتي الى البيت لينشد الراحة فيقال له ان هنـاك اجتماعا عائليا وان عليه ان يتصرف كرب اسرة ، لا يجد الانسان في بيته الا المتاعب لا يستطيع الانسان ان يستريح في بيته ، اذا فانه يجد نفسه مضطرا للذهاب الى النـادي او لأي مكان آخر . نحن بشر ولبدننا علينا حق ولكن بدلا من ذلك ..

ونهض ســتاكوف وخــرج مسرعــا دون ان يكمل حديثه واغلق الباب خلفه . ونظرت انا فاسيليفنا اليه وهو يخرج وقالت هامسة : الى النادي ؟ لن تذهب الى النــادي أيها الرجل الماجن ، فليس في النادي من تهديه جوادين اشهبين من حظيرتي الخاصة ، ايها المنافق . لست ذاهبا الى النادي . وانت يابول الا تشعر بالخجل من نفسك ؟

قالت ذلك وهي تهم بالوقوف . ثم اضافت قائلة : كنت اعتقد انك قد نضجت . انني اشعر بصــــداع . الا تعرف اين زويا ؟

ـ أعتقد انها فى الدور العلوى . انها كالثعلب الماكر تختبىء فى ركنها الخاص عندما يكون الجو بهذا الشكل .

ونظرت انا فاسيليفنا حولها وهى تبحث عن شىء ثم قالت : من فضلك يابول .. الم تر نظارتى ؟ حقق رجائى ولا تفعل ما يغضبنى بعد الآن ..

ـ كيف استطيع انا غضبك ياخالتى ؟ دعينى اقبل يدك . اما نظارتك فقد رايتهـــا على منضدتك فى حجرة المكتب .

فقالت وهى تغادر الحجرة : ان داريا يخطىء دائما ولا يضعها فى المكان الصحيح .

وقام شوبين ليلحق بهـا ولكنه توقف عندما سمع صوت يوفار ايفانوفتش خلفه يقول : ليست هذه .. هى المعاملة التى ينبغى أن تصدر من شخص مثلك .

فسار شوبين اليه وقال له : لم لا أيها المحترم ؟

ـ لم لا ؟ انك صـــغير السن وواجبـك ان تظهر الاحترام ...

ـ لمن ؟

ـ الا تعرف لمن ؟ انت تعرف لمن .

فوضع شوبين ذراعيه على صدره وقال : لا بد انك تمثل مبادىء هذا المجتمع واساس هذا البناء الاجتماعى .

وثنى يوفار ايفانوفتش اصابعه وقال : كفى ايهـا الشاب ولا تخرجنى عن طورى .

ومضى شوبين يقول : ها أنذا أرى نبيـــــلا لم يعد شابا كما كان ولكنه يبدو سعيدا ولا يزال يتمسك بعناد الأطفال ‥ احترام ‥ يالها من كلمة ٠ هل تعرف ايهـا الرجل البدائي لماذا غضب نيكولاى ارتيميفتش منى ؟ لقد كنت أنا وهو فى بيت الأرملة طوال الصباح وكنا نغنى نحن الثلاثة أغنية ، تلكا معى قليلا ، لابد انك ســـمعتها واظنك تحب مثل هذه الأشياء ٠ واخذنا نغنى ونغنى حتى شعرت بالملل فبدأت فى مضايقتهما وقد فعلت ذلك بمهارة وقد غضبت هى منى فى أول الأمر ثم غضبت منه ثم غضب هو منها وقال انه لا يشعر بالراحة الا فى بيته الذى يشبه الجنة ٠ وقالت هى انه شخص لا خلاق له ٠ غادر البيت بينما بقيت انا ٠ وجاء هو الى هنا ـ الى الجنة ـ فوجدها لا تطاق فبدأ يزمجر ٠ والآن من منا المخطىء ؟

اجابه يوفار ايفانوفتش : أنت بالطبـــع ٠ فحملق شوبين فى وجهه وقال له فى تذلل مصطنع : هل لى أن اسألك أيها الفارس العظيم ما اذا كنت قد تفوهت بهــذه الألفاظ الغريبة نتيجة استعمالك لقدرتك على الفهم أو انك قلتها مدفوعا بدافع مؤقت لاحداث صوت نسميه بالكلام ؟

فرد عليه يوفار ايفانوفتش بغضب قائلا : قلت لك لا تخرجنى عن طورى ‥

وخرج شوبين وهو يضحك ‥

ومضت ربع ساعة تقريبا ونادى ايفانوفتش الخادم قائلا :

احضر لى .. كأسا من الفودكا .

فأحضر الخادم الفودكا وبعض الطعام على صينية ، فأخذ يوفار الكاس من الصينية برفق واخذ يتفحصها وكأنه لا يعرف ما بها . ثم نظر الى الخادم وسـأله أكان اسمه فاسكا . ثم شرب الفودكا وتناول بعض الطعام ، ثم اخذ يبحث فى جيبه عن منديله . وبعد ان حمل الخادم الصينية وزجاجة الخمر والتهم بقية طعـام كان يوفار ايفانوفتش لا يزال يمسك فى يده بمنديله وهو يحملق بشـدة فى النافذة والارض ، والجدران .

(٩)

كان شوبين قد عاد لتوه الى حجرته وفتح كتابا عندما دخل اليه خادم ستاكوف واسلمه ورقة صـغيرة تحمل خاتما خاصا . وفض شوبين الرسالة وقرا فيها ما يلى :

« ارجوك كرجل شريف الا تشير اى اشـارة الى موضوع الكمبيالة الذى جرت مناقشته هذا الصباح . انك تعرف علاقتى ومبادئى وما الى ذلك ثم هنالك بعض الاسرار العائلية التى يجب احترامها . كما ان الوفاق بين أفراد الأسرة شيء مقدس لا يحاول النيل منه سـوى من لا قلب لهم ، ولا استطيع ان انسبك اليهم . (ارجو اعادة هذا الخطاب) ...

فكتب شوبين بالقلم الرصـــاص فى آخر الخطاب ما يلى :

« لا تقلق ـ ما زلت قادرا على الاستغناء عن سرقة المناديل من جيوب الآخرين .. » ثم أعاد الخطاب للخادم وعاد لقراءة كتابه . ولكن الكتاب سقط من بين يديه . ونظر الى السماء والى لون الشفق ساعة الغروب ثم الى شجرتين كبيرتين من اشجار الصنوبر نمتا متباعدتين عن بقية الأشجار ثم قال لنفسه : ان اشجار الصنوبر يكتنفها لون يميل الى الزرقة اثناء النهار ولكنها تكتسى بلون أخضر جميل عند الغروب .

ثم نزل الى الحديقة يراوده الأمل فى أن يقابل يليينا . ولم يخب ظنه فقد رآها على الطريق الذى تحف به الأشجار فلحق بها ولما اصبح الى جوارها قال لها : لا تنظرى الى فأنا لا استحق هذه النظرة .

فنظرت اليه وابتسمت له ابتسامة خاطفة وسارت الى ركن بعيد فى الحديقة وتبعها شوبين ثم قال لها : لقد طلبت اليك الا تنظرى الى ورغم ذلك فاننى اتحدث اليك وهذا تناقض واضح . ولكن هذا لا يهم فليست هذه اول مرة افعل فيها هذا . اننى لا ازال افكر فى اننى لم اطلب منك الصفح عن حماقتى بالأمس . ارجو الا تكونى قد غضبت منى يايلينا نيكولايفنا .

فوقفت ولكنها لم تجبـــه فى الحال . لم يكن ذلك

نتيجة غضبها بل لغرقها في لجة من الافكار وقالت له اخيرا:
ـ كلا ليست غاضبة منك قط ٠

فعض شوبين على شفتيه وتمتم قائلا : ياله من وجه ينطق بامارات الانشغال والسام معا ٠ ثم قال بصوت مسموع : هل لى ان اقص عليك قصة يايلينا نيكولايفنا ؟ لقد كان لى صديق وكان له صديق كان سلوكه طيبا في اول الأمر ولكنه أدمن الخمر فيما بعد ٠ وقد التقى به صديقي صباح أحد الأيام في الشارع ـ وكانت صداقتهما قد انتهت قبل هذا اللقاء ـ ولاحظ انه ثمل فتجنبه ولكن ذلك الصديق سعى اليه وقال له : لا يهمني أنك لم تحيني بايماءة من راسك ، ولكنني اريد ان اسألك لماذا تجنبتني؟ انني أفعل ما افعله لأنني اعاني بعض المشاكل ولعل الله يمنحني راحة البال ٠٠

وسكت شوبين :

فقالت له يلينا : هل هذا كل ما عندك ؟

ـ نعم ٠

ـ ولكني لم افهم ما تشير اليه ٠ لقد طلبت مني لتوك الا أنظر اليك ٠

ـ نعم ٠ وقد اخبرتك الآن كم من الصعب ان يتجنب المرء غيره او ان يتجاهله ٠

فقالت له يلينا : ولكن هل فعلت انا ذلك ؟

ـ الم تفعل ذلك ؟

فاحمر وجه يلينا قليلا ثم مدت له يدها فسلم عليها شوبين بحرارة ٠

قالت : يبدو كانك قد ارقعتني فى مازق استحق عليه اللوم ولكن شكوكك لا اساس لها من الصحة ، فانا لم افكر فى ان اتجاهلك ٠٠

ـ حسن ٠ ولكنك تفرين أن هناك الآن الف فكرة في ذهنك ولكنك سوف لا تسرين الى بواحدة منها ٠ اليس كذلك ؟

ـ ربما ٠

ـ لماذا ؟

فردت عليه يلينا قائلة : اننى لا افهم افكارى ٠

فقال شوبين : هذا ادعى الى الافضاء بهـــا لشخص آخر ٠٠ ولكنى ســـاحدثك عن السبب فى انك لا تفعلين ذلك ٠ السبب هو انك لا تفكرين كثيرا فى انا ٠

ـ انا ؟

ـ اجل لانك تتصـــورين أن كل شيء اقوم به فيه تظاهر كثير لاننى فنان وانني غير قادر على القيام باى عمل ـ قد تكونين محقة فى هذه الفـــكرة ـ وقد ترين اننى لا استطيع انا اشعر باحساس حقيقى عميق واننى لا استطيع حتى ان ابكى بكاء حقيقيا واننى لست الا شخصا ثرثارا٠٠ وما ذلك الا لاننى فنان ٠ يالنا من طبقة تعسة نحن الفنانين اننى اراهن انك لا تؤمنين بندمى ٠

ـ انت مخطيء يا بافل ياكوفليفتش · انني اؤمن بندمك كما انني اصدق دموعك ·

قال يحدث نفسه : ارى ان هذه كما يقول الاطباء حالة ميئوس منهـــا · كل ما استطيع ان اعمله ان احني راسي خضوعا · ولكن يا الهي ·· هل يمكن ان اظل اثير الضجة حول نفسي رغم وجود هذه المخلوقة الرائعة الى جانبي ؟ وان اظل اعرف انني عاجز عن النفاذ ·· الى اعماق هذه النفس · او اجهل سبب حزنها أو سعادتها واجهل ما يدور بنفسها وما تصبو اليه والى اين تسير ؟

ثم قال لها بعد برهة وجيزة : هل تعتقـــدين انك لا يمكن ان تقعى في حب فنان تحت اى ظرف من الظروف؟

فنظرت اليه يلينا نظرة فاحصة ثم قالت :

ـ لا اعتقد ان يحدث هذا يا بافل ياكوفليفتش ·

ورد يقول في اسى : لقد ثبت ماتقولين · ويبدو لى انه يجب على الا افسد عليك خلوتك اكثر من ذلك رانت تسيرين بمفردك ·· ولو كان محدثك استاذا في الجامعة لسالك قائلا : وما هى الأســـباب التى تجعلك ترفضين ولكننى لست استاذا جامعيا · اننى طفل فى نظرك · على آية حال ليس للانسان ان يتجاهل الاطفال ·· تذكرى هذا والى اللقاء وليمنحنى الله الراحة ·

كانت يلينا على وشك ان توقفه ولكنها عدلت عن ذلك وقالت : الى اللقاء ··

وخرج شوبين من الفناء • وبعد ان ابتعد قليلا عن كوخ ستاكوف التقى ببرزنيف الذى كان يسير بنشاط وقد أحني راسه وامال قبعته فوق مؤخرة راسه •

وناداه شوبين : اندريا بتروفتش •

فوقف برزنيف ••

ولكن شوبين قال له : استمر فى سيرك استمر وادخل الى الحديقة راسا فستجد يلينا هناك اعتقد انها تنتظرك • على اى حال •• هل تنتظر احدا • هل تفهم ما تعني هذه الألفاظ ؟ انها تنتظر • وهل تعلم ما هو أغرب شيء ؟ لقد عشت معها فى بيت واحد طوال سنتين • اننى احبها ولكننى لم ارها حقيقة ـ ولا أريد أن اقول ما فهمتها ـ الا هذه اللحظة • لقد رايتها وتعجبت • ارجو الا تنظر الى وعلى شفتيك هذه الابتسامة التى لا تتناسب سخريتها مع ملامح وجهك الكريم • أنا أعلم انك تريد أن تذكرنى بانوشكا • وماذا فى ذلك ؟ انوشكا وامثالها هو ما يريده امثالى • اذن فلتحيا انوشكا وامثالها وزويا وامثالها بل وحتى اوجستينا كريستيانوفا وامثالها • اذهب أنت الى يلينا الآن • اما انا فذاهب لزيارة ••• هل ظننت اننى ذاهب لزيارة انوشكا ؟ ـ لا •• لا •• انها زيارة اسوأ من ذلك • اننى ذاهب للأمير تشيكورازوف فهناك احد مشجعى الفن بهذا الاسم • انظر الى بطاقة الدعوة هذه • انهم لا يريدون ان يتركونى وشانى حتى فى الريف • وداعا •

استمع برزنيف الى حديث شوبين الحماسي في صمت وكان حديث صديقه قد حيره ثم دلف الى فنــــاء بيت ستاكوف • اما شوبين فقد ذهب بالفعل الى منزل الأمير تشيكورازوف والقى على مسامعه كثيرا من الأشياء المقذعة بطريقة لطيفة • وضحك الأمير ملء شـــدقيه كما ضحك ضيوفه ولكن واحدا منهم لم يشعر ، في الحقيقة ، بالبهجة والسرور وعندما انفض الاجتماع عاد كل الى عبوسه •

(١٠)

رحبت يلينا ببرزنيف ترحيبــا وديا ـ وكانت في حجرة الاستقبال ـ واستأنفت باهتمام المناقشة التي كانا قد بدآها في اليــوم الســابق •• كانت بمفردها اذ كان ستاكوف قد خرج في هـــدوء ، كما كانت انا فاسيليفنا ترقد في الدور العلوى وقد ربطت يدها بضمادة وزويا الى جوارها وقد أراحت يديهــا في حجــرها • اما يوفنر ايفانوفتش فكان مستلقيا على اريكة مريحة في حجرة اخرى •

وتحدث برزنيف عن والده مرة اخرى وكان يؤمن ان ذكراه شيء مقدس • ولا يفوتنا ان نذكر هنا نبذة عنه•• لقد كان يمتلك اثنين وثمانين من العبيـــد اطلق سراحهم جميعا قبل وفاته • وكان رجلا واسع الثقافة تلقى تعليمه

فى جوتنجن والف كتابا عن « مظاهر الحياة الروحية فى العالم » وهو كتاب ضمنه اراء شيلنج وسويدنبورج وغيرهما بطريقة مبتكرة • وقد جاء والد برزنيف به الى موسكو بعد وفاة امه مباشرة واخذ يشرف على تعليمه بنفسه • وكان يعد كل درس ويعمل بمثابرة وجد ، ولكن دون اى نجاح • وكان يقضى وقتا طويلا فى القراءة ، وكان متصوفا ويتحدث بصوت متعثر لا تعبير فيه ، ويستعمل لغة غامضة بليغة منمقة يكثر فيها من التشبيهات • وكان خجولا حتى مع ابنه الذى كان يحبه من كل قلبه • لا عجب اذن فى ان ابنه كان يتطلع اليه اثناء الدروس ولكن دون ان يحرز تقدما ما • واخيرا راى الرجل الذى كان قد ناهز الخمسين وتزوج ثانية ان هذه الطريقة غير مجدية فارسل اندريا الى مدرسة داخلية • وبدا اندريا يدرس دراسة جدية ، ولكنه لم يخرج عن اشراف والده فكان والده يزوره كثيرا ودون انقطاع وكان يثقل على ناظر المدرسة بمناقشاته واحاديثه • وكان الأساتذة ينظرون بضيق الى هذا الضيف الثقيل وكان من آن لآخر ياتى لهم بكتب عن التربية كانوا يصفونها بانها كتب جافة ذات مستوى عال • حتى التلاميذ كانوا لا يشعرون بالارتياح اذ ينظرون الى وجهه الذى ترك عليه الجدرى آثاره التى لا تمحى والى قوامه النحيل وهو يرتدى حلته الرمادية • ولم يكن يخطر ببالهم أن هذا الرجل العبوس الذى يبدو عليه الاكتئاب ، هذا الرجل ذو المشية السريعة والأنف الطويل ، كان يحبهم

ويعطف عليهم بقدر ما يحب ابنه ويعطف عليه • وقد رأى ذات يوم أن يتحدث اليهم عن واشنجطن • وعندما بدا حديثه قال لهم : أصدقائى الصغار • ولكن ما ان سمع التلاميذ صوته الغريب حتى تفرقوا وانفضوا عنه • لقد سار هذا الرجل فى طريق وعر وكانت تطورات التاريخ وغير ذلك من المشاكل والاعتبارات تملؤه حسرة وأسى • وبعد أن التحق برزنيف بالجامعة كان ابوه يصحبه في قاعات المحاضرات ، ولكن صحته أخذت تسوء • وقد سببت له احداث عام ١٨٤٨ صدمة كبيرة ، ومات في شتاء سنة ١٨٥٣ قبل ان يتخرج ابنه ولكن بعد ان هناه مقدما وبارك رغبته فى العمل فى مجال العلوم • قال الأب لأندريا قبل وفاته بساعتين : انني اسلمك مشعلا ظللت احمله طالما واتتنى القدرة على ذلك • وعليك انت ايضا ان تحمل هذا المشعل حتى آخر لحظة فى حياتك •

حدث برزنيف يلينا كثيرا عن والده • ولم يعد يشعر بالخجل أو الارتباك فى وجودها • ثم عرجت المحادثة بينهما على الحديث عن الجامعة وقالت له يلينا : هل كان هناك اشخاص ذوو حيثية بين زملائك من الطلبة ؟

فتذكر برزنيف ما كان شوبين قد قاله له واجابها قائلا : كلا يا يلينا نيكولايفنا لم يكن بينهم اشخاص ذوو حيثية ولم يكن ذلك ممكنا • يقال ان الأمور كانت تختلف فى جامعة موسكو عما هى عليه الآن ، لقد تغيرت عما كانت عليه فغدت مدرسة لا جامعة (وهنا خفض من صوته

واضاف قائلا) : كما ان علاقتى بزملائى لم تكن طيبة ..

وتساءلت يلينا : أحقا لم تكن علاقتك طيبة بزملائك؟

فاستأنف برزنيف حديثه قائلا : أريد ان اشير الى حالة استثنائية فى هذا الصدد اننى اعرف طالبا ولو انه كان فى فرقة غير فرقتى - من الشبان المرموقين فسالته يلينا باهتمام واضح : وما اسمه ؟

- اسمه ديمترى نيكافوروفتش انزاروف وهو بلغارى .

- هو ليس روسيا اذن .

- كلا انه ليس روسيا .

- فلماذا يعيش فى روسيا اذن ؟

- لقد جاء الى هنا للدراسة . هل تعلمين حكمة التعليم كما يراها ؟ ان الفكرة المسيطرة عليه هى تحرير بلاده . كذلك فان حياته حياة غير عادية .

فقد كان والده تاجرا غنيا فى مدينة تيرنوفو . تيرنوفو مدينة صغيرة فى الوقت الحاضر ولكنها كانت فى الماضى عاصمة بلغاريا عندما كانت لا تزال مملكة مستقلة. وكانت له معاملات مع صوفيا كما كانت له علاقات مع روسيا . ولا تزال اخته وهى عمة انزاروف تعيش فى كييف وهى متزوجة من مدرس تاريخ .

وفى سنة ١٨٣٥ اى منذ ثمانية عشر عاما ارتكبت جريمة شنعاء فقد اختفت والدة انزاروف فجاة ثم عثروا عليها وقد ذبحت بعد ذلك باسبوع .

ارتعشت يلينا وتوقف برزنيف عن الكلام · ولكنها قالت له : استمر في حديثك ، استمر ·

ــ فقال : لقد أشيع ان القائد الذكي اختطفهـا ثم قتلها · وقد استطاع زوجها وهو والد انزاروف ان يعرف كل شيء عن هذا الموضوع وحاول ان ينتقم لنفسه ولكنه لم يفعل أكثر من انه اصاب القائد بجرح بخنجره ولكنه هو لقي حتفه ··

ــ لقي حتفه ؟ تعني انه قتل دون محاكمة ؟

ــ نعم · وكان انزاروف في الثامنة من عمره فآواه بعض الجيران ، وعلمت عمته بما حل باسرة اخيها وطلبت ان يرسل ابن اخيها اليها · فاخذ الى اوديسا ومنها الى كييف حيث عاش اثنتى عشرة سنة ، وهذا هو السبب فى انه يتحدث بالروسية بطلاقة ·

ــ وهل يتحدث الروسية ؟

ــ كما تتحدثيها انت واتحدثهـا أنا · وعنـــدما بلغ العشرين اى فى أوائل عام ١٩٤٨ صمم على العودة الى وطنه وذهب الى صوفيا وتيرنوفو واخذ يتجول فى جميع انحاء بلغاريا وامضى هناك سنتين وعاد يتعلم لغة بلاده · وقد اضطهدته الحكومة التركية ، واعتقد انه قد تعرض لمخاطر كثيرة خلال هاتين السنتين ·

وقد رايت ذات مرة أثر جرح كبير على رقبته ولكنه لا يحب أن يتحدث عنه · وهو بطبيعته قليل الكلام · وقد

حاولت ان أوجه اليه بعض الاسئلة ولكننى لم احصل منه على اجابة شافية . انه عنيد الى حد كبير . وقد عاد الى روسيا عام ١٨٥٠ لاستكمال دراسته وتوطدت علاقته مع الروس . ولكن عند التخرج ...

ـ فقاطعته يلينا متسائلة : ماذا عند التخرج ؟

ـ عند التخرج سيرى مايكون فمن الصعب التنبؤ الآن.وظلت يلينا تحدق فى برزنيف فترة طويلة . ثم قالت له : لقد قصصت على قصة غريبة حقا . وما شكل صديقك هذا ؟

هل قلت ان اسمه انزاروف ؟

ـ أعتقد أنه وسـيم . وعلى كل فانك ستحكمين بنفسك .

ـ وكيف ذلك ؟

ـ ساحضره الى هنا . انه سيأتى الى قريتنا بعد غد وسيشترك معى فى السكن .

ـ حقا ؟ ولكن هل يكترث بالحضور الى هنا ؟

ـ يكترث ؟ انه سعيد بقدومه .

ـ هل هو متكبر ؟

ـ متكبر ؟ كلا . ولكنه متكبر بمعنى آخر ، فهو لا يحاول ان يقترض نقودا من أحد ..

ـ وهل هو فقير ؟

ـ انه ليس غنيا • وقد استطاع اثنـــاء وجوده في بلغاريا ان يجمع بعض المال من الممتلكات التى تركها له والده • وعـلاوة على ذلك فان عمته تســـاعده ولكن هذه المساعدة لا تكاد تذكر •

ـ لابد انه على خلق كريم •

ـ نعم : انه رجل من حديد • وعلى كل ، فستوين انه رغم تحفظه بل ورغم تكتمه برىء براءة الطفولة ولكن براءته ليست من النوع الساذج كما انها ليست براءة من لا يجدون شيئا يستحق الاخفاء وعلى كل انتظرى حتى أحضره الى هنا •

ـ سالته يلينا قائلة : انه ليس خجـولا ، اليس كذلك ؟

ـ كلا فان من يخجلون هم شديدو الحساسية •

ـ وهل أنت شديد الحساسية ؟

فنظر اليها برزنيف بارتباك •

ـ واضـــــافت قائلة : لقد اثرت في نفسى حب الاستطلاع ولكن قل لى هل انتقم لنفسه من القائد التركى • فابتسم برزنيف وقال : هذا لا يحدث الا في القصص يا يلينا نيكولايفنا • وعلاوة على ذلك فقد يكون القائد التركى قد مات خلال السنوات الاثنتى عشرة السابقة •

ـ فقالت له : ولكن الم يحدثك صديقك عن هذا ؟

ـ كلا ..

ـ ولماذا ذهب الى صوفيا ؟

ـ لقد عاش أبوه هناك .

ـ فقالت يلينا وهى تفكر : عاش ابوه هناك .. ثم اردفت :

لكى يحرر بلاده ... انها الفاظ مخيفة ولكنها عظيمة .

وهنا دخلت فاسيليفنا وانقطعت المحادثة ..

كان برزنيف يحس احساسا غريبا وهو يسير فى الطريق الى بيته ذلك المساء . لم يندم لأنه عرض أن يقدم أنزاروف الى يلينا ووجد من الطبيعى أن تهزها قصته عن البلغارى الشاب . ولكنه احس بشعور غامض يجيش فى صدره وشعر بحزن غريب بيد أن هذا الحزن لم يمنعه عندما وصل الى مسكنه من ان ياخـــذ كتاب « تاريخ الهنستوفيين » . ويستأنف القراءة من حيث توقف فى اليوم السابق .

« ١١ »

وصل انزاروف ومعه متاعه الى بيت برزنيف بعد يومين كما سبق أن وعده . ولم يكن معه خادم ولكنه

استطاع دون مساعدة احد أن يرتب حجرته وما بها من اثاث • وقد امضى وقتا طويلا في وضع المكتب في مكانه ولكنه لم يستطع رغم ما بذل من جهد أن يضعه في المكان المحدد له بين النافذتين • وبعد ان وضع كل شيء في مكانه عرض على برزنيف ان يأخذ عشرة روبيـــلات من الايجار مقدما ثم أخذ في يده عصـــا وخرج لاستكشاف المنطقة المحيطة بمسكنه الجديد ، عاد بعـــد حوالى ثلاث ساعات فطلب اليه برزنيف ان يشاركه طعامه فقبل ولكنه اخبره انه سيحصل على غذائه مستقبلا من صـــاحبة البيت التى اتفق معها على ذلك • وعلق برزنيف على ذلك بقوله : ستتناول اذن وجبات رديئة فهي لا تجيد الطهى • ولكن لماذا لا تريد ان تتناول طعامك معى ؟ في استطاعتنا ان نتقاسم التكاليف •

فابتسم انزاروف بهدوء وقال : لا طاقة لى بتحمل تكاليف أصناف الطعام التى تتناولها ••

كانت ابتسامته من النوع الذى يحول دون الالحاح عليه ، لذا فان برزنيف لم يزد عما قاله شيئا • وبعد تناول الطعام اقترح برزنيف ان يذهبا لزيارة بيت ســـتاكوف ولكن انزاروف اعتذر بانه يعتزم أن يمضى فترة المساء كلها فى كتابة خطابات لمواطنيه ، ومن ثم رجاه أن يؤجل هذه الزيارة ، وكان برزنيف يعرف من قبل مدى صلابة رأى انزاروف ولكنه لم يكتشف ان انزاروف لا يمكن ان يغير رايه او ان يؤجل تنفيذ وعد وعده الا بعد ان عاش

معه تحت سقف واحد . وكروسي اصيل وجد برزنيف ان هذه الدقة المتناهية شيء معقول بل ومثير للضحك ولكنه اعتادها بمضى الوقت بل ووجـــدها ، في آخر الأمر ، مريحة .

استيقظ انزاروف في اليوم التالى لوصـــوله فى الرابعة صباحا وقام بجولة سريعة فى معظم أنحاء كونشوفو واستحم في النهــــر وشرب كوبا من اللبن المثلج ثم بدأ يعمل ، كان يدرس التاريخ الروسي ، والقانون والاقتصاد السياسي كما كان يترجم بعض الأغاني والمقالات البلغارية، ويقوم بجمع المعلومات عن مشكلة الشرق الأدنى . وكان قد بدأ في تاليف كتاب عن قواعد اللغـــــة الروســـــية للبلغاريين وكتاب عن قواعد اللغة البلغارية للروس .

وجاءه برزنيف فى زيارة قصيرة للتحدث معه عن فورباخ . واولاه انزاروف أذنا صـــاغية وكانت تعليقاته القليلة الدقيقة تدل على أنه كان يحاول ان يقرر ما اذا كان الامر يقتضى أن يدخل معه في مناقشـــــة حول فورباخ أم لا .

وتعرض برزنيف لموضوع مؤلفات انزاروف منه أن يريه بعضها فقرأ له انزاروف الترجمات التى أعدها لأغنيتين بلغاريتين ثم سأله رايه فيها فانباه برزنيف أن الترجمة فى رايه سليمه وان كان ينقصها التعبير . وتقبل انزاروف هذا النقد راضيا . ثم انتقل برزنيف من الحـــديث عن

لاغاني الى الحديث عن الموقف في بلغاريا • ولأول مرة حس برزنيف بالتغير الكبير الذى طرا على انزاروف لمجرد كر بلاده فلم تتغير ملامحه ولم يرتفع صوته فحسب بل ن كيانه كله سرت فيه هزة قوية ، وتحركت شفتاه فى صرار ، ولمعت عيناه ببريق لا ينطفىء • ومع أن انزاروف م يكن يرحب بالحديث عن رحلته الى بلغاريا الا أنه كان لى استعداد للحديث عن بلاده مع اى امرىء ، كائنا من ان ، فتحدث فى تؤدة عن الأتراك وما لجئــوا اليه من ضطهاد وما حل بمواطنيه من مصائب وويلات وعن آمالهم مطامحهم • وكانت كل كلمة من كلماته تعبر تعبيرا ت.. ا ما تحمله من عاطفة طال كبتها •

ـ وقال برزنيف لنفسه : ربما دفع ذلك القــائد لتركى ثمن قتل والدى انزاروف ••

وقبل أن ينتهى انزاروف من حديثه فتح الباب وظهر وبين على عتبته •

دخل شوبين وقد بدت عليه الثقة وروح الدعابة • فهم برزنيف الذى كان يعرفه حق المعرفة ان لديه مايريد ؛ بقوله •

وبدأ شوبين الحديث وقد لاحت على وجهه نظرة تنـ ن الصراحة والوضوح فقال :

« اسمحا لى ان اقدم نفسى دون تكلف • اســـ وبين وانا صديق لهذا الشــاب واشار الى برزنيف •

واعتقد أنك أنت المستر انزاروف اليس كذلك ؟

ـ نعم هذا هو اسمى ٠

ـ اعطنى يدك اذن ولنتعارف ٠ لست أدرى ما اذا كان برزنيف قد حدثك عني ولكنه قد حدثني كثيرا عنك٠ لقد تركت المدينة اذن وانتقلت الى هنا ؟ عظيم ٠ ارجو الا تؤول نظرتى الطويلة اليك تاويلا خاطئا ، فانني فنان بحكم مهنتي وبودى أن تسمح لى بعمل تمثال لراسك ٠

ـ قال له انزاروف : راسى تحت تصرفك ٠

ـ فقال شوبين وهو يجلس على مقعد قصير وشبك يديه على ركبتيه : ما الذى سـنفعله اليوم يا اندريا بتروفتش ؟ هل أعددت يا صاحب السعادة برنامجا لهذا اليوم ؟ ان الطقس جميل مشبع برائحة الفاكهة ولابد لنا ان نستمتع بوقتنا وان نطلع نزيل كونتسوفو الجديد على معالمها العديدة ٠

ـ (فقال برزنيف في نفسه : انه يشاغب)

لماذا لا تتحدث يا صديقى هوراشيو؟ تحدث واسمعنا صوتك ٠

ـ فرد عليـه برزنيف قائلا : كيف بى ان اعرف ما يريده انزاروف ٠٠ اعتقد ان لديه أعمالا ٠

ـ فاستدار شوبين في مقعده وسأل انزاروف : هل لديك عمل ؟

ـ فاجابه انزاروف : كلا · لا عمل عندى اليـــوم واستطيع أن اقوم بجولة ·

ـ فقال شوبين : عظيم · اذهب يا صديقى أندريا بتروفتش وضع قبعة على راسك الممتلىء بالحكمة ولننبع انوفنا ، ان حاسة الشم عندنا قوية وسوف تذهب بنـــا بعيدا · اننى أعرف مطعما صغيرا ولكنه بديع نستطيع ان نتناول فيه وجبة بديعة وسنستمتع فيه بوقتنا تماما · هيا بنا ·

وما ان انقضى نصف الساعة حتى كان الثـــلاثة يسيرون بمحاذاة نهر موسكفا · وكان انزاروف يرتدى غطاء راس غريب الشكل يغطى اذنيه وتثير ضـــحكات شوبين · وكان انزاروف يسير بخطى ونيدة وهو يتحدث وينظر ويبتسم بكل هدوء · كان يحاول ، بعد ان استقر الراى على اللهو ، ان يستمتع بوقته تماما · وهمس شوبين فى اذن برزنيف قائلا : هكذا يمضى الشبان المهذبون أيام الأحد · وكان شوبين يمرح ما وسعه المرح وكان يجرى ويقف متخذا أوضاع تماثيل الشخصيات المشهورة كما كان يتقلب على الأرض · لم يكن هذا منه اعترافا على هدوء انزاروف ولكن هذا الهـــدوء جعله هو يتصرف كمهرج السيرك · وسأله برزنيف: لماذا هذا التهريج ايها الفرنسى؟ فاجاب شوبين : نعم فرنسى نصف فرنسى وانصحك ان تظل متارجحا بين الهزل والجد وهى نصيحة كان يوصينى بها دائما خادم بأحد المطاعم ·

وابتعد الثلاثة عن النهر وساروا في منخفض عميق بين حقلين من حقول القمح الذهبية كان أحدها يلقي عليهم ظلالا زرقاء . وكانت الشمس تلقي أشعتها على أعواد القمح والهواء يحمل اصداء تغريد الطيور وصفير الحشرات الصغيرة . كانت الريح الدافئة تحرك الحشائش التي كانت تنتشر على هيئة بساط اخضر حولهم واعواد الزهور . وبعد ان تجولوا كثيرا تسامروا وتوقفوا - بل ان شوبين حاول ان يداعب احد الفلاحين ويقفز على كتفيه مما أثار ضحك الفلاح - وصلوا أخيرا الى المطعم الصغير واستقبلهم الخادم وقدم لهم طعاما رديئا مع بعض النبيذ البلقاني ، ولكن هذا لم يمنعهم من الاستمتاع بوقتهم كما توقع شوبين الذى كان اكثرهم ضجيجا واقلهم مرحا . وشرب نخب فنيبيلين العظيم ونخب الملك كروم ملك بلغاريا الذى كان يحكم قريبا من عهد آدم .

- ولكن انزاروف صححه قائلا : في القرن التاسع

- فصاح شوبين : في القرن التاسع آه .. يا للفرصة ..

لاحظ برزنيف ان شوبين رغم كل تهريجه ودعابته وفكاهاته كان يحاول أن يسبر اغوار انزاروف في حين ظل انزاروف هادئا كعادته .

واخيرا عادوا الى البيت وقد عقدوا العزم على انهاء اليوم بزيارة آل ستاكوف في المساء . واسرع شوبين لاخطارهم بالزيارة .

(١٢)

صاح شـــوبين وهو يدخل الى حجرة الجلوس فى بيت ستاكوف حيث وجد يليفا وزويا · سيصل خلال لحظـات البطل انزاروف ·

ـ فقالت زويا بالالمانية : حقا ؟ كانت تتحدث اذا فوجئت بلغتها القومية واعتدلت يلينا فى جلستها · ونظر شوبين اليها نظرة ذات مغزى · واحست بالحرج ولكنها لم تقل شيئا ·

ـ وتحدث شوبين مرة أخرى قائلا : هل سمعت ؟ انزاروف قادم ·

ـ فقالت : سمعت · كما سمعت النعت الذى نعته به · انك تثير دهشتى حقا · ان السيد انزاروف لم يات الى هنا من قبل ولكنك مع ذلك لا ترى بأسا فى القيـــام بدور المهرج ·

ـ فطاطا شوبين راسه وقال : انت على حق يا يلينا نيكولايفنا · انت دائما على حق · ثم اردف وهو يتلعثم : ولكننى لم أكن اقصد اساءة صدقينى · لقد أمضينا اليوم كله نتجول معا واؤكد لك انه شخص ممتاز ·

ـ فقالت يلينا وهى تقوم من مكانها : انا لم اسالك عن ذلك ·

ـ فسألته زويا : هل السيد انزاروف صغير السن؟

ـ فاجابها شوبين على الفور : عمره مائة واربعــــة واربعون عاما ٠

ـ واعلن الخادم وصول الصديقين ، فدخلا ٠ وقام برزنيف بتقديم انزاروف ٠ وطلبت اليه يلينا ان يجلس ثم اتخذت هي مجلسا بينما صعدت زويا الى الدور العلوى لاخطار انا فاسيليفنا ٠ وبدءوا يتحـــادثون ويتبادلون المجاملات كما جرت العادة بين من يتعارفون لأول مرة ٠

وجلس شوبين فى احد الأركان يرقب ولو انه لم يكن هناك ما يستحق ذلك ٠ كان كل ما لاحظه فى يلينا أثرا لضيق مكبوت منه ٠ ثم نظر الى برزنيف وانزاروف وقارن بين وجهيهما من وجهة نظر المثال وقال فى نفسه : ليس لأى منهما وجه وسيم ٠ ان للبلغارى وجها تقليديا من السهل عمل تمثال له لا سيما وان الاضاءة عليـــه جيدة الآن ٠ اما وجه الروسى فهو انسب للرسم اذ ان له شخصية وان كانت تعوزه الخطوط ٠ ولكننى استطيع ان اقول انهما جديران بالحب ٠ انها ستقع بلا ريب فى حب برزنيف ولو انها لم تحبه بعد ٠ ودخلت انا فاســــيليفنا الى حجرة الجلوس واتخذ الحديث اتجاها آخر وتشعبت موضوعاته، ولكن كانت تتخلله فترات سكون قصيرة ٠

والتفتت انا فاسيليفنـــــا الى زويا فى احدى هذه الفترات ، وفهم شوبين مغزى هذه اللفتة ٠ فقد قامت زويا

الى البيانو واخذت تعزف وتغنى ما تعرفه من اغنيـــات قصيرة . وظهر بوفار ايفانوفتش أمام عتبـة البـاب وهو يلوى أصابعه ولكنه تراجع . وقدم الشاى وبعدها خرجت الجماعة كلها الى الحديقة .

وهبط الليل وغادر الزوار المكان .

لم يكن التاثير الذى تركه انزاروف على يلينا من القوة بالقدر الذى كانت تتوقعه او بمعنى اصح كان مختلفـا عما توقعته . وقد اعجبتها اخلاقه البسيطة القويمة ، كما انها اعجبت بوجهه . واياما كان الأمر فقد كان تكوين انزاروف كله ، وهدوؤه وحزمه وبســاطته ، يختلف عن الصورة التى رسمتها له استنادا الى وصف برزنيف . لقد كانت تنتظر دون سبب مفهوم ان ترى شابا جذابا . وقالت لنفسها : انه لم يتحدث كثيرا اليوم ولكن هــذا ذنبى ، فانى لم أوجه اليه سؤالا . سانتظر للمرة القادمة ان عينيه معبرتان . عينا شـــخص مستقيم . وأحست وكانها كانت تحييه فصافحته باليد لا بمجرد انحناءة ، وداخلها شيء من الارتباك فقد كانت لديها فكرة مختلفة عن الرجال من امثال انزاروف ـ عن « الأبطال » وقد ذكرتها هذه الكلمة بشوبين فاحمر وجههـــا غضبا وهى ترقد فى فراشها .

وفى طريق العودة ســـــال برزنيف انزاروف .

ما رأيك فى معارفك الجدد ؟

ـ فرد انزاروف قائلا : اعتقد انهم قوم طيبون لا سيما الابنة فهي فتاة لطيفة . عاطفية ولكن عاطفتها صادقة .

ـ فقال برزنيف : لابد لنا ان نزورهم من وقت لآخر .

ـ واجابه انزاروف : نعم . ولم يتكلم ثانية حتى بلغا البيت هناك اغلق على نفسه الحجرة ولكن شمعة ظلت موقدة في الحجرة الى ما بعد منتصف الليل .

ولم يكن برزنيف قد قرأ صفحة واحدة من رومير حين القيت على نافذته حفنة من الرمل . فانزعج وفتح النافذة واذا به يرى شوبين ، وقد امتقع لونه .

ـ قال برزنيف ، يا لك من مشاغب . انت كالفراشة تماما .

ـ وقاطعه شوبين قائلا : صه .. لقد اتيت لك خفية ، اريد ان اسر اليك بشيء .

ـ حسنا ، اصعد .

ـ فاجابه شوبين وقد استند الى قاعدة النافذة . لا حاجة لذلك ـ فالحديث هكذا اكثر اثارة . دعني اولا اهنئك فان اسهمك في ارتفاع . اما رجلك ، رجل الأعاجيب ، فقد فشل وعندي الادلة ولكن ابين لك مدى حيادي فاسمح لى ان ادلى اليك برايي المفصل في السيد انزاروف . انه شخص غير موهوب لا يميل للشعر وله

قدرة كبيرة على العمل وذاكرته قوية ، وله عقل متفتح وان لم يكن جبارا • وهو جاف وعنيف بل وطلق اللسان عندما تذكر بلغاريا ـ تلك البلاد الموحشة • ما رأيك : هل تقول اني لست منصفا ؟ وثمة ملاحظة أخيرة • انت لا يمكن ان تأتلف معه ولم يحدث ان ائتلف مع أحـــد كائنا من كان • انه يبغضني لأنني فنان ـ الأمر الذي أفخر به • انه جاف كعود القش بيد انه يستطيع ان يسحقنا جميعا كما يسحق الدقيق • انه شديد التعلق بوطنه وهو في هذا يختلف عن بعض الأشـــخاص الذين يحاولون استرضاء الشعب ولكن مهمته ابسط واكثـر يسرا •

ان كل ماعلى القوم ان يفعلوه هو ان يطردوا الاتراك ـ وليس هذا بالعمل الجليل • ولكن كل هذه الصفات لا تستهوى النســاء لحسن الحظ • انه يفتقد الجاذبيــــة والسحر ـ على عكسنا انت وانا •

ـ فتمتم برزنيف قائلا : ومالى انا وكل هذا ؟كذلك فانك مخطىء في بعض ما ذهبت اليه لأنه لا يبغضك على الاطلاق كما انه على علاقة طيبة بابناء وطنه وانا اعلم هذا •

ـ هذا موضوع آخر • انه بطل بالنسبة لهم اما انا فلا بد ان أعترف ان فكرتي عن البطل تختلف عن هذا • فالبطل عندى يجب الا يعرف كيف يتكلم وانما يكفى ان يخور كالثور • لا بد ان يضرب الجدار بقرنيه ليهدمه ،

كرا انه لا يجب ان يعرف لماذا يستعمل قرنيه ، بل عليه ان يستعملهما وحسب ٠

وعلى كل ٠ فربما كان الذين يحتاج اليهم وقتنا هذا ابطالا من نوع آخر ٠

ـ وسأله برزنيف قائلا : ولماذا تشغل نفسك يا يا نزاروف ؟

ـ انا لا اتصور ان تكون قد اتيت الى هنا عدوا لمجرد ان تصفه لى ٠

ـ فرد قائلا : اتيت لاننى شعرت بكآبة فى البيت ٠

ـ حقا ؟ ارجو الا تبدأ فى انبكاء مرة اخرى ٠

ـ لك ان تسخر منى اذا أردت ٠ لقد أتيت الى هنا لاننى بائس ، ولأننى اعانى شعورا بالغيرة والغضب ٠

ـ تشعر بالغيرة ممن ؟

ـ منك ومنه ومن كل رجل آخر ٠ اننى اتعذب عندما افكر فى اننى لو كنت قد فهمتها من قبل ولو كنت عرفت كيف اتصرف معها ـ ولكن ما الفائدة الآن ؟ سينتهى بى الأمر الى ان اضحك وأمرح واقوم بدور المهرج كما تقول هى ٠ ثم اخرج وانا أود لو اننى استطعت أن أشنق نفسى ٠

ـ شنق نفسك هو الشىء الوحيد الذى لا تستطيع أن تقدم عليه ٠

ـ لن اقدم عليه فى ليلة ، كهذه بالطبع ٠ ولكن

انتظر حتى يأتي الخريف · ان من النـــاس من يموت في ليلة كهذه أيضا ولـكنهم يموتون من السعادة ·· اه ·· يا لها من كلمـــة · ان كل ظل يمتد عبر الطريق من احدى الاشجار يبدو وكانه يهمس قـــائلا : « أنا أعرف مكان السعادة · هل تريدني أن أخبرك ؟ » ·

كنت أريد أن أطلب اليك ان تسير معي بعض الوقت ولكنني اراك مشغولا بالقراءة · ستأوي الى فراشك ولعلك ترى أحلاما تحبها · أما قلبي فانه ينزف دما· عندما ترون شخصا يضحك فانكم تعتقدون انه قرير العين بالحيـــاة · ان في وسعكم ان تثبتوا انه يناقض نفسه وأنه لا يعاني شيئا · على اية حال ، سيروا على طريقتكم ·

وابتعد شوبين عن النافذة · وهم برزنيف بأن يصيح وراءه هاتفا : « انوشكا » ولكنه أمسك عن ذلك فقد كان وجه شوبين ينطق بالالم · وقد خيل لبرزنيف بعد برهة انه سمع شخصا يبكي فقام من مكانه وفتح النافذة ولكن الليل كان شـــاحبا في الخارج عدا أن أحد الســـابلة راح يترنم باحدى الاغنيات على البعد ·

(١٣)

لم يتردد انزاروف على دار ستاكوف خلال الخمســة عشر يوما التي اعقبت مجيئه الى كونتسوفو اكثر من اربع

او خمس مرات • أما برزنيف فكان يزورهم يوما بعد يوم • وكانت يلينا تشعر بالسرور لمجيئه ، وكانت محادثاتهم تتسم دائما بالحيويه والاهتمام ورغم ذلك فانه كثيرا ما كان يعود لبيته حزينا كاسف البال • اما شوبين فلم يكن يظهر الا نادرا •• كان يكرس كل وقته لفنه فاما ان يحبس نفسه في حجرته التي كان اذا بارحها ظهر الصلصال عالقا بملابسه أو يمضي وقته في مرسمه في موسكو حيث كان يزوره بعض موديلات الرسم او النحت وبعض المثالين الايطاليين والاصدقاء والاساتذة • ولم تكن الفرصة قد واتت يلينا لتتحدث الى انزاروف على النحو الذي تريده • كان يرد على ذهنها في غيابه كثير من الاسئلة التي تريد أن تسالها له • ولكنه عندما كان ياتي كانت تستشعر بالخجل مما أعدته • كان هدوء انزاروف يجعلها تشعر بالحرج حتى انهــا اعتقدت ان من غير اللائق ان تواسيه بالكلام ، لذا فقد قررت أن تتحين الوقت المناسب ورغم كل ذلك فقد كانت تشعر بالميل اليه اكثر واكثر مهما كان من بساطة حديثهما ولكن الفرصة لم تتح لها للانفراد به •

وكانت كثيرا ماتتحدث عنه الى برزنيف الذي ادرك انه قد اثار اهتمامها واحس بالسرور لنجاح صديقه محيطا ما أكده شوبين • وقد أدلى اليها في حماس واسهاب بكل مايعرفه عن انزاروف • ولم يحدث الا نادرا ــ وقد راى وجنتيها وقد علتهما حمرة خفيفة وعينيها وقد التمعت

وازدادت اتساعا ـ ان اعتصر قلبه الحزن الكئيب الذى كان قد أحس به مرة من قبل ٠

زار برزنيف آل ستاكوف ، ذات يوم ، فى العاشره صباحا وكان توقيتا غير عادى للزيارة وخرجت يلينا لمقابلته في حجرة الجلوس فقال لها وهو يفتعل ابتسامه : تخيل أن صديقنا انزاروف قد اختفى ٠

فاضطربت يلينا وقالت : اختفى ؟

ـ نعم ٠ خرج أول امس ولم يعد حتى الآن ٠

ـ هل اخبرك عن وجهته ؟

ـ كلا ٠

وارتمت يلينا على أحد المقاعد٠ ثم قالت وهى تحاول ان تبدى عدم الاهتمام وتتعجب من حكمة قيامها بهذه المحاولة : لعله ذهب الى موسكو ٠

فاجابها برزنيف : لا اظن فانه لم يخرج بمفرده ٠٠

ـ من كان معه ؟

ـ زاره أول امس قبيل الغداء ٠

رجلان اعتقد أنهما من مواطنيه ٠

ـ من البلغاريين ؟ ومالذى يجعلك تعتقد ذلك ؟

ـ سمعتهم يتحدثون لغة سلافية ولو اننى لااعرفها٠ وهكذا ترين أن ما يكتنف انزاروف من غموض ليس كافيا ٠ ولكن هل هناك ما هو اكثر غموضا من هذه الزيارة ؟

لقد دخلا الغرفة واخذا يصيحان ويتجادلان ، وكان هو الآخر يصيح :

ـ أحقا كان يصيح ..؟

ـ نعم . لقد صاح فيهما . ويبدو ان مشادة قامت بينهما .. آه لو رأيت هذين الزائرين ! كان لكل منهما وجه اسمر وانف مقوس كلاهما جاوز الاربعين كانت ملابسهما رثة وقد غطاها التراب والعرق ، وكان مظهرهما غريبا لا يعرف منه ما اذا كانا من اصحاب الحرف ام من السادة ولا يعلم كنههما الا الله .

ـ وهل خرج معهما ؟

ـ نعم . قدم لهما بعض الطعام ثم خرجوا معا . وقد ذكرت لى صاحبة البيت ان هذين الرجلين قد أتيا على طبقين كبيرين من العصيدة وقالت انهما كانا يلتهمان الطعام بشراهة ذئاب جائعة .

ـ فابتسمت يلينا ابتسامة خفيفة ثم قالت :

يخيل الى أن كل هذا سوف يتمخض فى النهاية عن شيء تافه .

ـ ارجو ذلك . ولكنك ما كان يجب أن تستعملى هذه الكلمة . فليس فى انزاروف شيء تافه وان كان شوبين يصر .

ـ فقاطعته يلينا قائلة : شوبين ـ طبعا . ولكنك نفر ولا شك أن الرجلين وهما يلتهمان الطعام .

ـ فعلق برزنيف على كلامها بابتسامة قائلا :
كان تميستوكليس هو الآخر يأكل بشراهة عشية معركة سالاميس .
ـ فقالت : هذا صحيح ولكن كانت ثمة معركة حينذاك .. على أى حال ارجو أن تبلغنى بعودته .
ثم حاولت تغيير الموضوع ولو أن الحديث لم يسلس قياده لنا .
ودخلت زويا الحجرة على اطراف أصابعها وكان هذا دليلا على ان أنا فاسيليفنا كانت لا تزال نائمة .
وقام برزنيف وغادر المكان .
وفى المساء وصلتها رسالة من برزنيف جاء فيها ما يلى : عاد وقد لفحته الشمس وغطى التراب كل جسده حتى حاجبيه ولكنى لا اعرف أين كان ولا لماذا خرج . هل فى مقدورك أن تعرفى ذلك ؟
ـ فهمست يلينا لنفسها قائلة : هل فى مقدورك أن تعرفى ذلك ! هل يبادلنى الحديث أبدا ؟

(١٤)

بعد ظهر اليوم التالى كانت يلينا تقف فى الحديقة امام بيت صغير للكلاب كانت تحتفظ فيه بجروين . كان البستانى قد وجدهما بالقرب من السور فاحضرهما لها ،

اذ كان قد سمع من احدى الغسالات أنها تعطف على جميع الحيوانات . ولم يخطىء ظنه فقد أعطته يلينا مبلغا لابأس به نظير الجروين .

ومدت بصرها داخل بيت الكلاب واطمأنت الى ان الجروين كانا بخير وان القش الذى وضع فى أرضية البيت قد استبدل به قش نظيف . ثم استدارت واذا بها ترى انزاروف قادما بمفرده فى الطريق . وكادت تصرخ من المفاجأة .

ـ قال لها وهو يقترب منها وقد رفع قبعته محييا :

ـ طاب مساؤك .

ولاحظت ان وجهه قد لفحته الشمس فعلا . ومضى يقول : لقد أردت ان احضر مع اندريا بتروفتش ولكنه لم يكن قد استعد بعد . فجئت بمفردى . ليس فى بيتكم أحد فالجميع اما نائم او يتمشى . وهاأنذا قد حضرت .

وردت يلينا قائلة : انك تتحدث وكأنك تعتذر .. ليس هناك ما يدعو للاعتذار . نحن جميعا نسر لرؤيتك . هلم بنا نجلس على هذا المقعد فى الظل .

وجلست وجلس انزاروف الى جوارها ..

قالت : علمت انك تغيبت عن البيت خلال الايام القليلة الماضية .

ـ فقال : هذا صحيح .. هل أخبرك اندريا بتروفتش بذلك ؟

ونظر اليها وابتسم واخذ يعبث بقبعته • وكان وهو يبتسم يرمش سريعا بعينيه وقد مد شفتيه فبدا شخصا طيبا •

ثم اضاف وهو لا يزال يبتسم : لا بد ان اندريا بتروفتش قد أخبرك انني خرجت مع شخصين رئي الهيئة•

وشعرت يلينا بشيء من الحرج ، ولكنها تنبهت بعد لحظة الى أنه من الواجب قول الصدق لانزاروف • فأجابت: نعم •

ـ فسألها فجاة : وماذا كان رأيك في ؟

فنظرت يلينا اليه واجابته قائلة :

ـ أنا اعتقد •• اعتقد أنك تعرف دائما ما تفعل وانك لا تستطيع ان ترتكب خطأ ••

ـ شكرا لك على هذه الثقة ••

ثم قال وهو يدنو منها وكانه يسر اليها امرا :

ـ نحن نكون هنا أسرة صغيرة وبعضنا لم يتلق الا قدرا ضئيلا من التعليم ، ولكننا جميعا نكرس حياتنا للقضية المشتركة• ومع ذلك ، فاننا لسوء الحظ لانستطيع ان نعيش دون ان نختلف ونظرا لانهم جميعا يعرفونني ويثقون في ، فقد استدعيت لتسوية أحد الخلافات وكان لا بد لي ان اذهب ••

ـ وهل كان المكان بعيدا عن هنا ؟

ـ لقد ذهبت الى تروبتسكي بوسار وهي تبعد حوالي

ستين كيلو مترا من هنا ويعيش فيها بعض مواطني في الدير . وعلى كل فلم تكن العملية مضيعة للوقت فقد تمكنت من تسوية الموضوع ..

ـ وهل كانت المهمة شاقة ؟

ـ نعم فقد كان احدهما عنيدا وكان يرفض التنازل عن بعض النقود .

ـ ماذا هل تعني انهما تشاجرا بسبب النقود ؟

ـ نعم ، ولم يكن المبلغ كبيرا . هل كنت تعتقدين ان الامر يتعلق بشيء آخر ؟

ـ هل قطعت كل هذه المسافة من أجل هذا الموضوع التافه ؟ وهل هو يستحق ان تنفق فيه ثلاثة أيام ؟

ـ الأمر لا يصبح تافها يا يلينا نيكولايفنا عندما يتعلق بأبناء وطني . ولو انني رفضت لكنت مخطئا . اني أراك لا تضنين بالمساعدة حتى على الكلاب وانا اقدر فيك هذا . ولا ضير على من اضاعه بعض الوقت . فاني استطيع ان أعوضه . ان وقتنا ليس ملكا لنا .

ـ ملك من اذن ؟

ـ ملك لمن هم في حاجة اليه . اني اقول لك هذا لانني اقدر رايك . انني استطيع أن اتصور مدى الدهشة التي سببها لك اندريا بتروفتش .

فقالت له يلينا بصوت منخفض :

ـ هل تقدر رايي ؟ ولكن لماذا ؟

فابتسم انزاروف مرة أخرى وقال: لأنكفتاة لطيفة ولست ارستقراطية هـذا هو السبب واعقبت ذلك فترة سكون قصيرة ٠

ـ ثم قالت يلينا : هل تعلم يادمترى نيكا نوروفتش ان هذه اول مرة تحدثني فيها بهذه الصراحة ؟

ـ حقا ؟ لقد كنت اظن انى كنت اكاشفك دائما بما يجول بخاطرى ٠

ـ كلا ٠ هذه أول مرة وانا بها في غاية السرور ٠٠ انا بدورى اريد ان اكون صريحـة معك ٠ فهل تسـمح لى بذلك ؟

فضحك انزاروف وقال : لك هذا ٠٠

ـ اذن فلتحذر فاني كثيرة الاسئلة ٠

ـ لا باس ٠ تحدثى ٠

ـ لقـد حدثنى اندريا بتروفتش كثيرا عن حيـاتك وشبابك حديثا سريعا ٠ انى اعرف حدثا معينـا ٠ واعلم انك عدت بعده الى وطنك ٠

ـ استحلفك بالله الا ترد على سـؤالى اذا رايت انه محرج ٠ ولكن هناك مايحز فى نفسى ٠ قل لى : هل التقيت بذلك الرجل ؟ قالت ذلك مبهورة الأنفاس ٠٠

كانت تشعر بالخجـل والفزع من جراتهـا ٠ وكان انزاروف يحملق فيها وقد ضاقت عيناه وهو يعبث بذقنه٠

واجابها اخيرا وكان صوته اكثر خفوتا ٠ الأمر الذى

أخاف يلينا ـ قال : أعرف الرجل الذى تعنين · لم اقابله واحمد الله على ذلك ·· والواقع أنى لم أكن أبحث عنه · ولا يعني هذا اننى كنت أعتقد انه ليس من حقى أن أقتله ـ كلا ·· ما كنت لأحجم عن قتله ، وانا مستريح الضمير ـ ولكن يجب الا يكون هناك مجال للانتقام الشخصى عندما تكون المسألة متعلقة بانتقام شعب ·

ـ كلا ، ليس هـذا هـو التعبير الدقيق ، ينبغى أن اقول : عندما تكون المســألة متعلقة بتحرير شــعب ، فان احدهما يحول دون الآخر · ولـكن ســيأتى اليوم لهــذا أيضا · لهذا أيضا ··

كررها ثم هز راسه ، فنظرت اليه يلينا نظرة جانبية ·· ثم سالته فى تحفظ :

ـ هل تحب وطنك كثيرا ؟

فاجابها قائلا : سترين الدليل على ذلك ·· لا يمكن أن يقال ان الانسان يحب وطنه الا اذا مات فى سبيله ·

فقالت يلينــا : معنى ذلك انك اذا منعت من العودة الى بلغاريا ستجد الحياة صعبة فى روسيا فاحنى انزاروف راسه ثم قال : لا أعتقد اننى أستطيع أن اتحمل هذا ·· فسألته يلينا : هل من الصعب تعلم اللغة البلغارية ؟

ـ كلا · ومن العــار ألا يتعــلم كل روسى اللغـــة البلغــارية · يجــب على كل روسى أن يعرف اللهجـــات الســلافية · هــل تريدين ان احضر لك بعض الــكتب

البلغارية ؟ سترين بنفسك كم هي سهلة هذه اللغة • كذلك فان أغانينا جميلة وهي لا تقل جمالا عن اغاني الصرب • اسمحي لي ان أترجم لك احدى هذه الأغنيات • انها عن ـ هل تعرفين تاريخنا ؟

ـ كلا • لا أعرف شيئا عنه •

ـ ساحضر لك كتابا عن تاريخنا يعطيك على الأقل فكرة عن وقائعه الهامة• والآن استمعي للاغنية• ولو أنني أفضل ان أقدم لك ترجمة مكتوبه •

ـ انني واثق من أنك سوف تحبيننا لأنك تحبين كل مظلوم • بلادي مليئة بالخيرات ورغم ذلك فانها تداس بالاقدام ويسام شعبها العذاب • ثم قال وهو يحرك يديه حركة لا ارادية وقد علت وجهه سحابة من الحزن : نحن محرومون من كل شيء وقد نهب منا كل شيء ـ كنائسنا وحقوقنا وارضنا • الاتراك الملاعين يعاملوننا كالسوائم • انهم يذبحوننا •

قالت يلينا متعجبة : ماذا بل يا دمترى نيكانوروفتش

فتوقف عن الكلام وقال : أرجو المغفرة فانني لا استطيع الحديث عنها بهدوء • ولكنك كنت تسألينني منذ لحظة • ما اذا كنت احب بلادي • اذا لم يحب الانسان بلاده فهل هناك شيء آخر يستحق أن يحب • ما هو الشيء الوحيد الذي لايقبل التغير؟ ما هو الشيء الذي يرتفع فوق كل

الشكوك ؟ ما هو الشيء الوحيد الذى يؤمن به الانسان بعد ايمانه بربه ؟ عندما تشعرين ان بلادك في حاجة اليك لا تنسى أن أبسط فلاح وافقر فقير فى بلغاريا وانا نريد جميعا نفس الشيء . ليس لنا سوى .. هدف واحد . ولك أن تتصورى مدى الثقة والقوة التى نستمدها من ذلك .

وصمت انزاروف فترة قصيرة ثم عاد للحديث عن بلغاريا . وكانت يلينا تنصت له بانتباه وحزن وقد تملكتها الدهشة . وبعد أن انتهى من حديثه قالت له مرة اخرى :

ـ ليس هناك اذن ما يدفعك الى البقاء فى روسيا .

ظلت يلينا بعد أن تركها انزاروف تتبعه بعينيها طويلا . لقد أصبح شخصا مختلفا بالنسبة لها فى ذلك اليوم . ان الرجل الذى كانت تتحدث اليه منذ لحظة لم يكن هو نفس الرجل الذى قابلته منذ ساعتين .

وراح يتردد عليها كثيرا منذ ذلك اليوم بينما لم يكن برزنيف يزورها الا لماما . لقد تسلل شيء غريب بين الصديقين شيء كانا يخشيان التحدث عنه . كل منهم يحسه بوضوح وجلاء دون ان يستطيع تعريفه .

ومر شهر على هذه الحال ..

(١٥)

كانت انا فاسيليفنا كما يعرف القارىء تحب البقاء في البيت الا انه كانت تتملكها من ان لآخر رغبة جامحة في القيام بشيء غير عادى تتنظيم حفل تخرج بهجته عن المالوف ، وكانت كلما زادت صعوبة تنظيم الحفل وكلما زادت الاستعدادات والترتيبات اللازمة له وكلما زاد انهماكها في ذلك تزداد سرورا ٠ واذا تملكتها هذه الرغبة في فصل الشتاء ، فقد كانت تحجز مقصورتين او ثلاثا وتذهب الى المسرح أو الى احدى الحفلات التنكرية مع كل صديقاتها ومعارفها ٠ اما في الصيف فقد كانت تقوم بتنظيم رحلة الى منطقة ريفية بعيدة ثم تشكو ، في اليوم التالى ، من الصداع والألم وتبقى في البيت ٠ وما يمضى شهران الا وتعاودها الرغبة في القيام بشيء « غير عادى » وهذا ما حدث هذه المرة ايضا ٠ فقد تحدث بعضهم في حضورها عن جمال تسارتسينو ، فاعلنت في الحال أنها ستذهب الى تسارتسينو بعد يومين ٠ وبدأ البيت يموج بنشاط غير عادى ٠ ارسل رسول على وجه السرعة الى موسكو لاستدعاء ستاكوف وصحبه خادم لشراء النبيذ والفطائر وغير ذلك من المأكولات ٠ وطلب الى شوبين أن يستاجر عربة خاصة لان العربة العامة لا تكفى ، وان يجهز عددا اكبر من الخيل ٠ وكان على الخادم ان يذهب مرتين الى كل من برزنيف وانزاروف يحمل دعوات مكتوبة مرة

باللغة الروسية ومرة اخرى بالفرنسية بخط زويا• وكانت انا فاسيليفنا تختـــر بنفسها ملابس الســفر للفتيات المشتركات في الرحلة • وعندما انتهى الاستعداد للرحيل اذا ستانوف يصل من موسكو وهو منحرف المزاج ـ كان لا يزال على خلاف مع أوجاستينا لريستيبنوفا ـ ولما علم بالموضوع اعلن بلهجه قاطعة انه لن يشترك فى الرحلة • كما اعلن انه من العبث الذهب من كونتسوفو الى موسكو ومن موسكو الى تسارتسينو ثم من تسارتسينو الى موسكو ومن موسكو الى كونتسوفو فى طريق العودة • ثم أردف: واخيرا اريد أن يثبت لى أى امرىء أن هناك مكانا على سطح الارض فيه متعة اكثر من أى مكان آخر • وعندئذ افكر فى الذهاب •

لم يكن من اليســير اثبــات ذلك •• وكانت انا فاسيليفنا على وشك التخلى عن القيام بالرحلة لافتقرها الى رفيق مناسب ولكنها فكرت فى يوفار ايفانوفتش فأرسلت تستدعيه وراحت تحدث نفسها: ان الغريق يتمسك بقشة• واوتظ يوفار من النوم • ونزل لمقابلتها واستمع لاقتراحها فى صمت واخذ يثنى اصابعه وادهش الجميع بموافقته : فقبلته انا فاســيليفنا على وجنته وشــكرته • فابتسم ستاكوف بازدراء وقال بالفرنسية : يالك من تافه ! كان مولعا باستعمال بعض الجمل الفرنسية الغريبة اذا سمحت له الظروف بذلك •

وفى السابعة من صباح اليوم التالى جهزت العربتان

الكبيرة والصغيرة وخرجتا من الفناء • واستقلت السيدات والخدمة وبرزنيف العربة الكبيرة بينما ركب انزاروف الى جوار السائق • أما العربة الصغيرة فقد استغلها يوفار ايفانوفتش وشوبين • واشار يوفر ايفانوفتش الى شوبين لكى يجلس الى جوراه وكان يعلم ان شوبين سيضايقه طوال الطريق الى تسارتسينو ولكن رابطة غريبه كانت تربط هذا الرجل بالفنان الى جانب الصراحة الزائدة عن الحد • ومع هذا ، فقد ترك شوبين صديقه وشانه ، ولاذ بالصمت • كان شارد الذهن رقيقا •

كانت الشمس فى كبد السماء الزرقاء عندما وقفت العربتان امام قلعه تسارتسينو التى بدت كئيبة منفرة وقت الظهيرة • ونزلت الجماعه على النيل وساروا جميعا الى الحديقه • كانت يلينا وزويا وانزاروف يسيرون فى المقدمة تتبعهم أنا فاسيليفنا وقد اتكات على ذراع يوفار ايفانوفتش واكتسى وجهها بسعادة لا حد لها • اما يوفار ايفانوفتش فكان يلهث وهو يسير الهوينا وقد ضغطت القبعة القش على جبهته وأحس بحرارة قدميه وهو يرتدى الحذاء الطويل الرقبة ، ولكنه كان هو الآخر يستمتع بالنزهة •

وكان شوبين وبرزنيف يسيران فى المؤخرة ••

ـ وقال شوبين لبرزنيف هامسا: نحن من الاحتياطى ياصديقى كالمحاربين القدماء •

ـ ثم اضاف وهو يشير الى يلينا بحركة من حاجبه : انها الآن في بلغاريا ..

كان يوماً جميلا وكان كل شيء متفتحا مغردا . كانت الميـــاه تلمع في البحيرات على بعد . وكان كل شيء يثير النشوة . واخذت انا فاسيليفنا تكرر من وقت لآخر قولها: آه .. ياله من منظر جميـــل ! .. آه .. ما اجمله من منظر ! وكان يوفار ايفانوفتش يتبين صـــيحاتها الجذلة ويؤمن عليها بهزة من راسه . وكانت يلينـــا تتبادل مع انزاروف بعض التعليقات من آن لآخر . اما زويا فكانت تمسك حافة قبعتها العريضة بين أصبعها وهي تسير وقد مال جسدها الى الامام فيما يشـــبه الخجل . كانت تلبس رداء أرجوانيا وحذاء رماديا بدون كعب وجعلت تتلفت على جانبيها وخلفها . وفجـــاة قال شوبين بصوت منخفض : أوه ! اظن ان زويا تنظر خلفهـــا . لعل من الافضل ان اذهب اليها . ان يلينا نيكولايفنا تحتقرني الآن وتحترمك يا اندريا بتروفتش ولو ان النتيجة واحدة في الحالتين . انني ذاهب فقـــد تلكات آكثر من اللازم . اما انت ايها الرجل العجوز فاني انصـــحك أن تعنى بدراسة النباتات التي حولك فهذا أحسن شيء تفعله ثم ان هذا مفيد لك من الناحية العلمية .. الى اللقاء .

ثم جرى الى زويا وقدم لها ذراعه وهو يقول : ضمي يدك هنا ياسيدتي . ثم اسرعا في السير .

اما يلينـــا فقـد توقفت ونادت برزنيف وامسكت

بذراعه وهى لا تزال مستمرة فى الحديث مع انزاروف . وسألته عن الاسماء البلغارية للزنبق والوادى والبلوط وشجرة الليمون . (فقال برزنيف التعس فى نفسه : بلغاريا !) ..

وبغتة ، سمعوا صيحة . ونظر الجميع امامهم فرأوا علبة سيجار شوبين وقد قذفتها زويا . تطير فى الهواء وتسقط وسط شجيرة صغيرة فصاح بها : سأسير معك حتى رغم هذا .

ثم سار الى الشجيرة واستعاد علبة السيجار وعاد الى زويا . ولكنه ما أن اقترب منها حتى طارت علبه السيجار مرة أخرى عبر الطريق . وتكررت هذه العملية اربع او خمس مرات وهو يضحك ويتوعد بينما كانت هى تبتسم ابتسامة ماكرة وتقهقه احيانا . واخيرا امسك باصابعها وضغطها بشدة حتى صرخت ثم اخذت تنفخ على اصابعها فترة وهى تتظاهر بالغضب بينما كان هو يهمس ببعض الكلمات فى اذنها . فعلقت انا فاسيليفنا على ذلك بقولها بمرح ليوفار ايفانوفتش : طيش شباب .

فاخذ يثنى اصابعه ..

ـ وقال برزنيف محدثا يلينا : ما رايك فى زويا نيكيتشنا ؟

ـ فقالت له : وما رايك فى شوبين ؟

كانت الجماعة قد وصلت الى شجرة تعرف باسم

شجرة المنظر الجميل فوقفوا جميعا لكى يستمتعوا بجمال البحيرات الصغيرة فى تسارتسينو وهى تمتد عدة كيلومترات ، وتقع خلفها غابة كثيفه •

وكانت الحشائش الصغيرة التى تغطى المنحدرات حتى البحيرة الرئيسيه تضفى على المياه لونا اخضر جميلا• ولم تكن المياه تتحرك أو تتموج حتى بالقرب من الشاطىء• وبدت البرتقة كبيرة ملئت بزجاج سائل تجمد فاصبح كتلة كبيرة شفافة تعكس فتحتها زرقه السماء وهيكل الاشجار الهائلة • ووقفوا بعض الوقت يستمتعون بجمال المنظر فى صمت • حتى شوبين كان صامتا وحتى زويا كانت مستغرقة فى التامل واخيرا قرروا جميعا أن يركبوا قاربا• وجرى شوبين وانزاروف وبرزنيف على المنحدرات التى تغطيها الحشائش وراء بعضهم البعض • ووجدوا قاربا كبيرا والى جانبه رجلان للتجديف، فنادوا السيدات فذهبن اليهم وفى أثرهن يوفار ايفانوفتش الذى كان يتحسس فى حذر موضع قدميه • وقد أثار ضحك الجميع وهو يخطو الى القارب ويتخذ فيه مكانه •

ـ قال له أحد الرجلين وكان قصير الانف ويرتدى صديريا : احذر ياسيدى حتى لا تغرق القارب •

ـ فاجابه يوفار ايفانوفتش قائلا : اخرس أيها المجرم•

واخذ القارب يتحرك • وامسك الشبان الثلاثة بالمجاديف ولكن انزاروف كان الوحيد بينهم الذى يستطيع

التجديف · واقترح شوبين عليهم أن يغنوا معا أغنية روسية · وبدأ هو بأغنيه (عبر نهر الفولجا) وقد انضم له برزنيف وزويا ، حتى انا ماسيليفنا انضمت اليهم (لم يستطع انزاروف ان يغنى) ولكن النتيجه لم تكن مشجعة فقد تعثر المغنون فى الفقرة الثالثة وظل برزنيف وحده يحاول الاستمرار فى الغناء بصوت خفيض ولكنه ما لبث ان توقف هو الأخر · واخذ الرجلان الممسكان بالمجاديف يتغامزان ويبتسمان · فقال شوبين وهو يتجه اليهما : يبدو ان السيدات والسادة لا يعرفون الكثير عن الغناء · اليس كذلك ؟ فهز الرجل ذو الصديرى راسه · فقال له شوبين : انتظر أنت ياذا الانف القصير وسوف ترى · ارجوك يازويا نيكتيشنا أن تغنى أغنية البحيرة لفيدرماير ·

واوقفوا التجديف · وارتفعت المجاديف المبللة كالاجنحة الحانمة وقطرات الماء تتساقط منها فى البحيرة · وأخذ القارب ينساب فى الماء مسافة أخرى ثم وقف وهو يهتز قليلا كالاوزة · وحاولت زويا أن تتمنع · ولكن انا فاسيليفنا شجعتها ، فخلعت زويا قبعتها واخذت تغنى ··

لم يكن صوتها قويا ولكنه كان واضحا · واخذ هذا الصوت ينساب فوق صفحة البحيرة اللامعة فيسمع صدى كلماته فى الغابة البعيدة · كان يبدو كان شخصا آخر يغنى بصوت واضح غامض ولكنه ليس كاصوات البشر ولا ينتمى الى عالمنا هذا · وما أن انتهت زويا من الغناء حتى

ارتفعت أصوات تهتف لها وتصفق . وقـــد انبعثت هذه الاصوات من خلف شجرة كبيرة على الشـــاطىء . واندفع نحوهم عدد من الشبان الالمان حمر الوجوه كانوا قد أتوا الى تسارتسينو لاحتساء الخمر . وكان بعضهم قـد خلع المعاطف واربطة العنق والصديريات وصاحوا : أعد.. أعد وهم فى حالة من الهياج الشديد دفعت انا فاسيليفنا الى الاصرار على التحرك بسرعة الى طرف البحيرة البعيد. ولكن قبـــل إن يرسو القارب على الشاطىء خـرج عليهم يوفار ايفانوفتش بمفاجاة جديدة فقد لاحظ ان الصوت يرجع فى بعض أجزاء الغابة بصدى واضـــح فبدأ يصنيع ، فجاة ، مقلدا بعض الطيور . وانزعج الجميع فى أول الامر ولكنهم لم يلبثوا ان اعجـــبوا به اعجابا حقيقيا ، فقد كان يوفار بارع التقليد وشجعه نجاحه على أن يمـــوء كالقط ولكنه لم يكن يجيد ذلك فعاد للصياح مرة أخرى. ثم لاذ بالصمت بعد أن استعرض وجوه الجماعة كلها . فقام اليه شوبين واخذه بين ذراعيه وقبله ، ولكنه دفعه عنه وكان القارب قد بلـــغ الشـاطىء ونزلت منه الجماعة واحضر السائق والخادم والخادمة سلال الطعام من العربة واخذوا يقدمون الطعام على الحشائش فى ظـل بعض اشجار الليمون وقد التفوا حول مفرش فرشوه على الارض وبدءوا فى تنـاول الفطائر وغيرها من أنواع الطعـام . كان الجميع يتناولون طعـــامهم فى تلذذ وشـــهية وكانت أنا فاسيليفنا تزود ضيوفها بكميات وفـيرة من الاطعمة بين آونة واخرى وهى

تؤكد لهم أن تناول الطعام فى الهواء الطلق مفيد للصحة ·
وكانت توجه حديثها الى يوفار ايفانوفتش كذلك وكان يقول لها وقد امتلأ فمه بالطعام : لا تقلقى ··

وكانت هى تردد من آن لآخر قولها : ياله من يوم جميل ! لقد حدث لها تغير ملحوظ وكأنها قد رجعت الى الوراء عشرين عاما · وقد لفت برزنيف نظرها الى ذلك فردت تقول : نعم · لقد كنت مجتهدة أيام الدراسة وكنت دائما من العشر الأوائل ·

وأخذ شوبين الذى جلس الى جوار زويا يملأ كاسها بالنبيذ المرة تلو المرة ، وكانت ترفض ولكنه كان يلح عليها وكان الموقف ينتهى بان يشرب هو كاسها ثم يعيد الكرة مرة أخرى · وكان يؤكد لها انه يريد أن يضع راسه فى حجرها ولكنها لم تكن تسمح له بمثل « هذه الحرية الزائدة » وكانت يلينا تبدو جادة أكثر منهم جميعا ولكن قلبها كان مفعما بهدوء لم تجرب مثله منذ وقت طويل · كانت تشعر بطيبة لا حد لها وارادت الا ينفرد انزاروف بصحبتها بل أن يكون برزنيف ايضا الى جوارها ·

ولم يكن اندريا بتروفتش يدرك مغزى ذلك بوضوح وكانت تصدر منه من آن لآخر تنهدات خفية ·

مرت الساعات سراعا ، واقترب المساء · وفجأة احست أنا فاسيليفنا بالانزعاج وهتفت : يا الهى لقد تاخرنا كثيرا · لقد تناولتم الطعام والشراب أيها السادة وحان وقت الرحيل ·

وأخذت تصـــخب وكذلك فعـــل الآخرون • قاموا وساروا نحو القلعة التى تركوا الىجوارها العربات وتوقفوا عند مرورهم بالبحيرات ليستمتعوا بالنظر الى تسارتسينو للمرة الاخيرة • كان الريف يلتف فى غلالة حمراء كساه بها شفق الغروب • وكانت السماء قرمزية اللون ، وكانت أوراق الشجر تلمع وهى تهتز بفعـل الهـواء وهى تعكس خليطا من الالوان الزاهية كما كانت المياه تلتمع على البعد كانها ذهب سـائل • وكانت القبـــاب الصغيرة الحمراء المنتشرة فى الحديقة تظهر بوضوح امام خضرة الاشـــجار الفاتحة • وتمتمت انا فاسـيليفنا بصـوت خافت قائلة : وداعا ياتسارتسينو • سوف لا ننسى نزهة اليوم • وفى نفس اللحظة حدث شىء لم يكن من الممكن ان ينسى سريعا • فما ان القت أنا فاسيليفنا على تســـارتسينو تحية الوداع حتى تعالت على مسافة قريبة ضحكات وصياح وضجيج من خلف احدى الاشجار ، واندفع نفر من الرجال فى هيئة رثه ـ نفس الجمـــاعة التى صفقت وهتفت لزويا ـ الى الطريق • • كان واضـــحا انهم قد أفرطوا فى الشراب • ووقفت جماعتهم أمام السيدات • وتقدم احدهم وهو شاب ضـــخم الجثة له رقبة كرقبة الثور وعينان حمراوان وهو يتمـــايل وينحنى بغير اتزان ، واقترب من أنا فاسيليفنا التى تسمرت فى مكانها من الخوف ثم قال لهـــا بصوت أجش : طاب صباحك ياسيدتى • • كيف حالك ؟

فتراجعت أنا فاسيليفنا الى الوراء فى فزع • وأرفقه

الرجل بلغة روسية ركيكة : لماذا لم تعيدوا الغناء عندما صاحت جماعتنا « أعد » ؟

فصاح باقي افراد الجماعة : نعم ‥ لماذا ؟ وخطا انزاروف الى الأمام ولكن شوبين اوقفه وتوسط هو بين أنا فاسيليفنا والألماني ثم قال : اسمح لي أيها السيد المحترم أن أعبر لك عن استنكارنا الشديد لسلوكك . انني أستطيع أن أستنتج انك تنتمي الى الفرع السكسوني من الجنس القوقازي وهذا يجعلنا نفترض انك على علم بقواعد اللياقة ، ورغم ذلك فها أنت توجه الخطاب الى سيدة دون أن يقدمك أحد لها . وصدقني انني كنت ارحب بالتعرف عليك في أي وقت آخر فانني أرى أن عضلاتك قوية وبصفتي مثالا فانني كنت أرحب بك كنموذج لتمثال أما الآن فارجوك أن تتركنا وشأننا .

واستمع « السيد المحترم » لكلام شوبين وهو ينظر اليه باحتقار وقد وضع يديه في وسطه ثم قال له : لمأفهم شيئا مما قلته ‥ ربما كنت تعتقد انني اسكافي أو ساعاتي . ها ‥ انني موظف ‥ نعم ‥ موظف .

فقال له شوبين : أنا لم أشك في ذلك .

فنحاه الرجل بذراعه القوى كمن يزيل غصنا من طريقه ثم قال : ولكنني اقول لماذا لم تعيدوا الغناء عندما صحنا « أعد » ، وعلى كل فاني ذاهب ، ولكنني أريد من هذه الفتاة ـ لا هذه المرأة ـ كلا ‥‥ هذه الفتاة أو هذه الفتاة ـ

مشيرا الى يلينا وزويا ـ أن تمنحني قبلة صغيرة ٠٠ كما يقول بالالمانية ٠٠ نعم قبلة صغيرة ٠٠ ولا ضرر في هذا ٠

فعقب اصدقاؤه قائلين :

ـ أجل ، قبلة صغيرة لا ضرر منها ٠٠

امسكت زويا بذراع انزاروف ولكنه انتزع ذراعه منهـا وتصدى للرجل مخاطبا اياه بصـوت منخفض حاد النبرات : ابتعد من فضلك ٠٠

فقهقه الالماني ثم قال :

ـ ماذا تعني ابتعـد ؟ انني احب ان اقف هنا ٠ الا استطيع ان اسير قليلا انا أيضا ؟ ماذا تعني بهـذه الكلمة ٠٠ ابتعد ؟ ولماذا ابتعد ؟

اجاب انزاروف وقد امتقع وجهه : لانك تجرات على مضايقة السيدة ولأنك ثمل ٠

ـ كيف هذا ؟ أنا ثمل ؟ هل سمعت يا هرسايداس ؟ هل سمعت يا هربروفيزور ؟ أنا موظف ورغم ذلك فانه يتجرأ ـ والآن لابد لي من ترضية ٠٠ أريد قبلة صغيرة ٠

فانذره انزاروف قائلا : اذا خطوت خطوة اخرى ٠٠٠

ـ حسن ماذا سيحدث ؟

ـ سأقذف بك في الماء ٠

ـ في الماء ؟ هل هذا كل ماعندك ؟ حسن ، سنرى ٠ انه لشيء مثير ان تلقيني في الماء ٠

ورفع « الموظف » يديه وتقدم الى الأمام ولكن حدث نجاة شيء فريد ٠ فقد صدرت عنه أنة ثم ارتفع جسمه الضخم عن الأرض واخذت قدماه تضربان الهواء وقبل أن تصرخ السيدات وقبل أن يتبين اى شخص حقيقة ماحدث سقط « الموظف » فى البحيرة واختفى فى الحال تحت سطح الماء ٠

فصاحت السيدات جميعا فى صوت واحد : أوه ! وقال واحد من الألمان بلغة قومه : يا الهى ٠٠ ومرت دقيقة ثم ظهر على سطح الماء راس مستدير يغطيه الشعر المبلل وتخرج منه فقاعات من الهواء ، وظهرت يدان تضربان الماء فى ذعر وعصبية فصاحت انا فاسيليفنا بانزاروف الذى وقف يلهث على الشاطيء وقدماه متباعدتان : سيغرق ٠٠ ادركه ٠٠ ادركه ٠

فقال لها بنبرة يختلط فيها الاحتقار والقسوة :

ـ بل سيخرج سليما ٠٠ هيا بنا ٠٠

ثم أخذ ذراع انا فاسيليفنا وقال :

ـ هلم بنا يا بوفار ايفانوفتش هلمى بنا يا يلينا نيكولايفنا ٠

وفجاة صاح الألمانى التعس الذى تمكن من الامساك ببعض النباتات النامية على الشاطيء : أوه ٠٠ آه ٠٠٠ أما الآخرون فقد ساروا خلف انزاروف وتعدوه هو وصاحبه وجبن المهرجون بعد أن فقدوا زعيمهم ولم ينطقوا بكلمة الا واحدا منهم كان أشجعهم ، فقد تمتم وهو يهز رأسه :

ـ الآن ٠٠ هذا ٠٠ الله وحده هو الذى يعلم ماهذا ٠

وخلع آخر قبعته ٠ كان انزاروف يبدو لهم مخيفا وكانوا على حق فقد كانت تعلو وجهه نظرة تنذر بالشر ٠ واندفع الألمان الى زميلهم وانتشلوه من الماء وما ان وجد نفسه على أرض صلبة حتى بدأ يسب ويلعن والدموع تنساب من عينيه « اولئك المجرمين الروس » ويصيح قائلا انه سوف يشكوهم وانه سيقدم شكواه لصاحب السعادة الكونت فون كيزاريتز شخصيا ٠ ولكن «المجرمين الروس» أسرعوا الى القلعة غير مبالين بضجيجه ٠ كانوا جميعا يسيرون فى صمت عبر الحديقة ماعدا أنا فاسيليفنا التى كانت تئن بصوت منخفض ٠ ولكنهم عندما وصلوا الى العربات وقفوا ثم انفجروا فى الضحك ٠ وكان شوبين أول من انفجر يضحك كالمجنون ثم تبعه برزنيف الذى كان يقهقه فى سرور ثم تبعتهم زويا التى جعلت تضحك ضحكات خافتة ثم أغرقت أنا فاسيليفنا فى الضحك فجأة ، وحتى يلينا لم تتمالك نفسها من الابتسام ٠ وأخيرا استسلم انزاروف نفسه للضحك ٠ أما يوفار ايفانوفتش فكان أكثرهم ضحكا ٠ وكان يتوقف عن الضحك برهة ويقول والدموع تنساب من عينيه : لقد دهشت من صوت الوقوع فى الماء ـ ثم رأيت ـ ذلك الشىء ـ كان هو ـ يهوى الى القاع ٠ وما يكاد ينطق آخر كلمة حتى تعاوده نوبة الضحك وتهز كيانه كله ٠ وكانت زويا تدفعه الى المزيد من الضحك بقولها :

ـ لقد رايت قدمين يضربان الهـواء ٠٠٠ فيضيف يوفار ايفانوفتش قائلا : تماما ٠٠ قدمان ٠٠ وفجاة هبط الى القاع ٠ ثم تساءلت زويا :

ـ ولكن كيف استطاع انزاروف أن يفعل ذلك ؟ لقد كان ذلك الألماني يبلغ ثلاثة اضعاف حجمه ٠ فاجابها يوفار ايفانوفتش وهو يمسح عينيه :

ـ استطيع انا ان اصف لك كيف فعـل ذلك فقد رايت كل شيء ـ لقد لف أحد ذراعيه حول وسط الرجل ثم حمله وقذف به في الماء ٠ وقد تعجبت للصوت الذى سمعته فاذا به صوت وقوعه في الماء ٠

ظـل يوفار ايفانوفتش فترة طويلة بعـد ان بدات العربات سيرها واختفت قلعة تسارتسينو وهو لا يخفى جذله ٠ واخيرا اسكته شوبين الذى كان يجلس الى جواره في العربة ٠ اما انزاروف ، فقد كان يشعر بالخجل ، فكان يجلس صامتا في العربة في مواجهة يلينا ، بينما كان برزنيف يجلس الى جـوار السائق ٠ وكانت يلينـا هى الأخرى صامتة ٠ وتوهم انزاروف ان يلينا خائفة عليه ولكن الامر لم يكن كذلك ، فقد فزعت أول الأمر ولكنها بوغتت بعد ذلك بالتعبير الذى ارتسم على وجهه فجعلت تفكر ٠ ولم تكن هى نفسها تعرف فيم تفكر ٠ وزايلها الشعور الذى لازمها اثناء النهار ، ولكن شيئا آخـر حل مكانه لم تستطع هى ان تميزه لقد استمرت النزهة اطول من اللازم ومضى المساء واقبل الليل ، والعربة تعدو مسرعة

بحذاء حقول القمح الناضج وقد عبق الجو برائحته ، وعبر بالمروج الخضراء المترامية التى كانت ترســـل موجات من الهواء المنعش على الوجوه . كانت السماء تبدو داكنة فى الأفق ، ثم بزغ القمــــر بلونه الأحمــر البــاهت وكانت أنا فاسيليفنا تغفو من آن لآخر فى حين كانت زويا تنظر الى الطريق متكئة على النافذة . وتنبهت يلينا فى النهاية الى ان ساعة قد مضت دون أن تتحدث الى انزاروف ، فسألته سؤالا تافها رد عليه فى الحال بسرور . ثم طرقت أسماعهم أصوات غامضة كأنهـــا همهمة آلاف من الناس يتحدثون بعيدا . كانت هذه موسكو وهم يقتربون منها . وكانت الأضواء تتلألأ على البعد ، وتزداد عددا واخيرا مست عجلات العربة الطريق الحجرى فاستيقظت أنا فاسيليفنا وبدأ كل من فى العربة يتحدث ، ولكن احدا لم يكن يتبين مايقال بسبب صوت عجلات العربتين وحوافر الخيل على الطريق الحجرى . كانت الرحلة من موسكو الى كونتسومو تبدو لا نهائية . وكان المسافرون مابين غاف وجالس فى صمت . يلينا كانت هى الوحيدة التى لم يغمض لها جفن . كانت ترتكز نظراتها على انزاروف .. أما شوبين فقد غلبه الحزن وكانت النسائم الخفيفة التى تهب على وجهه تزعجه فأخفى وجهه فى ياقة معطفه وهو أقرب ما يكون الى البكاء . وأما يومار ايفانوفتش فقد استغرق فى النوم . وعلا شخيره واخــذ يتارجح فى مقعده . واخيرا توقفت العربتان وقام اثنان من الخــدم بمساعدة أنا فاسيليفنا على الترجل من

العربة وكانت منهكة تماما وقالت وهى تودع صحبها انها توشك ان تموت من التعب • واخـذوا يعربون لها عن شكرهم ولكنها كانت تردد انها على وشك الموت • ومدت يلينا يدها الى انزاروف تحييـــه ـ وكانت هذه أول مرة تفعل فيها ذلك ـ وظلت فى مجلسها بكامل ملابسها امام نافذة غرفتها فترة طويلة • وانتهز شوبين فرصة وهمس فى اذن برزنيف وهو يخرج : الا تظنه بطلا ؟ لقد القى الألمانى الثمل فى المـاء •

فرد عليه برزنيف قائلا : انك لم تفعل شيئا كهذا • ثم رافق انزاروف الى البيت •

ووصل الصديقان الى دارهما قرب الفجر ولم تكن الشمس قد اشرقت بعد ، ولكن النسيم كان يهب باردا ، وقطرات الندى تغطى الحشيش • وشقشقة عصافير وبقى نجم واحد يتلألأ فى السماء •

(١٦)

بعـد أن تعـرفت يلينا على انزاروف بدات تكتب مذكراتها ـ وذلك للمرة الخامسة او السادسة • وها هى بعض مقتطفات منها •

يونيـه ، يحضر لى انـدريا بتروفتش بعض الكتب ولكننى لا استطيع ان اقراها ولا استطيع فى الوقت ذاته

ان احمل نفسي على الاعتراف له بذلك ، ولا أجرؤ على رد الكتب اليه واخباره انني لم اقراها فانني اعتقد ان ذلك سيصيبه بخيبة امل · انه يلاحظ كل شيء اعمله · وهو يبدو شديد التعلق بي · ان اندريه بتروفتش رجل لطيف للغاية ·

·· ولكن ما الذي اريده ؟ ولماذا أشعر ان قلبي حزين ؟ لماذا انظر بحسد للطيور العابرة ؟ انني اشعر انني اطير معها ولكنني لا اعرف الى اين ، لابد أن يكون هذا الى مكان بعيد · الست مخطئة في هذه الرغبة ؟ والدي ووالدتي واسرتي هنا · الا احبهم ؟ كلا ، انني لا احبهم كما يجب · ان مثل هذا القول شيء فظيع ولكنها الحقيقة · وقد اكون مذنبة وقد يكون هذا هو السبب في حزني وقلقي · انني اشعر كان يدا ثقيلة تضغط على كانني في سجن توشك جدرانه أن تتهدم فوقي · ولكن لماذا لايشعر الآخرون بهذا الشعور ؟ وكيف يمكنني أن أحب اى انسان اذا كنت لا اهتم باقاربي · يبدو ان والدي على حق حين يشكو مني ويقول انني لا أحب الا القطط والكلاب · لابد لي ان افكر اكثر في هذا · انني لا اصلي كما يجب · لابد لي ان اصلي اكثر ولكنني اعتقد رغم هذا ، انني استطيع ان احب ··

انني لا ازال اشعر بالخجل في حضور السيد انزاروف ولكنني لا اعرف لماذا ·· انا لست صغيرة السن فهو متواضع وعطوف · انه يبدو احيانا في غاية الجد · ربما

لديه اشياء أخرى غيرنا يفكر فيها · انني اذ أحس بذلك لا اشعر ان من حقى ان أستحوذ على وقته ·. ولكن اندريا بتروفتش يختلف عنه فانا استطيع ان اتحدث اليه طول اليوم - ولكنه هو الآخر لا يكف عن الحديث عن انزاروف · لقد اعطاني عنه تفاصيل رهيبة · وقد رايته فى الحلم فى الليلة الماضية · كان يمسك بخنجر فى يده ، وقال لى « سأقتلك واقتل نفسى ايضا » ياله من تخريف !!

··· لو أننى وجدت من يقول لى « هذا ما يجب أن تفعليه » ·· لا يكفى ان يكون للانسان قلب رحيم · ان فعل الخير هو الشىء المهم فى الحياة · ولكن كيف أستطيع ان افعله ؟ ليتنى استطيع ان اسيطر على نفسى ! اننى لا افهم السر فى انشغالى بالسيد انزاروف · اننى أنظر اليه حين ياتى الى هنا ويجلس وهو ينصت باهتمام وانتباه دون أن يحاول ان يظهر قدراته ، واشعر بالارتياح · ولكن هذا هو كل ما هنالك ··

وبعد ان ينصرف اظل افكر فيما قاله واغضب من نفسى بل واشعر بالضيق ·· لا أدرى سببا لذلك ·

··· اعطيت اليوم قطعة من النقود لسائلة فسألتنى قائلة :

ـ لماذا يبدو عليك الحزن ؟ ولم يكن قد خطر ببالى أننى ابدو حزينة · اعتقد ان ذلك يرجع الى وحدتى فانا وحيدة دائما بكل ما فى ذلك من خير وشر · ليس هناك

من ابد له يدى • انني لا ارحب بمن ياتون الى ، اما من اريده فانه يمضى ويتركنى •

••• عجبا ! ما الذى ألم بى اليـوم : اننى اشعر بدوار • اننى على استعداد لأن أجثو على ركبتي في طلب العون بيـد أننى لا اعرف من يسـتطيع ان يقـدم لى يد المساعدة ولا كيف يقدمها ؟ اننى اشعر وكاننى اقتل واننى اصيح من اعماقى وأبكى وانا لا املك زمام نفسى •• هدىء يا الهى هذه العاطفة فى نفسى • انك الوحيد الذى يملك ذلك فان كل من عداك لا حول له ولا قوة • فلا صداقاتى التافهة ولا اعمالى ولا اى شىء آخر مهما كان يمكن ان ياخذ بيدى • أنا على استعداد لأن اعمل خادمة • ان كان فى ذلك مايشعره بتحسن •• وما فائدة شبابى ولماذا أعيش وما قيمة روحى وكل شىء آخر ؟

••• ان انزاروف •• السيد انزاروف •• أنا فى الحقيقة لا اعرف كيف اتحدث عنه ـ يسيطر على أفكارى • كم اود ان اطلع على ما بقلبه • انه يبـدو صريحا سهل الفهم ، ورغم ذلك فاننى لا ارى شيئا • انه احيانا ينظر الى كمن يبحث عن شىء ـ أم تراه خيالى هو الذى يصـور لى ذلك ؟ ان بول يضـايقنى دائما وانا غاضبة منـه • فما الذى يريده ؟ انه يحبنى ولكن مابى حاجة الى حبه • انه ايضا يحب زويا • اننى أظلمه • لقد قال لى بالأمس اننى لا اعرف كيف أخفف من ظلمى • وهو على حق • ولا شك ان ذلك شىء سيىء •

آه ٠٠٠ اننى على يقين أن الانسان محتاج لمصيبة كالفقر أو المرض حتى لا يصيبه الغرور ٠

٠٠٠ ولماذا حدثنى اندريا بتروفتش عن هذين البلغاريين اليوم ٠ يبدو انه قد تعمد ذلك وما أهمية السيد انزاروف بالنسبة لى ؟ اننى حانقة على اندريا بتروفتش ٠

٠٠٠ امسك قلمى ولا ادرى كيف ابدا ٠ لقد كان حديثه الى فى الحديقة اليوم مفاجاة ٠ كم كان لطيفا ! ويا للسرعة التى تم بها كل شىء ! لقد كنا صديقين قديمين التقيا حديثا ٠ ولا أدرى كيف مر على كل هذا الوقت حتى افهمه ٠ كم هو قريب الى نفسى الآن ! الشىء الغريب اننى الآن اهدا نفسا ٠ لا ادرى كيف كنت غاضبة من اندريا بتروفتش ومنه بالأمس حتى ناديته قائلة « ياسيد انزاروف » ٠٠ اما اليوم ـ فقد عثرت فى النهاية على رجل مخلص استطيع الاعتماد عليه ٠ انه ليس كاذبا ٠٠ انه أول رجل صادق اقابله ٠ الجميع ، عداه يكذبون ٠ يا صديقى العزيز الطيب يا أندريا بتروفتش لماذا اظلمك ؟ ولكن لا ٠٠٠ قد يكون أندريا بتروفتش أكثر ثقافة او أكثر ذكاء منه ٠ ولكنه يبدو ضئيلا الى جانبه ٠٠ انه عندما يتحدث عن بلاده يبدو كبيرا ويصبح وجهه جذابا وصوته قويا ويبدو حينذاك أنه ليس هناك من يستطيع أن يجعله يغمض عينيه ٠ انه لا يتكلم فحسب بل يعمل ويعمل ، عندى اسئلة كثيرة ساوجهها له ٠٠ لقد التفت الى فجاة وابتسم ٠٠ لا يستطيع احد أن يفعل ذلك على

هـذا النحو سوى اخ شقيق .. كم انا مسرورة الآن . عندما جاء لزيارتنا اول مرة لم اكن اتصور اننا سنغدو صديقين بهذه السرعة . ولكنني الآن مغتبطة اذ لم أبال في أول الأمر . لم أبال ؟ الم أعد عديمة المبالاة ؟

... انني لم اشعر بهذا الهدوء الداخلي منذ مدة . انني الآن اشعر بهدوء داخلي . ليس هناك ما اسجله . انني أراه كثيرا . هذا كل ما هنالك . وهل هناك شيء آخر يستحق التسجيل ؟

... ان بول يتجنبني . وقد قلل أندريا بتروفتش من زياراته .. يا للرجل التعس ! انني اظن أنه .. ولكن هذا مستحيل . انني شغوفة بالحديث الى أندريا بتروفتش .. انه لا يتحدث أبدا عن نفسه بل يتحرى دائما أن يتحدث عن شيء معقول ومفيد . انه ليس كشوبين .. ان شوبين ذو رونق وبهاء كالفراشة ولكنه بخلاف الفراشات يزهو بنفسه . على كل ، فان كلا من شوبين واندريا بتروفتش .. انني أعرف ما أعني ..

... انه يحب المجيء الى هنا .. أجل هـذا جلي واضح . ولكن لماذا ؟ ما الذي وجده في ؟ .. ان أذواقنا في الحقيقة متشابهة : فكلانا لا يحب الشعر وكلانا لايعرف الكثير عن الفن .. ولكنه يفوقني كثيرا . هو هادىء بينما انا دائمة القلق ، كذلك فان امامه طريقـا يتبعه وهدفا يسعى لتحقيقه . ولكن ما هو الوقت بالنسبة لي ؟ والى اين انا ذاهبة واين عشي ؟

انه هادىء ولكن افكاره بعيدة الغور .. لسوف يفارقنا يوما ما ليعود الى وطنه عبر البحر .. كان الله في عونه ..

ولكن لم لم يكن هذا الرجل روسيا ؟ كلا ... فما كان من الممكن له ان يكون روسيا .

ان والدتي تقدره أيضا . تقول انه رجل متواضع . فليباركها الله . انها لا تفهمه . لقد كف بول عن مضايقتي - لابد انه أدرك انني لا اقر تلميحاته - ولكنه رغم ذلك لايزال يغار منه .. يا له من شاب شرير !! اى حق له ؟ هل حدث ان ..... ؟

كل هذا هراء . لا أدرى لماذا ترد هذه الأفكار على عقلى ..

... انه لأمر غريب انني وقد بلغت العشرين لم اصب بعد .. اعتقد ان « د » ولاسمه بهذا الحرف .. فانا احب اسم دمتري - اعتقد انه جاد فقد كرس كل حياته وتوفر بكل ايمان على قضيته وعلى أحلامه .. فلماذا يقلق .. ان كل من يكرس نفسه عقلا وروحا لشيء ما لايقلق لشيء . انه لا يعبأ بذاته . فقد وهب نفسه لقضية بلده .. نحب نفس الزهور . لقد قطفت اليوم وردة وسقطت ورقة منها على الأرض فالتقطها فاعطيته الوردة .

... ان « د » يأتي كثيرا وقد امضى مساء الأمس كله معى . انه يريد ان يعلمنى اللغة البلغارية .. انني

اشعر وانا معه كانني مع واحد من ذوى بل وربما احسن ٠

٠٠ الايام تمر بسرعة ٠ انني في سـعادة بيد انني اشعر بشيء من الخوف ٠ وبرغبة في حمد الله وشكره ، بي رغبة في البكاء ٠ الا ما اجمل هذه الايام ـ ايام الدفء والشمس المشرقة ٠

٠٠٠ لا ازال قريرة العين ولكن الحزن يداخلني احيانا ، انني سعيدة ٠ هل انا سعيدة حقا ؟

٠٠٠ ساظل اذكر نزهة الامس وقتا طويلا ٠ لقد تركت في نفسي انطباعات غريبة وجديدة ومريعة ٠ انني لم اشعر بالخوف عندما رفع ذلك المارد فجاة والقى به في الماء كالكرة ٠ ولكنه هو اخافني ٠٠ لقد كان وجهه ينطق بالجد بل والقسوة ٠ ولا انسى لهجته التى قال بها ان الرجل سيخرج من البحيرة ٠ لقد اقشعر بدنى ٠ يبدو انى لم اكن اعرفه على الاطلاق ٠ وعندما ضحك الجميع بعد ذلك ٠ وعندما شاركتهم الضحك كنت اشعر بالم بالغ من اجله ٠ كان هو يشعر بالخجل ـ اجل ، لقـد احسست بذلك بالخجل مني٠وقد كاشفني بذلك فيما بعد ونحن في العربة حينما كنت احاول ان اسدد النظر في الظلام فتولاني الخوف منه ٠ انه ليس ممن يستهان بهم وهو يعرف كيف يواجـه شخصا آخـر ٠ ولكن ما سبب الغضب ورعشـة الشـفتين ونظرة العينين القـاسية ؟ الا يمكن ان يـكون الانسان مقاتلا ويظل رغم ذلك وديعا ورقيقا ؟ لقد قال لي اخيرا ان الحياة قاسية ٠ ورددت ذلك لاندريا بتروفتش

فلم يكن من راى دمترى ‥ أيهما ياترى المصيب ؟ مع ذلك فكم كانت جميلة بداية ذلك اليوم ٠ يا لسعادتى وأنا أسير الى جواره مع اننا لم نتحدث ٠ أنا منشرحة الصدر بما حدث وأعتقد انه كان لابد أن يحدث بهذه الطريقة ٠

٠٠٠ القلق يعاودنى لا أشعر أننى على مايرام ٠

٠٠٠ لم أسجل شيئا فى هذه المفكرة لعدة أيام لانى لم أكن أشعر برغبة فى الكتابة ٠ كنت أشعر أن أى شىء أكتبه سيكون مختلفا عما أحس به فى قلبى ٠ ولكن ما لقلبى ؟ لقد تبادلت معه حديثا طويلا فتح عينى على أشياء كثيرة ٠ أخبرنى عن مشروعاته ٠ وعلى فكرة لقد علمت الظروف التى أصابه فيها الجرح الذى فى رقبته ٠ يا الهى ‥ ان الدهشة تستبد بى كلما تذكرت انه قد حكم عليه بالاعدام وأنه نجا من الموت باعجوبة ٠ انه رائع ٠ هو على يقين أن الحرب ستشتعل وهذا يجلب له البهجة والسرور ٠ ورغم هذا لم يسبق لى أن رأيت « د » مهموما على هذا النحو ٠ ما الذى يمكن أن يحزنه دون الناس جميعا ؟ لقد عاد والدى من المدينة ووجدنا معا وكانت النظرة التى رمقنا بها غريبة حقا ٠ عندما جاء أندريا بتروفتش لاحظت أنه قد ضمر وشحب لونه ٠ وقد أنبنى لسلوكى نحو شوبين ووصفه هذا السلوك بالبرود وعدم المبالاة ٠ لقد نسيت كل شىء عن بول حين ألقاه ثانية سأحاول أن أكف عن خطئى والحق أن وقتى أصبح لا يتسع له الآن ـ ولا لأى شخص آخر على وجه الأرض قاطبة ٠ كان أندريا

بهروفتش يتحدث الى كمن يشعر بالأسف من أجلى • ولكن ماذا يعنى كل هذا ؟ ما بال كل شيء حولى وكل شيء فى قرارة نفسى غامض ؟ اننى أحس ان شيئا غامضا يحدث حولى وفى أعماقى واننى لابد أن أعثر على الكلمة الصحيحة •

••• لم اتمكن من النوم الليلة الماضية واشعر بصداع شديد • ما الداعى لكتابة اى شيء ؟ لقد انصرف مبكرا جدا اليوم وكنت شديدة الرغبة فى التحدث اليه • انه يبدو كمن يتحاشانى • نعم انه يتحاشانى ••• لقد عثرت على الكلمة ـ لقد هبطت على ! يا الهى •• رحمتك •• اننى أحب ••

(١٧)

فى اليوم الذى سطرت فيه يلينا هذه الكلمات الأخيرة فى مفكرتها كان انزاروف يجلس فى حجرة برزنيف وكان برزنيف يقف أمامه وقد ارتسمت على وجهه نظرة استغراب • كان انزاروف قد أعرب عن رغبته فى العودة الى المدينة فى اليوم التالى •

فقال برزنيف :

ـ ولكن يا صديقى لقد بدات أجمل فترات السنة ما الذى ستفعله فى موسكو ؟ وما سبب هذا القرار المفاجيء ؟ هل تلقيت أخبارا خاصة ؟

فاجابه انزاروف قائلا :

ـ كلا لم أتلق أى أخبار • ولكن ثمة أسباب تحول دون بقائى هنا أكثر من ذلك •

ـ الا تستطيع البقاء ؟

فقال له انزاروف :

ـ أرجو يا أندريا بتروفتش الا تصر على • ذلك أننى أجد صعوبة فى فراقك ولكننى لا أستطيع البقاء •

فنظر اليه برزنيف جيدا ثم قال له أخيرا :

ـ اننى أعرف أنه لا شىء يمكن أن يثنيك عن عزمك •• هل هذا قرار نهائى ؟

قال له :

ـ نهائى ولا رجعة فيه • ثم قام من مكانه وخرج ••

واخذ برزنيف يمشى فى الحجرة قليلا ثم اخذ قبعته وذهب الى بيت ستاكوف •

وما ان انفردت به يلينا حتى بادرته قائلة :

ـ لديك ماتريد أن تخبرنى به •

ـ نعم ـ وكيف عرفت ؟

ـ لا تهتم بذلك ، وقل لى ما وراءك •

واخبرها برزنيف بقرار انزاروف ، فشحب وجه يلينا •• ثم سألته :

ـ وما سبب رغبته في الرحيل ؟
قال لها برزنيف :
ـ أنت تعلمين أن انزاروف لا يعطي أسبابا لتصرفاته. ورغم ذلك فانني أعتقد ... تعالى نجلس ، أنت متوعكة يا يلينا . اعتقادى اننى استطيع أن احدس سبب هـــذا الرحيل المفاجىء . قالت يلينا وقد امسكت يد برزنيف بلهفه باصابعها التي اصابتها برودة مفاجئة :
ـ وما هو السبب ؟
فقال لها برزنيف وقد بدت على شفتيه ابتســامة باهتة :
ـ كيف أستطيع أن أوضح لك ؟ انني أجـد نفسي مضطرا الى الرجوع الى الربيع الماضي وهو الوقت الذي اتيح لى أن أعرف فيه انزاروف معرفة أحسن . كنت قد قابلته في منزل احد الأقارب . وكان لهذا القريب ابنة وهي فتاة رائعة الجمال فاعتقدت ان انزاروف قد وقع في حبها وأخبرته بهذا .. فضحك وقال انني مخطىء لان قلبه محصن ضـــد الحب وانه لو أحس بشيء كهذا لغادر المكان لتوه اذ لم يكن يريد ، حسبما قال ، أن يتخلى عن قضيته وعن واجبه لكي يشبع عاطفة شخصية .
ثم أضاف : انني بلغارى ولا أريد أن أقع في حب فتاة روسية .
فقالت له يلينا هامسة وقد أدارت وجهها كمن ينتظر ضربة ولكنها كانت لاتزال ممسكة بيده :

ـ والآن .. هل تعتقد انه ؟

فقال لها وقد خفض صوته هو الآخر :

ـ اعتقد ان ما اخطات فى تخمينه وقتذاك قد تحقق الآن ..

فانفجرت يلينا قائلة :

ـ اى انك تعتقد ... لا تعذبنى .

فاجابها برزنيف بسرعة :

ـ اعتقد ان برزنيف قد وقع فى حب فتاة روسية ، ولكنه قرر ان يحتفظ بوعده لوطنه وان يهرب منها .

وشددت يلينا الضغط على يده وادارت راسها وكانها تريد ان تخفى عن شخص غريب تلك الحمرة المفاجئة التى طغت على وجهها ورقبتها .

وقالت له :

ـ انت طيب كملاك يا اندريا بتروفتش .. ولكنه سياتى لوداعنا اليس كذلك ؟

ـ نعم .. اعتقد انه سيحضر لانه لا يريد ان يرحل دون ان ...

ـ قل له من فضلك قل له ..

ولكن الفتاة المسكينة لم تستطع ان تكمل فقد انهمرت الدموع من مقلتها وخرجت من الحجرة وهى تجرى .

وقال برزنيف لنفسه وهو فى طريقه الى بيته :

ـ اذن الى هذا الحد تحبه ٠٠ لم اكن اتوقع ذلك ٠٠ لم اتخيل ان يكون هذا الحب قويا هكذا بهذه السرعة ٠ تقول اننى طيب ٠ ليس هناك من يعرف المشاعر او الدوافع التى جعلتنى اقول ليلينا هذا الكلام ٠ لم يكن هذا ولا شك من باب العطف والطيبة ٠ كان ذلك بدافع الرغبة اللعينة لمعرفة هل غاص الخنجر فى الجرح الى عمق كبير ؟ ٠٠ كان يجب على ان اقر عينا ـ انهما متحابان وانا الشخص الذى ساعدهما على ذلك ، انا وسيط المستقبل بين العلم والشعب الروسى ، كما يسمينى شوبين ٠ يبدو انه مقتنع على ان اكون وسيطا ٠ ولكن لعلنى واهم ٠٠ كلا لست واهما ٠ كان برزنيف مكتئبا ٠ ولما بلغ بيته لم يستطع ان يركز تفكيره وهو يقرأ كتاب رومير ٠ وفى اليوم التالى قام انزاروف بزيارة بيت ستاكوف بعد الواحدة بقليل ٠ وكان لدى انا فاسيليفنا لحسن الحظ زائرة هى زوجة القسيس التى تقطن فى بيت قريب ٠ كانت امرأة طيبة محترمة ولكنها كانت تشكو من متاعب مع البوليس سببها انها نزلت للاستحمام فى يوم حار فى بحيرة على الطريق يستعملها عادة أفراد أسرة أحد الجنرالات المهمين ٠

وظنت يلينا فى أول الامر ان وجود شخص غريب بالبيت سيخفف عنها ٠ وامتقع لونها حال سماعها وقع اقدام انزاروف ٠ ولكن قلبها كادت تتوقف ضرباته عندما خطر ببالها انه قد يودعها دون أن يتحدث اليها على انفراد٠

وبدا على انزاروف الارتبـــاك ، وكان يتجنب نظراتها • وقالت لنفسهـا : لا يمكن أن يودعني في لحظة • والتفت انزاروف الى انا فاسيليفنا وكانما يؤكد مخاوفها ، ولـكن يلينا قامت على عجل وقادته الى النافذة •

ودهشت زوجة القسيس لهذا التصرف وحاولت ان تلتفت اليهما • ولكنها كانت ترتدى ملابس محبكة فكان أن عجزت عن ذلك وعدلت عن المحاولة •

قالت يلينا على عجل لانزاروف :

ـ أعرف سبب مجيئك فقد أخبرني اندريا بتروفتش بما تنويه ، ولكنني ارجوك بل واتوسل اليـك الا تودعنا اليوم وان تحضر غدا حوالى الحـادية عشرة لاني أريد أن أتحدث اليك •

فانحنى انزاروف ••

وقالت يلينا :

ـ لن أستبقيك أكثر من ذلك ، فهل تعدني ؟

فانحنى انزاروف مرة اخرى ولكنه لم يجب ••

وهنا تحدثت أنا فاسيليفنا قائلة :

ـ تعالى يايلينا وانظرى الى هذه الحقيبة الجميلة ••

فقالت زوجة القسيس :

ـ لقد طرزتها بنفسى •

ـ وابتعدت يلينا عن النافذة • وخرج انزاروف بعد

ذلك بربع ساعة . وكانت يلينا تختلس اليه النظر في الفترة التي كان فيها معها . ولم يكن هو مرتاحا لذلك وظل يقلب عينيه في كل اتجاه ثم خرج وهو في حالة غريبة وسرعان ما اختفى ..

ومضى اليوم بطيئا أما الليل فكان اطول . كانت يلينا تجلس تارة على فراشها وقد امسكت ركبتيها بيديها واسندت راسها عليهما وتسير تارة أخرى الى النافذة وتضع جبهتها على زجاجها البارد وهي نهبة للافكار حتى اخذ منها الارهاق كل ماخذ . وكاد قلبها يتوقف دقاته او يقفز من صدرها وكانت عروقها تنتفض مع كل نبضة . وجفت شفتاها .. كانت تقول لنفسها : سياتي ـ انه لم يودع والدتي ـ وهو لا يمكن ان يخدعني .. أمن الممكن ان يكون اندريا بتروفتش صادقا فيما حدثني به ؟ كلا .. هذا مستحيل . ولكنه لم يقل انه سيعود .. ترى هل فارقته الى الأبد ؟

كانت هذه هي الهواجس التي تقض مضجعها . لم تكن افكارها تروح وتجيء في راسها بل كانت تتلاحق فيها كالموج الصاخب ، كانت تقول لنفسها : « انه يحبني » وتهز هذه الفكرة كل كيانها ، ثم تحملق في الظلام ويبدو على شفتيها ظل ابتسامة ، ولكنها سرعان ما تلقي براسها للخلف ثم تمسك مؤخرة راسها بيديها وتعاودها هواجسها السابقة .

ولما حان الفجر خلعت ملابسها وأوت الى فراشــها ولكنها لم تخــلد الى النوم • ثم تسللت الى حجرتها بعد هنيهة اشعة الشمس وفجاة هتفت قائلة : « أه ٠٠ لو انه يحبني » وفتحت دراعيها وهي غير عابئة باشعة الشمس والضوء الذى سقط عليها •

غادرت الفراش وارتدت ملابسها وهبطت من حجرتها ولم يكن أحد قد استيقظ بعد • وذهبت الى الحديقه وكانت هادئة خضراء منعشة وكانت الطيور تغرد والازهار جميلة مما اثار فيها شعورا بالرهبة • وقالت لنفسها : اذا كان ذلك صـــحيحا فلا يمـكن ان يكون هناك عود من اعواد الحشيش أسعد منى • ولكن هل ذلك حقيقى ؟ ثم عادت لحجرتها واخذت تغير ملابسها ولـكن كان كل شيء تمسكه يقع من يدها • واخيرا جلست امام المرآة نصف عارية • واستدعيت لتناول الشــاى ، فنزلت من حجرتها ولاحظت والدتها شحوبها ، ولكنها لم تزد علي قولها : انك تبدين جميلة هذا الصباح • ثم تفحصتها بنظرها وقالت لهــا :

ـ هذا الثوب يناسبك تمــاما وأنصحك أن ترتديه كلما اردت أن تدخل السرور على نفس أى انسان• وجلست يلينا فى احد الاركان فى صمت • ودقت الساعة التاسعة وبقيت ساعتان حتى الحادية عشرة • والتقطت كتابا ثم تركته وتناولت شغل الابرة ثم عادت للكتاب مرة أخرى • ثم قررت ان تســير جيئة وذهابا فى الحجرة مائة مرة ، وفعلت ذلك ثم نظرت الى الســاعة فلم تكن قــد بلغت

العاشرة • ثم حضر شوبين الى حجرة الجلوس وحاولت ان تتحدث اليه وقدمت له اعتذارها وهي تجهل ما تعتذر عنه•

كانت كل كلمة تنطقها تحيرها • وكان شوبين ينحني لها • وكانت تتوقع منه السخرية ولكنها عندما نظرت اليه وجدت امامها وجها ينطق بالود والحزن •

وابتسمت لهذا الوجه ورد عليها شوبين بابتسامة مماثلة ثم انصرف في هدوء • ارادت أن تستوقفه ولكنها لم توفق الى طريقة تستدعيه بها •

واخيرا دقت الساعة الحادية عشرة •• واخذت تنتظر وتنتظر وتنتظر وهي تنصت ولم يعد في وسعها ان تفعل اى شيء بل لقد عجزت حتى عن التفكير • وبدات دقات قلبها تعلو رويدا وبدا لها ان الوقت يمر سريعا • ومرت ربع ساعة ثم نصف ساعة ثم بضع دقائق أخرى او هكذا تخيلت ثم انتفضت فجأة عندما دقت الساعة الواحدة لا الثانية عشرة •

قالت لنفسها :

ـ سوف لا ياتي ـ سيرحل دون ان يودعنا • واندفع الدم الى راسها عندما خطرت لها هذه الفكرة • واحست بأنفاسها تتلاحق وبالدموع على وشك ان تنهمر من عينيها• فعادت الى حجرتها والقت بنفسها على الفراش وقد وضعت وجهها بين راحتيها •

ظلت راقدة دون حراك نصف ساعة والدموع تنساب بين أصابعها وتبلل الوسادة . وفجأة هبت جالسة وكأن هناك شيء غريب يجرى في قرارة نفسها وتغير وجهها وجفت دموعها تلقائيا وأخذت عيناها تلمعان ، قطبت حاجبيها وزمت شفتيها . وانقضت نصف ساعة أخرى . واصاخت يلينا السمع لآخر مرة لعلها تسمع الصوت الذى تنتظره . ثم قامت ولبست قبعتها وقفازها ووضعت الشال حول كتفيها وتسللت من البيت دون أن يراها أحد . واسرعت تسير فى الطريق المؤدى الى بيت برزنيف .

- ١٨ -

سارت يلينا وقد نكست راسها وركزت عينيها على الطريق . لم تكن تخشى شيئا كما لم تكن تعرف ما تفعله . كانت تريد ان ترى انزاروف مرة اخرى ، هذا كل ما هنالك . ولم تحس بان الشمس قد توارت من مدة خلف السحب الداكنة وان ريحا قوية كانت تعبث بالاشجار وبردائها وان الغبار اخذ يندفع على طول الطريق ويرتفع . وبدأ المطر يتسقط فى قطرات كبيرة ، ولكنها لم تعرها اى التفات ، وزادت غزارة المطر وبدأت السماء ترعد وتبرق . ووقفت يلينا لتنظر حولها .. ووجدت لحسن الحظ بالقرب منها كوخا صغيرا يعلو بئرا فاسرعت تحتمى به . وظل

المطر يسقط بغزارة ، من ســـماء ملبدة بالغيوم . ونظرت يلينا فى يأس الى الستار الكثيف الذى نسخه المطر وأخذ املها الاخير فى رؤية انزاروف يتضاءل . وانضمت اليها فى مأواها شحاذة عجوز قالت لها وهى تنحنى :

ـ أنت مختبئة من المطر ياصغيرتى .. ثم جلست على الارض تتنهد وتئن . ودست يلينا يدها فى جيبها ورأت المرأة العجوز هذه الحركة فاشرق وجهها المجعـد الشاحب الذى كان جميلا فى يوم من الايام .. وقالت لها : شكرا لك ياملاكى .. ولم تجد يلينا حافظة نقودها ولكن المرأة العجوز كانت قد مدت يدها بالفعل ..

فقالت لها يلينا :

ـ ليس معى نقود ياجدتى ولكن يمـكنك ان تاخذى هذا ـ فقد ينفعك .. واعطتها منديلها ..

قالت الشحاذة :

ـ ماذا أستطيع ان افعل بمنديلك يافتاتى ؟ ساهديه لحفيدتى يوم زفافها .. أسال الله أن يجزيك عن عطفك خيرا .. وهنا رعدت السماء وابرقت ..

فقالت العجوز :

ـ يا الهى .. ثم رسمت الصليب على صدرها ثلاث مرات . ثم أضافت بعد برهة : يخيل الى اننى رأيتك من قبل . أظنك اعطيتنى صدقة ذات مرة .

فنظرت يلينا بتمعن للمراة العجوز وتذكرتها ثم قالت لهـا :

ـ نعم ياجدتي وقد سالتني يومئذ عن سبب حزني.

فقالت لها العجوز :

ـ نعم يابنيتي لقد فعلت • وهذا هو ماجعلني اتعرف عليك ثانية • ولكنك تبدين حزينة الآن ايضا • منديلك مبتل كله ـ هل كنت تبكين ؟ كلكن ايتهـا الفتيات سواء باحزانكن وهمومكن ••

ـ اى احزان ياجدتي ؟

ـ تسالين اى احزان ؟

لا تحاولى يا ابنتي الطيبة ان تموهي على امراة عجوز مثلي • انني أعرف ما يؤلمك • المك لا يرجع الى انك فقدت والديك • لقد كنت شابة يوما ما يا فتاتي وخبرت هذا كله انني اقول لك هذا لأنك احسنت الى •• لقد التقيت برجل طيب واهل للثقة وتريدين التمسك به •

اذا كان مقدرا لهذا أن يتم فسيتم والا فلتكن ارادة الله • هـــذا هو الموقف • لماذا تحملقين فى هكذا ؟ الم تكوني تعرفين انني اقرأ الطـالع ؟ اذا أردت فانني سآخذ كل أحزانك مع منديلك • سأبعدها كلها عنك وهذا كل ما هناك • انظرى ، لقد بدأ المطر يخف فما تنظرى حتى يتوقف اما انا فلا بـد لى أن أنصرف ولن تكون هذه هى

المرة الاولى التي يبللني فيهـا المطر تمـاما ·· تذكري ياعزيزتي انك كنت حزينة ، ولكن حزنك قد انتهى الآن ·

ونهضت المرأة العـجوز وانصرفت وتتبعها يلينـا بنظرات مأخوذة وقالت يلينا لنفسها :

ـ ماذا يمكن أن يعني هذا ؟

لقد بدأت شـدة المطر تخف واخذت الشمس تظهر وتختفي · وكانت يلين على وشك ان تترك مخبأها عندما رأت انزاروف فجأة على بعد اثنتي عشرة خطوة وكان يسير ملتفا بمعطفه في نفس الطريق الذي سارت هي فيه يبدو انه كان مسرعا الى بيته · حاولت أن تناديه ولكن صوتها خانها · ومر انزاروف امامهـا دون ان يرفـع عينيه · واستطاعت أخيرا ان تناديه ·

فوقف انزاروف ونظر خلفه ·· لم يعرف يلين في بادىء الامر ولكنه بعد لحظة واحدة ، رجع اليها ··

وقال لها متعجبا :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟!

فدخلت الى الكوخ في هـدوء وتبعها انزاروف وكرر سـؤاله ·· فلم تجبه ·· ولكنها نظرت اليه نظرة طويلة رقيقة ·· اما هو فقد خفض عينيه ·

وسألته :

ـ أكنت عائدا من بيتنا ؟

ـ كلا ـ كنت عائدا من مكان آخر ·

فتساءلت يلين قائلة :

ـ كلا ـ ؟ وهل هذه هي الطريقة التي تحافظ بها على كلمتك لقد قضيت الصباح في انتظارك ··

ـ لعلك تذكرين يايلينا نيكولايفنا انني لم اعدك بشيء بالامس ·

فابتسمت يلينـــا ابتسامة باهتة ومرت بيـدها على وجهها وكانت يداها شاحبتين ووجهها ممتقعا · قالت :

ـ أي انك كنت ستتركنا دون ان تودعنا ؛

فقال انزاروف بصوت حزين :

ـ نعم ·

ـ بعد ان عرف احدنا الآخر كل هذه المدة · وبعد الموضوعات الكثيرة التي ناقشناها · بعد كل هذا ·· معنى هذا انني اذا لم أكن قد قابلتك هنا بالصدفه (وهنا ارتعش صوت يلينا وتوقفت هنيهة عن الكلام) لرحلت دون ان تقرئني السلام للمرة الاخيرة دون أن تأسف على هذا ؟

فابتعد عنها انزاروف ثم قال :

ـ لا تتكلمي هـكذا يا يلينـا نيكولايفنا فعندي من التعاسة الكفاية · وصدقيني ان قراري هذا قد كلفني جهدا ضخما · واذا عرفت ·· فقاطعته يلينا قائلة :

ـ لا اريد أن أعرف سـبب رحيلك فأنا أعتقد انك

مجبر عليه وواضح انك لا بد أن ترحل · فانك ما كنت تتسبب فى مضايقة أصدقائك دون سـببب · ولكن هل يفترق الاصدقاء هكذا ؟

انني وانت أصدقاء اليس كذلك ؟

فقال انزاروف :

ـ كلا ·

فقالت يلينا وقد احمرت وجنتاها قليلا :

ـ ماذا تقول ؟

قال انزاروف :

ـ انني راحل لاننا لسنا صديقين ·

ولا تضطريني الى قول مالا اريد ان اقوله ـ وماسوف لا اقوله ·

فقالت يلينا وفى صوتها رنة تانيب :

ـ لقد اعتدت ان تكون صريحا معى · الا تذكر ذلك؟

ـ كان هذا عندما كان في استطاعتى ان اكون صريحا حيث لم يكن لدى شيء اخفيه · أما الآن ـ فسألته يلينا : الآن ماذا ؟

ـ الآن ـ الآن لابد لى أن اذهب · وداعا ·

لو ان انزاروف كان قد رفع راسه فى هذه اللحظة لرأى وجه يلينا وهو يزداد اشراقا بينما كان وجهـــه هو يزداد تجهما · ولكنه كان لا يرفع عينيه عن الارض ·

قالت له :

ـ وداعا اذن يادمتري نيكامورروفتش .. ولـــكن اعطني يدك على الاقل مادمنا قد التقينا .

وهم انزاروف بان يمد لهـا يده ولكنه ابتعد وقال هامسا :

ـ كلا لا استطيع ..

ـ لا تستطيع ؟

ـ كلا . وداعا . ثم اتجه صوب الباب ..

فقالت له يلينا : انتظر لحظة واحدة . انك تبـدو خائفا منى .. ولكننى اشجع منك . ان فى استطاعتى ان اصارحك ـ هل اقول ـ لماذا وجدتنى هنا ؟ هل تعرف الى اين كنت ذاهبة ؟

فنظر انزاروف الى يلينا فى عجب :

ـ كنت ذاهبة اليك .

ـ الى ؟

فاخفت يلينا وجهها بين يديها وهمست قائلة :

ـ لقد اردت ان تدفعنى الى مصارحتك بحبى . والآن هانذا قد كاشفتك بذلك .

فهتف انزاروف قائلا : يلينا !!

فرفعت يديها من على وجههـا ونظرت اليه ثم القت بنفسها على صدره ..

احتضنهـــا دون أن ينبس . ولم يكن فى حاجة لأن يصرح لها بانه يحبها ، فان التعبير الذى ظهر عليه والتحول المفاجىء الذى حدث له وصدره الذى كان يعلو ويهبط وهى متعلقة به بكل ثقة واصابعه التى كانت تعبث بشعرها ـ كانت كلها توحى ليلينا انه يحبها . لم يقل شيئا ولم تكن هى فى حاجة الى كلمات وكانت تقول لنفسها : انه هنا . انه يحبنى . فلماذا أريد أكثر من ذلك ؟ وغمرتها موجة من هدوء الغبطة .. والشعور بالامن .. الشعور بأن هدفا قد تحقق .. الهدوء السماوى الذى يضفى جمالا على كل شىء . لم تكن فى حاجة الى شىء فقد أصبحت تملك كل شىء ..

قالت له هامسة وهى لا تدرى ان كان قلبه أو قلبها هو الذى يدق وينوب فى صدرها : أخى .. صديقى .. عزيزى ..

ووقف هو بلا حراك وقد التفت ذراعاه القويتان حول هذه الفتاة التى أسلمت نفسها له ، كانت تشعر به وهو يضمها الى صدره .. وقد حطم حبها وحطمت رقتها عزمه واندفعت الى عينيه دموع لم يكن له بها عهد من قبل .

ولكنها هى لم تبك بل أخذت تكرر قولها : صديقى . أخى ..

ومر ما يقرب من ربع ساعة وهو لا يزال ممسكا بها بين ذراعيه ثم قال :

ـ الآن فانت على استعداد للذهاب معى الى أى مكان .

ـ الى اى مكان الى آخر الدنيـا ٠٠ احب ان اكون حيث تكون ٠

ـ هل انت واثقـة انك لا تخـدعين نفسك ؟ انت تعرفين ان والديك لا يمكن أن يوافقا على زواجنا ٠

ـ انا لا اخدع نفسى ٠٠ اننى اعرف ٠

ـ وهل تعلمين اننى فقير بل واكاد اكون معدما ؟

ـ أجل ٠٠

ـ واننى لست روسيا ٠ واننى لا أنوى أن اعيش فى روسيا وانك ستضطرين لقطع علاقاتك مع بلادك واقاربك؟

ـ اعرف ذلك ٠

ـ وهل تعلمين ايضا اننى قد كرست حياتى لقضية صعبة لا هوادة فيهـا ٠ واننى ـ واننا سنضطر لمواجهة الاخطار والمصاعب بل وربما الهوان ؟

ـ أعلم ذلك ـ اعرف كل هذا ٠ أحبك ٠

ـ وانك ستضطرين للتخلى عن كل عاداتك وستكونين هناك وحيدة بين قوم أغراب وقد تضطرك الظروف للعمل ؟

فوضعت يديها على شفتيه وقالت له :

ـ أحبك يا عزيزى ٠٠

فبدأ يقبل يدها ـ الرقيقة الوردية فى شـغف ٠٠ ولم تحاول يلينا أن تسحب يدها منه بل أخذت تراقبـه

بمرح كمرح الطفولة وهو يغطى راحة يدها وأصابعهـــا بقبلاته .

وفجاة احمر وجهها واخفت وجهها فى صـــورة .. ولكنه رفع راسها برقة ونظر فى عينيها وقال لها :

ـ تحية لك اذن يا زوجتى أمام الله وامام الناس ..

- ١٩ -

عادت يلينا فى هدوء الى حجرة الجلوس بعد ساعة وقد امسكت قبعتها فى احدى يديها وشـــالها فى اليـــد الاخرى . كان شعرها غير مرتب . على وجنتيهـــا وردة حمراء وعلى شفتيها وفى عينيهـــا ابتسامة . كانت متعبة للغاية حتى انها كانت تجد فى السير مشقة ولكنها كانت تستمتع بذلك التعب بل تســـتمتع بكل شىء . كان كل شىء يبدو امامها لطيفا جميـــلا . كان يوفار ايفانوفتش يجلس أمام نافذتها فذهبت اليه ووضعت يديها على كتفيه وضحكت ..

فسألها فى دهشة :

ـ ماذا هناك ؟

ولم تعرف بم ترد عليه .. كانت على اســـتعداد لان تعطيه قبلة .. واخيرا قالت : لقد مضى ..

ولكن يوفار ايفانوفتش لم يحرك عضلة واحدة وهو يحملق فى يلينا فى دهشة . ووضعت شالها وقبعتها عليه

.. ثم قالت : انني متعبة يا عزيزى يوفار ايفانوفتش كما انني اشعر بالنعاس . ثم ضحكت مرة أخرى والقت نفسها على المقعد المجاور له .

فتمتم يوفار ايفانوفتش وهو يثني اصابعه وقال :

ـ غفوة ... نعم ... لا باس ..

ونظرت يلينا حولها وهي تقول لنفسها : ساكون مضطرة للتخلى عن كل هذا قريب . الغريب انني لا اشعر بخوف او شك أو اسف . ولو انني ساشعر بالأسف على فراق أمي . ثم رأت الكوخ الصغير مرة أخرى وسمعت صوت انزاروف واحست بذراعيه تطوقانها .. كان قلبها يدق بمرح وهدوء فقد كان هو الاخر في غمرة من السرور ثم تذكرت السائلة العجوز وقالت لنفسها : لقد ازالت حزني فعلا . كم انا سعيدة الآن ولو اني لا استحق هذه السعادة . ما أسرع ما جاءت سعادتي . واستسلمت لعواطفها قليلا لتطلق العنان لدموع الفرح التي ظلت تحبسها طويلا .

كانت كل حركة من حركاتها متانية ورقيقة . واختفى جمودها العادى وحيرتها . ودخلت زويا وخيل ليلينا عندما رأتها انها لم تر وجها أجمل من وجهها . ثم تبعتها انا فاسيليفنا . واحست يلينا بالألم وقامت واحتضنت أمها في محبة وحنان وقبلتها في جبهتها عند شعرها الأشيب . ثم ذهبت بعد ذلك الى حجرتها ، وكان كل شيء فيها يبدو

جميلا • وجلست على فراشها وهى تشعر بالبهجة والاطمئنان ، نفس الفراش الذى امضت عليه منذ ثلاث ساعات لحظات مريرة •• وقالت لنفسها : كنت اعرف حينذاك طبعا انه يحبنى وحتى قبل ذلك • ولكن لا ••• لا ••• من الجرم ان افكر فى هذا •• ثم همست : لقد قال ، انك زوجتى ، ثم غطت وجهها بيدها وركعت على ركبتيها •

عندما اقترب المساء بدا عليها الوجوم • لقد شعرت بالحزن لأنها ستمضى فترة طويلة دون أن ترى انزاروف • لم يكن يملك البقاء مع برزنيف دون أن يثير الشكوك ، لذا فقد اتفق مع يلينا على ضرورة عودته الى موسكو على أن يزورهم مرة أو مرتين قبل نهاية الصيف • كما وعدت من جانبها ان تكتب له وان تعمل على أن يلتقيا فى اى مكان بالقرب من مكونتسوفو ان أمكن ذلك ، ونزلت الى حجرة الجلوس لتناول الشاى وهناك وجدت جميع افراد العائلة وشوبين الذى اخذ بمجرد ظهورها ينظر اليها بدهاء ، كانت تود لو امكنها أن تبدأ معه حديثا وديا كما كانت تفعل من قبل ولكنها كانت تخشى نظراته الثاقبة كما انها لم تكن تثق فى نفسها • كانت تشك فى أنه ليس من قبيل الصدفة أن يتركها دون أن يقابلها فترة أسبوعين • وسرعان ما حضر برزنيف ونقل الى انا فاسيليفنا تحيات انزاروف واعتذراته لأنه اضطر الي الرحيل الى موسكو دون ان يزورها لتقديم شكره وتقديره • كانت هذه اول مرة

يذكر فيها اسم انزاروف ذلك اليوم في حضور يلينا • واحست بان وجهها قد علاه الاحمرار • قد تنبهت ان عليها ان تعبر عن أسفها لهذا الرحيل المفاجىء لمثل ذلك الصديق ولكنها لم تستطع ان تتظاهر فجلست صامتة دون حركة بينما أعربت انا فاسيليفنا عن اسفها • وحاولت يلينا أن تظل بالقرب من برزنيف الذى لم تكن تخشاه رغم انه كان يعلم جزءا من سرها ، وكانت تحتمى به من شوبين الذى كان يكرر النظراليها كمن يبحث عن شىء أو كمن يستفسر عن شىء • وشعر برزنيف بالجراة اكثر من مرة ذلك المساء لانه كان يتوقع ان يجد يلينا اكثر حزنا مما رآها ولكن كان من حسن حظها ان بدأ هو وشوبين نقاشا حول الفن فابتعدت عنهما واخذت تنصت الى اصواتهما وكانها فى حلم من الاحلام • ورويدا رويدا أصبح كل شىء فى الحجرة جزءا من حلم ـ فاناء الشاى على المنضدة والصديرى الذى يلبسه يوفار ايفانوفتش وأظافر زويا اللامعة وصورة الدوق قسطنطين بافلوفتش الزيتية على الحائط ـ كل هذا اختفى من امام عينيها • ولكنها كانت تتحسر عليهم جميعا وتتساءل قائلة :

ـ ما الذى يعيشون من اجله ؟

وسألتها امها :

ـ هل تشعرين بالنعاس يا يلينا ؟

ولكنها لم تسمع السؤال ••

وفجاة قال شوبين فى نبرات حادة مخاطبا برزنيف:
تقول انها اشارة لها بعض ما يبررها ؟ فايقظها صوته من حلمها . واستمر شوبين فى حديثه قائلا : ولكن هــذا ما يجعل لها قيمة . فالاشارة التي لها كل ما يبررها تسبب الياس الذى لا تحبذه المسيحية والاشارة التى ليس لها ما يبررها تجعل الانسان لا يعبا بشىء . فاذا قلت مثلا ان يلينا نيكولايفنا تحب احدنا فماذا يكون نوع هــذه الاشارة ؟

فقالت يلينا :

ـ آه ياســيد بول كان بودى ان ابين لك كم انا ضيقة الصدر بهذا الحديث ولكننى لا استطيع فانا منهكة جدا .

فسـالتها انا فاسـيليفنا التى كثيرا ما كان يغلبها النعاس فى المساء فيحملها على دفع الآخرين الى النوم :

ـ ولماذا لا تذهبين للنــوم ؟ حيينى تحية المسـاء واذهبى لتنامى ـ ان اندريا بتروفتش سياذن لك بذلك ..

فقبلت يلينا والدتها وانحنت للجميـــع وخرجت ورافقها شوبين الى الباب . وهمس فى اذنها وهى على عتبة الباب : يا يلينا نيكولايفنار انك تطئين السيد بول بقدميك تدوسين عليه بقسوة ، ورغم ذلك فان السيد بول يعبدك ويعبد قدميك الصغيرتين والحذاء الذى تلبسينه فى قدميك الصغيرتين بل ونعل حذائك .

فهزت يلينا كتفها ومدت له يدها على غير رغبة منها، لم تكن هى اليد التى قبلها انزاروف • وعندما رجعت الى حجرتها خلعت ملابسها وصعدت الى فراشها ونامت نوما عميقا كنوم طفل •

- ٢٠ -

ما ان خرج برزنيف من بيت أنا فاسيليفنا حتى قال له شوبين : تعال معى الى حجرتى لحظةواحدة فان لدى ما اريد ان اطلعك عليه • فذهب برزنيف الى جناح شوبين وفوجىء بكثرة التماثيل والنماذج الملفوفة بخرق مبللة فى كل ركن • فقال لشوبين :

- لابد انك تعمل بمنتهى الجد •

فرد عليه شوبين قائلا :

- لابد لى من شىء ما أعمله • وعندما لا ياتى الشىء كما تريد فلا بد لك من عمل شىء آخر • اننى كالفنان بالكورسيكى - فانا اهتم بالصفات العامة أكثر من اهتمامى بالفن كفن بحت •

فقال له برزنيف :

- زدنى ايضاحا •

فقال له شوبين •

ـ انظر يا صديقي العزيز الى هذا التمثال الذى اسميه « الانتقام رقم ١ » ـ ٠٠ قال ذلك ورفع الغطاء عن احد التماثيل الصغيرة ٠٠ راى برزنيف تمثالا نصفيا جميل الصنع لانزاروف ويشبهه تماما ٠ فقد نجح شوبين في ابراز تقاطيع وجهه فكانت تعبر تعبيرا مدهشا عن الشرف والنبل والرجولة ٠٠

وشعر برزنيف بالسرور ٠٠ وقال لشوبين :

ـ مدهش جدا ٠٠ تهنئتي ٠٠ انه تمثال جدير بان يعرض ٠ ولكن لماذا تسمي هذا العمل الفنى العظيم « بالانتقام » ؟

فقال شوبين :

ـ لانني اريد ان اقدم هذا التمثال الذى قلت عنه انه عمل فني رائع هدية ليلينا نيكولايفنا يوم عيد ميلادها هل فهمت الاشارة ؟

لست اعمى ٠

انني استطيع ان ارى ما يحدث حوله ولكنني رجل مهذب ، كما انني انتقم بطريقة مهذبة ٠٠

اما هذا التمثال الصغير (قالها وهو يرفع الغطاء عن تمثال آخر) فنظرا لأن مقاييس الجمال الحديثة تخول للفنان حق تخليد الشيء الكريه مع تعظيمه الى درجة بدائع الخلق فانني اذ اعظم المخلوق الذى يمثله هذا التمثال الذى سميته رقم ٢ ، فقد انتقمت ولكنني لم انتقم كرجل مهذب ٠

وازال الخرقة وشاهد برزنيف تمثالا آخر لانزاروف نحت على طريقة دانتين وقد ظهرت فيه البراعة الفائقة الى جانب السخرية الشديدة • فقد صور هذا البلغاري ككبش يقف على رجليه الخلفيتين وقد استعد براسه للنطح؛ وقد ارتسمت على وجهه الجدية مختلطة بالغباء والتحدي والعناد والحماقة • ولكن الشبه كان شديدا جدا حتى ان برزنيف انفجر ضاحكا •

وقال شوبين :

ـ مثير • أليس كذلك ؟ لابد انك تعرفت على البطل• هل ترى ان اعرض هذا التمثال أيضا ؟ ساقدمه لنفسى يوم عيد ميلادى • هل تسمح لى بقفزة يا صاحب الفخامة ؟ ثم قفز شوبين قفزتين أو ثلاث • اما برزنيف فانه التقط الخرقة وغطى التمثال الصغير ••

وقال شوبين : برنة حزن وهو يكشف الغطاء عن تمثال ثالث كبير :

ـ والآن سوف ترى شيئا يقنعك بتواضع صديقك ونفاذ بصيرته •

سوف تقتنع انه ـ كفنان اصيل ـ يعرف كيف يدفع نفسه • انظر !!

ونزع الخرقة فظهر امام برزنيف تمثال لراسين وضعا متجاورين وكانهما نبتا معا • ولم يستطع أن يتبين فى بادىء الامر ما يدل عليه التمثال ولكنه عندما دقق النظر

وجد ان احد الراسين هو راس انوشكا والراس الثانى هو راس شوبين · وقد اظهر راس انوشكا على انه راس فتاة ممتلئة ذا جبهة منخفضة وعينين منتفختين وانف قصير وشفتين غليظتين تنفرجان عن ابتسامة مغرية ويرتسم على وجهها تعبير شهوانى مع لمسة خفيفة تدل على طبيعة طيبة· وصور شوبين نفسه كمربيد ضائع له انف مدبب وصدغان غائران وقد تدلت على جبهته خصلة صغيرة من الشعر وبدت عيناه وقد خلتا من البريق ·

وابتعد برزنيف فى اشمئزاز وساله شوبين :

ـ ما رايك فى هذين ؟ الا تستطيع أن تفكر فى اسم يطلق على هذا التمثال ؟ لقد فكرت أنا فى تسميتين للتمثالين الاولين· سيكتب تحت التمثال النصفى: « بطل عقد العزم على انقاذ وطنه » اما التمثال الصغير فسيكتب تحته « احترسوا أيها الطغاة » أما تحت هذا فمن الممكن ان يكتب « مستقبل الفنان بافل شوبين » · ما رايك فى هذا ؟

فقال برزنيف :

ـ كف عن هذا · كيف يمكنك أن تضيع وقتك فى مثل هذا الـ

ولم يستطع ان يجد كلمة ملائمة ·

فقال له شوبين :

ـ هل كنت تنوى أن تقول « الدنس » ؟ دعنى أقول

لك انني لو كنت قد خلقت شيئا يستحق العرض فهو هذا التمثال الاخير للراسين .

فقال برزنيف :

ـ ان « دنس » هي الكلمة الصحيحة . ولكن ما كل هذا العبث ؟ يبدو انك لا تملك البصيرة النافذة للقيام بمثل هذا العمل على عكس فنانينا الذين يتجهون اليه اكثر من اللازم . انك بهذا تلطخ سمعتك .

فقال شوبين :

ـ هل تظن ذلك ؟ انني اذا كنت عديم البصيرة فاللوم في ذلك يقع على شخص ما . هل تعلم انني قد بدأت أعاقر الخمر ..

ـ مستحيل

فقال شوبين :

ـ اقسم على ذلك . ولكنني لم احب الخمر فاني اجد صعوبة في ابتلاعها . كما انني بعد احتسائها اشعر براسي يدور . كذلك فقد صرخ لوشخكين العظيم ـ اعني فارلامبي لوشخكين نفسه وهو اعظم سكير في موسكو بل يقول البعض انه اعظم سكير في روسيا ـ لست سكيرا مدمنا . وهو يقول ان الخمر لا تستهوينى .

ورفع برزنيف قبضته لكى يحطم تمثال الراسين ولكن شوبين منعه وقال له :

ـ لا تفعل هذا أيها الرجل فقد يصلح هذا التمثال اداة للتحذير من عمل شنيع ·

فضحك برزنيف وقال :

ـ حسن سابقى على أداة التحذير هذه لك · وليحيا الفن الحقيقى الخالد ·

فصاح شوبين بدوره قائلا :

ـ ليحيا الفن · فبالفن يبدو الشيء الجيد أكثر جودة اما الشيء الرديء فلا ضرر منه ·

وشد الصديقان كل منهما على يد الآخر مسلما وافترقا ·

- ٢١ -

كان أول ما خامر يلينا عندما استيقظت شعور بخوف لذيذ · وسألت نفسها قائلة : هل هذا ممكن ؟ هل هذا ممكن حقا ؟ كانت تشعر بسعادة جعلت قلبها يكاد يكف عن الدق · وطغت عليها وتملكتها الذكريات ثم غمرها الهدوء مرة أخرى · ولكن القلق استولى عليها من جديد ·· فى الصباح واحست فى الايام التالية بخمول ووحدة · لقد أصبحت الآن تعرف ما تريد ولكن هذا لم ييسر الامور بالنسبة لها · لقد أخرجها ذلك اللقاء الذى لا تنسى عن

طريقها القديم الى الأبد . وطالما انها لم تعد في الطريق القديم بل أمست بعيدة عنه فان كل شيء كان يسير كالمعتاد وكأن شيئا لم يتغير . استمرت الحياة السابقة مع ما ينتظر فيها من يلين من مشاركة وعون . حاولت ان تكتب خطابا لانزاروف ولكنها فشلت كانت الكلمات التي كتبتها لا حياة فيها أو لعلها كانت كاذبة .. وتوقفت عن الكتابة في مفكرتها بعد ان وضعت خطا سميكا تحت آخر جملة فيها . منذ المفكرة كانت ملكا للماضي بينما كانت كل افكارها بل وكيانها كله متجها للمستقبل . كانت تشعر بالأسى . وكانت تتصور أن هناك جريرة في جلوسها الى جوار والدتها التي لم تكن تشك في اي شيء وهي تنصت اليها وتجيب عن اسئلتها وتبادلها الحديث . كانت تحس بالنفاق وتشعر بالخطة رغم انها لم تقترف ذنبا يدعوها الى الخجل. وتملكتها أكثر من مرة رغبة شديدة في أن تطلع والدتها على كل شيء وتريح نفسها ، وليكن ما يكون .

وكانت تقول لنفسها : لماذا لم يأخذني دمتري في الحال من ذلك الكوخ الى حيث يريد ان يأخذني ؟ الم يقل لي انني زوجته أمام الله ؟ وما الذي يبقيني هنا ؟ وبدأت تتجنب الجميع حتى بوفار ايفانوفتش الذي كان في حيرة بالغة وأكثر من ثني أصابعه اكثر من اي وقت مضى . ولم تعد الأشياء حولها تبدو جميلة او مثيرة للاحلام ولكنها كانت تأخذ بخناقها كالكابوس . كانت حملا ثقيلا لا يتزحزح كأنها تؤمنها او تعارضها وترفض ان تكون لها بها أية

علاقة · كانت تبدو وكانها تقول لها : لازلت تنتمين الينا · حتى الشتلات الصغيرة والطيور المهيضة الجناح والحيوانات كانت تنظر اليها ـ أو هكذا خيل لها ـ نظرة خالية من الثقة بل وعدائية · كانت تشعر بالخجل من مشاعرها · وكانت تقول لنفسها : هنا بيتى واسرتى ووطنى · ولكنها كانت تسمع صوتا آخر يردد : كلا لم يعد هذا الوطـن وطنك ولم تعد هذه الاسرة اسرتك وغلبها الخوف وكان خوفها يزهق انفاسها · لقد بدات متاعبها ولكنها كانت فاقدة الصبر ·

واحتاجت الى فترة لكي تسـتجمع قـواها ·· ومر اسبوع واسبوع آخر حتى تمكنت يلينا من استعادة بعض هدونها وتعودت وضعها الجديد كتبت خطابين قصيرين لانزاروف ووضعتهما بنفسـها فى صنـدوق البريد لأنها بدافع من الخجل والكبرياء لم تأمن الخادم عليهما ·· وكانت تتوقع زيارة قريبة من انزاروف ولكن ستاكوف جاء بدلا منه فى صباح احد الايام ·

- ٢٢ -

لم يسبق لأحد فى منزل الضابط المتقاعد ستاكوف ان رآه متجهما ورغم ذلك كان يبدو عليه الاعتداد بالنفس فى ذلك اليوم الى حد كبير · فقد دخل الى حجرة الجلوس

بخطى وئيدة وهو يرتدى معطفه وقبعته . ثم اقترب من المرآه وأخذ يتفرس فى وجهه فى جد وهدوء وهو يهز راسه ويعض على شفتيه . وقابلته أنا فاسيليفنا بانفعال خارجى وسرور خفى . ولم يهتم بان يخلع قبعته او بان يحييها وسمح ليلينا وهو صامت ان تقبل قفازه . وسالته انا فاسيليفنا بعض الأسئلة عن الادوية التى يستعملها ولكنها لم تتلق منه جوابا .. ثم جاء بوفار ايفانوفتش فنظر اليه ستاكوف وقال له :

ـ مرحبا .. كان يعامل بوفار ايفانوفتش ببرود وغطرسة رغم علمه انه كانت تجرى فى عروقه آثار من دماء عائلة ستاكوف ، وكل العائلات الارستقراطية الروسية تعتقد ان لها صفات معينة متوارثة . ودخلت زويا وانحنت لستاكوف الذى جلس على أحد المقاعد وبعد ان طلب فنجانا من القهوة خلع قبعته اخيرا وأخذ ينظر للحاضرين واحدا بعد الآخر ثم أمرهم بالفرنسية : « اخرجوا من فضلكم والتفت الى زوجته وقال لها بالفرنسية :

ـ اما أنت يا سيدتى فارجوك آن تجلسى ..

وخرج الجميع ماعدا أنا فاسيليفنا التى جعل راسها يهتز من الانفعال وقد أدهشتها هيئة الجد والاهتمام فيه . كانت تنتظر منه شيئا غير عادى .. وتساءلت بمجرد ان اغلق الباب ..

ـ ماذا هناك ؟

فنظر ستاكوف اليها بغير اكتراث ثم قال :

ـ ليس هناك شيء ذو اهمية خاصة . ولكن لم تلعبين دائما دور الضحية ؟ لقد اردت فقط ان انبهك الى ان ضيفا جديدا سيحضر لتناول الغذاء معنا .

ـ ومن يكون ؟

ـ يجوز اندريفتس كورنا توفسكى .. انت لا تعرفينه . انه السكرتير الاول فى مجلس الشيوخ ..

ـ وهل سياتى لتناول الغداء ؟

ـ نعم .

ـ وهل امرت الجميع بمغادرة الحجرة لمجرد ان تخبرنى بهذا ؟

وهنا نظر اليها ستاكوف بتهكم واضاف :

ـ وهل يدهشك هذا ؟ هناك مفاجاة اكبر فى الطريق ..

وصمت قليلا والتزمت انا فاسيليفنا هى الاخرى الصمت .. ثم قطعته قائلة :

ـ احب ...

فقاطعها فجاة وقال :

ـ اعرف انك تعتبريننى رجلا لا اخلاق له .

فقالت ماخوذة :

ـ انا ؟

فاستطرد :

ـ قد تكونين على حق ٠٠ انا لا انكر انه كان لديك ، احيانا ، من الأسباب مايبرر تذمرك ٠٠ تذكرت موضوع الحصانين ، ولكنها قالت :

ـ ولكنني لا الومك اطلاقا يا نيكولاى ارتيمفيتش ٠

فقال لها :

ـ ممكن وعلى اى حال فانني لا احاول تبرير سلوكي ولكن الوقت هو الذى سيتكفل بهذه المهمة ٠ اؤكد لك انني أعرف التزاماتي كما انني قادر على رعاية مصالح الأسرة التي انا ربها ٠

فقالت انا فاسيليفنا فى نفسها :

ـ ما الذى يجول بخاطره ؟ لم تكن تعرف ان مناقشة حامية قد قامت في اليوم السابق في أحد اركان احدى الحجرات بالنادى الانجليزى حول عدم قدرة الروس على القاء الخطب حيث قال أحد المتناقشين : من منا يستطيع ان يتكلم ؟ اعطني ، ان استطعت اسما واحدا لا أكثر لشخص يستطيع ان يلقى خطابا ٠٠ فرد عليه شخص آخر قائلا : ما اعتراضك على ستاكوف ؟ وأشار شخص ثالث الى ستاكوف الذى أخذ يعبر عن سروره بشتى الطرق ٠٠

واستمر ستاكوف فى حديثه فقال : لنتحدث عن ابنتي يلينا مثلا ٠٠ الا ترين ان الوقت قد حان لكى تبدأ السير بقدم ثابتة فى طريق الزواج ليس هناك ضرر من

التفلسف ولا من القيام باعمال البر والاحسان ولكن الى حد محدود والى سن معينة · ولكن حل الوقت لكى تخرج من هذا الجو الذى تعيش فيه وتنسحب من صحبه هؤلاء الفنانين والطلبة . وتصبح كغيرها من الناس ·

فسالته انا فاسيليفنا :

ـ ماذا تعنى ؟

فاجاب :

ـ ارجو ان تعطينى الفرصة لانتهى من حديثى ·· اريد ان اخبرك دون لف او دوران اننى تعرفت على شاب اسمه السيد كورناتوفسكى اود أن ازوجه ابنتى · أعتقد انك عندما ترينه سوف لا تتهمينني بالتحيز او التسرع فى الحكم ·· كان ستاكوف معجبا بفصاحته ·· واضاف : لقد تلقى قدرا ممتازا من التعليم ـ فهو محام ، حسن الأخلاق، وقد بلغ الثالثة والثلاثين من عمره ويعمل سكرتيرا اول ، ومستشارا قانونيا كما أنه يحمل وسام سانت ستافيسلاس · اعتقد انك لن تبخلى على بما استحقه من ثناء حين تعترفين أننى لست من الآباء الذين يغضون النظر عن نواحى الامتياز · لقد قلت لى مرة ان يلينا نيكولايفنا تفضل الرجال الذين يتميزون بايجابية رجال الأعمال ولا شك أن يجور اندريفتش رجل ممتاز فى مجاله· كذلك فان ابنتى مهتمة بالأعمال الخيرية ·· لذلك فعندما يصبح يجور اندريفتش رجلا ذا مركز ··· أنت تفهميننى اليس كذلك ؟ ذا مركز يسمح له بان يعيش معتمدا على

ايراده فانه سيتنازل لاخوته عن المساعدات السنوية التى يدفعها له والده ٠

فتساءلت :

ـ وما عمل والده ؟

ـ والده ؟ والده رجـل مشهور أيضـا ويستمتع بصفات خلقية ممتازة ٠ ضابط متقاعد على ما أعتقد وهو يشرف على ادارة كل ممتلكات الكونت « ب » ٠

فقالت أنا فاسيليفنا فى دهشة :

ـ اوه !

قال لها ستاكوف :

ـ اوه ؟ ماذا تعنين بقولك اوه ؟

فقالت انا فاسيليفنا :

ـ ولكننى لم اقل شيئا ٠

ـ كلا ٠٠ لقد قلت « اوه » ٠ لقد رايت على أى حال ان أطلعك على نواياى مقـــدما ٠ وأنا أثق ان السـيد كورناتوفـسكى سوف يستقبل استقبالا وديا ٠

ـ بالطبع ٠٠ يجب ان نخطر فانكا الطباخ بان يعد طبقا اضافيا ٠

ـ انا لا احب ان أتدخل فى هذا ٠

ثم قام ولبس قبعته وخرج الى الحديقة ليتنزه قليلا وهو يصفر بفمه ٠ ونظر اليه شوبين من نافذة حجرته واخرج لسانه ٠٠

وفى الرابعة الا عشر دقائق وقفت عربة امام بيت ستاكوف ونزل منها شاب أنيق يرتدى ملابس بسيطة ولكنها تنم عن ذوق سليم وطلب ان يعلن عن وصوله ٠ كان الزائر هو يجور اندريفتش ٠

وفيما يلى ماكتبته يلينا لانزاروف فى اليوم التالى :

تستطيع ان تهنئنى يا عزيزى دمترى ، فقد تقدم الى احد الخطاب لقد تناول معنا طعام الغذاء بالامس ٠ كان والدى قد التقى به فى النادى الانجليزى على ما اعتقد ٠ لم يحضر بالامس ، طبعا ، على انه خطيب ولكن والدتى التى اسر لها والدى بامله اطلعتنى على السر ٠ اسمه يجور اندريفتش كورناتوفسكى ٠ انه السكرتير الأول فى مجلس الشيوخ ٠ وساصف لك شكله ٠ قصير بعض الشىء ـ فهو اقصر منك ـ قوى البنيان متناسق التقاطيع ذو شعر قصير ٠ عينان صغيرتان (كعينيك) عسليتان وشفتان غليظتان وهناك ابتسامة لا تفارق شفتيه وفى عينيه كانها تؤدى عملا هناك ٠ بسيط يتحدث بوضوح وكل ما فيه متميز : يسير ويضحك وياكل وكانه يعمل ٠ ربما قلت لنفسك « لقد درسته جيدا » ٠ نعم ٠٠ درسته جيدا لكى اتمكن من وصفه لك وعلاوة على ذلك فلابد للانسان ان يعرف خطيبه ٠ وهناك شىء كالحديد فيه ـ شىء كثيب وسطحى ـ يقولون عنه انه مخلص ٠ انت ايضا تشبه الحديد ولكنه شبه مختلف ٠ وقد جلس الى جوارى أثناء الغداء وجلس شوبين فى مواجهتنا ٠ وجرى الحديث فى

اول الأمر حول المشروعات التجارية واعتقد انه يعرف الكثير عنها ، لقد ترك العمل في الوظائف الحكومية ليدير مصنعا كبيرا • ثم تطرق السيد شوبين بعد ذلك بالحديث الى ذكر المسرح • وصرح المستر كورناتوفسكي •• دون تواضع مفتعل ـ ان الفن بالنسبة له يعتبر كتابا مغلقا • وذكرني ذلك بك ولكنني قلت لنفسي « دمترى وانا نجهـــل الفن ولكن على نحو آخر » كان هذا الرجل يبدو وكأنه يقول : انني لا اعرف شيئا عن الفن وهو شيء لا لزوم له ، ولكن من الممكن أن يسمح به في دولة جيدة التنظيم • وعلى كل يبدو انه لا يفكر كثيرا في بطرسبرج بل لقد وصف نفسه بانه بروليتارى فقال : نحن لسنا أكثر من عمال • وقلت لنفسي : لو أن دمترى قال ذلك لما أعجبني ولكنني لا أهتم بما يقوله هذا الرجل ولا يهمني أن يتباهى بنفسه • كان مجاملا الى حد كبير ولكنني كنت أشعر رغم ذلك ان محدثي شخص مترفع • وعندما يريد أن يمتدح شخصا فانه يقول ان فلانا « له مبادىء » وهي جملة من جمله المفضلة • واثق من نفسه ، كثير الانتاج ، فيمــا يبدو ، ولديه مقدرة على التضحية أى التضحية بمصالحه الخاصة ولكنه طاغية كبير • ولا شك ان من الأمور السيئة جدا أن يقع الانسان بين يديه • وقد تطرق الحديث أثناء الغداء عن الرشوة فقال :

ـ اعتقد أن المرتشي غير ملوم في كثير من الحالات لانه ليس في وسعه ان يفعل غير ذلك •• ورغم ذلك فانه اذا قبض عليه متلبسا فلابد أن يسحق •

فصدرت عنى صرخة ·· وقلت :

ـ يسحق ·· وهو البرىء !

فقال :

ـ نعم ·· تمشيا مع المبدأ ·

فقال له شوبين :

ـ اى مبدأ ؟

وهنا اعترى كورناتوفسكى شىء من الدهشة ··

فقال :

ـ ليس هناك ما يدعو لتوضيح هذا ·

وهنا قال ابى الذى كان يشعر نحوه باحترام شديد انه يعتقد فعلا انه لا لزوم لذلك وصرف النظر عن الموضوع· وفى المساء حضر برزنيف واثار معه مناقشة رهيبة · لم ار فى حياتى أندريا بتروفتش ثائراً بهذا الشكل · ولم ينكر السيدكورناتوفسكى اهميةالعلوم والجامعاتوفائدتها ولكننى كنت أعرف السبب فى ثورة السيد أندريا بتروفتش فان الآخر كان يعتبرها شيئا كماليا · وقد جاء لى شوبين بعد الغداء ·· وقال : هذا الرجل والرجل الآخر (انه لا يتحمل ان يذكر اسـمك) كلاهما رجل عملى ولكنهما مختلفان · فالعمل بالنسبة لأحدهما مثل اعلى وأصيل تمده به الحياة نفسها بينما هو بالنسبة لهذا الرجل أمر يتوقف على أمانة الموظف · انه كفاءة بلا روح ·

ان شوبين لماح ذكى وقد ذكرت لك ما قاله ولكننى

في الحقيقة لا اظن ان هناك اى تشابه بينكما • فانت تؤمن اما هو فلا يؤمن ، والانسان لا يجب أن يؤمن بنفسه فقط• وقد غادرنا الزائر في ساعه متاخره وحاولت والدتي ان تفهمني انه أعجب بي وان ابي مسرور بذلك ولا ادرى ان كان قد قال عني انا الاخرى انني ذات مبادىء • وقد هممت بان اقول لوالدتي انني اسفه لان لدى زوجا بالفعل • لا أدرى لماذا لا يحبك والدى • أما والدتي فمن الممكن اقناعها بطريقة أو باخرى •

لقد وصفت لك ياعزيزى هذا الرجل بهذه التفاصيل لكي أتغلب على حزني • لا حياة لي بدونك وأنا أراك واسمعك دائما • انني في انتظارك ولكن ليس في هذا المنزل كما اقترحت ـ ويمكنك ان تتخيل مدى ما يسببه هذا لنا من صعوبة وألم ـ ولكن في ذلك المكان الذى كتبت لك عنه ـ ذلك الكوخ • ياعزيزى ، كم احبك ••

- ٢٣ -

بعد ثلاثة أسابيع من زيارة كورنا توفسكي الاولى عادت انا فاسيليفنا الى موسكو • الى بيتها الخشبى الكبير بالقرب من شارع بريتشيستينكا وهو بيت ذو أعمدة تعلو نوافذه الازهار وبه حجرة صغيرة فوق السطح واستراحات • وحديقة أزهار وفناء كبير زرعت فيه الاشجار وبئر في

الفناء الخارجي وكوخ للكلب بالقرب من البئر • لم يحدث ان عادت انا فاسيليفنا الى المدينة بهذه السرعة • ولكن برد الخريف اصابها بوعكة صحية • وقد افتقد ستاكوف زوجته بعد أن انتهى من العلاج لا سيما وان اوجاسينا كريستيانوفاكانت قد رحلت الى ريفال لزيارة بعض اقاربها • وكانت قد وصلت الى موسكو فرقة اجنبية قدمت عروضا مثيرة أثار وصفها في الصحف حب استطلاع انا فاسيليفنا • وباختصار فان البقاء في الريف اكثر من ذلك لم يعد مرغوبا فيه ولم يعد يتفق مع ما أطلق عليه ستاكوف وصف «مشروعاته» • احست يلينا ان الاسبوعين الاخيرين كانا طويلين جدا • وقد زارهم كورنا توفسكي مرتين في يومين من ايام الآحاد لانشغاله باقي الايام • ومع انه كان ياتي لزيارة يلينا الا أن معظم حديثه كان مع زويا التي اعجبت به كثيرا •

كانت زويا على ثقة ـ انه ليس هناك من له صوت كصوته الرائع وهو يتحدث •

اما انزاروف فانه لم يذهب لزيارة عائلة ستاكوف ولكن يلينا قابلته خفية في كهف صغير يطل على النهر ولم يسمح لهما الوقت الا بتبادل بضع كلمات • وقد عاد شوبين الى موسكو مع انا فاسيليفنا ثم تبعهم برزنيف بعد بضعة أيام •

كان انزاروف يجلس في حجرته وهو يقرأ للمرة

الثـــالثة خطابات وصلته من بلغـــاريا مع بعض الرسل العابرين حيث انه لم يكن من المرغوب فيه استعمال البريد. وازعجته الخطابات فقد تحولت الاحداث في الشرق تحولا سريعا . كان احتلال القوات الروسية لمقاطعة الدانوب قد سبب قلقا عاما وكانت العاصفة تتجمع كما اصبحت الحرب وشيكة الوقوع . كانت الحرائق تندلع في كل مكان ولم يكن هناك من له القدرة على تعرف الاتجاه الذى ستتخذه النيران ولا الى أين ستنتهي وظهرت الاحقـاد القديمة كمـا ظهرت الآمال القديمة مرة اخرى . واخـــذ قلب انزاروف يدق بعنف متزايد . ان آماله في طريق التحقيـق ولكنه تساءل في قلق : الم يزل الوقت مبكرا ؟ وما الذى يحدث اذا فشلت الخطة ؟ اننـــا لم نستعد بعـــد . ولكن ليكن ما يكون . لا بد أن اذهب . ثم سمع وقع اقدام في الممر وفتـح الباب ودخلت يلينــــا فاندفع اليها انزاروف وقد اخذته رعشة من راسه الى قدميه . وركع على ركبتيه امامها ولف ذراعيه حول وسطها وضغط براسه على جسدها .

وقالت له وهي تلهث : .

ـ لم تكن تتوقع مجيئي اليس كذلك ؟ ثم وهي تضع يديها على راسه وتنظر حولها : هذا اذن مسكنك ياعزيزى! لم اجد صعوبة في الاستدلال عليك فقد دلتنى ابنة صاحب البيت على الطريق . لقد عدنا منذ أيام وفكرت في الكتابة اليـــك ولكننى غيرت رايى وفضلت أن احضر لرؤيتك .

لا استطيع البقاء اكثر من ربع ساعة انهض واغلق الباب بالمفتاح • فقام واغلق الباب بخفة ثم عاد اليها وامسك يديها ولكنه لم يستطع أن يتحدث من فرط ما غمره من سرور •

ونظرت الى عينيه وهى تبتسم وراتهما تفيضان بالسعادة •• فقالت له بلطف وهى تسحب يديها :

ــ انتظر • دعنى أخلع قبعتى ••

وفكت شرائط قبعتها والقت بها بعيدا كما نزعت الشال الذى كان يغطى كتفيها وجلست على الاريكة الصغيرة • ولم يتحرك انزاروف بل اخذ ينظر اليها ماخوذا•

فقالت له وهى تشير الى المكان المجاور لها ولكن دون ان تنظر اليه : اجلس ••

وبدلا من أن يجلس على الاريكة جلس على الارض عند قدميها •

وقالت له بصوت مرتعش وقد بدات تشعر بالخوف :

ــ انزع عنى هذا القفاز •

ففك أزرار القفاز وبدأ ينزعه • وعندما تبدت اصابعها الصق شفتيه باليد الرقيقة ••

ففزعت يلينا وحاولت أن تبعده عنها برفق بيدها الاخرى ، ولكنه بدأ يقبلها • فسحبتها يلينا ثم القى هو براسه الى الخلف ، ونظرت هى فى وجهه وانحنت الى الامام

والتقت شفتاهما .. ومضت لحظة ثم ابتعـــدت عنه وهى تهمس قائلة : كلا ! كلا ! ثم اتجهت بسرعة الى المـائدة وقالت :

ـ انا سيدة هذا المكان ـ اليس كذلك ؟ يجب الا تخفى عنى أى شىء .

ثم أدارت له ظهرها .. وقالت :

ـ ما أكثر الاوراق التى لديك . وما هذه الخطابات ؟

فقطب انزاروف ما بين حاجبيه وقال وهو ينهض :

ـ الخطابات ؟ تستطيعين قراءتها .

فقلبتها يلينا فى يديها ثم قالت :

ـ انها كثيرة جدا كما انها مكتوبة بخط بالغ الدقة لا بد أن أنصرف سريعا . سأترك هذه الخطابات وأرجو الا تكون قد تلقيتها من منافسة لى . لم لا اراها مكتوبة باللغة الروسية ؟

واقترب منهـــا انزاروف ومس خصرها فاستدارت بسرعة وابتسمت له ابتسامة تفيض بالسعادة واتكأت على كتفه .

قال لها :

ـ هذه الخطابات من بلغـاريا يايلينا .. أصدقائى يستدعوننى .

ـ يستدعونك الآن ؟

ـ نعم الآن ولا يزال هناك متسع من الوقت والطريق لا يزال مفتوحا ٠

وفجاة القت ذراعيها حول عنقه وقالت :

ـ ستاخذني معك اليس كذلك ؟

فضمها الى صدره ٠٠ قائلا :

ـ يا فتاتي الرائعة ٠ يابطلي ٠ ما احلى هذه الكلمات التي خرجت من ثغرك ٠ ولكن اليس من الاجرام ومن الجنون ان اجرك وأنا رجل ضال وحيد ـ معي الى مكان كهذا ٠

فاغلقت فمه بيدها وقالت :

ـ صه ! والا ساغضب منك ولا اعود ٠ الم نتفق ؟ الم نسو كل شيء بيننا ؟ ألست زوجتك ؟ وهل هناك زوجة تتخلف عن زوجها ؟

فقال لها :

ـ الزوجات لا يذهبن للاشتراك في الحرب ٠

ـ هذا اذا كان من الممكن أن يبقين في البيت ٠ ولكن كيف استطيع البقاء هنا ؟

ـ انت ملاك يايلينا ٠ ولكن يجب الا تنسى أنني قد اضطر لمغادرة موسكو ـ خلال اسبوعين ٠ ان حضور المحاضرات في الجامعة او انهاء مهمتي هنا اصبحت اشياء لا مجال للحديث فيها الآن ٠٠

فقاطعته يلينا قائلة :

ـ تقول انك لا بد أن ترحل سريعا هل تريدني أن ابقى معك من هذه اللحظة والى الابد والا أعود لبيتي ابدا؟ لنســـافر الان اذا أردت فضمها انزاروف الى صدره وقال لها :

ـ ليعـــاقبني الله اذا ارتكبت معصية ٠ ومنذ الآن فنحن مرتبطان الى الابد ٠

وسالت يلينا :

ـ هل ابقى ؟

فقال :

ـ كلا يا فتاتي الطاهرة ٠ لابد ان تعودى الى البيت٠ ولكن كونى على اســـتعداد ٠ لن نســـتطيع تسوية هذا الموضوع بهذه السرعة بل لا بد لنا ان نفكر فى كل شيء ونحن نحتاج لجوازات سفر ولنقود ٠٠

قالت يلينا :

ـ لدى بعض النقود ٠ ثمانون روبلا ٠٠

فقال انزاروف :

ـ هذا ليس مبلغا كبيرا على أن من الممكن تدبير امر النقود ٠

ـ انني استطيع الحصول على قدر أكبر من المال ٠ ويمكنني ان اقترض او ان اطلب من والدتي بعض المال ٠ كلا لن اطلب منها شيئا ولكنني استطيع ان أبيع ساعتي٠ كما ان عندى قرطا وسوارين وأشياء أخرى ثمينة ٠

ـ النقود ليست هى المشكلة يايلينا •• المشكلة فى جواز سفرك •

ـ صحيح • ولـكن أمن الممكن بالنسبة لى الاستغناء عن جواز السفر ؟

ـ كلا بالطبع •

فضحكت يلينا وقالت : تذكرت شيئا • فعندما كنت فتـــاة صغـــيرة هربت خادمتنا ولكن أمكن القبض عليها وصفحنا عنها ، وعاشت معنا لفترة طويلة بعد ذلك • رغم هذا كنا نطلق عليها اسم تاتيانا الهاربة ولم يخطر لى فى ذلك الوقت أننى قـــد آكون انا الاخرى هاربة مثلها ذات يوم •

ـ الا تشعرين بالخجل من نفسك يا يلينا ؟

ـ ولماذا أخجل من نفسى ؟ لا شك انه من الأفضل ان يكون لدى جواز سفر • ولكن اذا لم استطع الحصول على جواز ••

فقال :

ـ سنهتم بهذه المسالة فيما بعد • اعطنى فرصة لكى ادرس الموقف وافكر فى الموضوع • سوف نناقش كل شىء بالتفصيل اما فيما يختص بالنقـود فان لدى بعض المال •

وهنا رفعت يلينـا خصلة الشـعر التى تدلت على جبهته ثم قالت له :

ـ أوه يا دمترى ! ستكون متعة أن نسافر معا ٠

فقال انزاروف :

ـ نعم ولكن عندما نصل هناك ـ

فقاطعته يلينا قائلة :

ـ الا يكون موتنا معا هو الآخر متعة ؟ ولكن لماذا نتحدث عن الموت ؟ سنعيش ، فنحن لا نزال فى شرخ الشباب ٠ كم عمرك ؟ الست فى السادسة والعشرين ؟

ـ نعم ٠

ـ اننى فى العشرين ٠ ولا يزال امامنا وقت طويل ٠ كنت تريد أن تهرب منى أيها البلغارى ٠ لم تكن تريد حبيبة روسية ٠ والآن أرنى كيف تستطيع أن تتخلص منى ٠ ولكن ما الذى كان سيحل بنا لو لم أخرج لمقابلتك فى ذلك اليوم ؟

ـ هل تعلمين ما الذى جعلنى اتركك ؟

ـ نعم ٠ كنت خائفا من حبيبتك ٠ ولكن الم يكن لديك احساس انها هى الاخرى تحبك ؟

ـ كلا واقسم على هذا بشرفى ٠

فقبلته قبلة خاطفة على غير انتظار وقالت :

ـ هذا هو ما جعلنى احبك ٠ والآن الى اللقاء ٠٠

فقال لها انزاروف :

ـ الا تستطيعين البقاء أكثر من ذلك ؟

ـ كلا يا عزيزى • هــل تعتقد ان خروجي بمفردي كان أمرا سهلا ؟ لقد انقضى ربع الساعة منذ مدة • ثـم وضعت شالها على كتفيها ولبست قبعتها وقالت له :

ـ تعال لزيارتنا مساء الغد ـ أو لعـل الافضل ان تحضر بعد غد • ستكون زيارة ثقيلة لا بهجة فيها ولكننا على الاقل سنرى احدنا الآخر • والآن الى اللقـــاء ودعنى أخرج • واحتواها بين ذراعيه مرة اخيرة •• فقالت له : لقد قطعت عقدي ياعزيزى ولكن لا يهمك فهذا أحسن لانني ساذهب الى كوزنتسكي لاصلاحه • واذا سالونى اين كنت فساقول انني ذهبت اليه لاصلاح العقد • ثم مدت يدها وامسكت مقبض الباب وقالت :

ـ نسيت أن اخبرك ان الســيد كورناتوفسكى قد ياتى قريبا ليطلب يدى ولكنه لن ينال مايريد • الى اللقاء•• اننى الآن أعرف الطريق لا تضيع وقتك •

ثم فتحت يلينا الباب قليلا وانصتت ثم التفتت الى انزاروف وحيته برأسها وانسلت خارجة ••

ووقف هو امام الباب المغلق لحظة وهو ينصت حتى سمع الباب الخارجي يغلق فسار عائدا الى الاريكة وجلس وغطى عينيه بيديه • انه لم يمر بمثل هذه التجربة طوال حيــاته • وقال لنفسه : ما الذى فعلته انا لاستحق هذا الحب ؟ او لعلى فى حلم ؟

ولكن رائحـة عطر الياسمين الذى تركته يلينـا فى

حجرته الصــــغيرة المعتمة ظلت تذكره بزيارتهـا وبصوتها الرقيـــق وبخطواتها الوئيــــدة وبدفء جســدها الشاب ونضرته ٠

- ٢٤ -

قــرر انزاروف أن ينتظر حتى يحصل على معلومات أكثر دقة ، ولكنه كان في نفس الوقت يعد العدة للرحيل٠ لم يكن شيء يقف في طريقه فما كان عليه الا ان يقدم طلبا للحصول على جواز سفر ولكن ماذا يفعل بخصوص يلينا ؟ كان من المتعـــــذر الحصول لهـا على جواز سفر بالطريقة القانونية : وسأل نفسه : هل يتزوجها في السر ثم يذهب الى والديها وهل سيصرحان لنـا بالسفر ؟ ولكن ما الذى يحدث اذا لم يصرحا ؟ سنسافر رغم ذلك ٠ ولكنهما قـد يقدمان شكوى للسلطات٠٠ من الافضل أن أحاول الحصول على جواز سفر بطريقة او أخرى ٠

وقــــرر أن يستشير أحد معـــارفه ، وهو من رجال القانون المتقـــاعدين وخبير بمثل هذه المسائل ودون ذكر اسماء ٠ كان هذا الرجل يعيش في منطقة بعيدة استغرق وصول انزاروف اليها ساعة كاملة ٠ ولكنه لم يجده في بيته ٠ تعرض انزاروف عند عودته لمطر غزير بلل ملابسه٠ وكرر نفس المحاولة في اليوم التـالى رغم شعوره بصداع

شديد وتمكن من مقابلة الرجل الذى انصت اليه باهتمام وكان ينظر اليه من ان لاخر بعينين صـغيرتين ماكرتين . وبعد أن استمع اليه جيدا طلب منه تفاصيل اكثر . ولكنه لما لمس عدم استعداد انزاروف للادلاء باية تفاصيل نصحه بان يتزود بقدر كبير من المال ويحضر لزيارته مرة اخرى عندما يكون « اكثر ثقه واقل شكا » اما جواز السفر فقد قال عنه انه شىء من صنع الانسان . ثم قال لنفرض ان هناك سيدة مسافرة فمن الذى يستطيع ان يعرف ما اذا كانت هى ماريا بريد كينا أو كارولين فوجلمير . وشعر انزاروف بالاشمئزاز ولكنه شكر الرجل ووعده بالعودة خلال يومين .

وزار انزاروف بيت ستاكوف فى هذا المساء . ورحبت به انا فاسيليفنا ولكنها عاتبته لانه نسيهم . ولما رات وجهه شاحبا سالته عن صحته . اما ستاكوف فلم ينبس بكلمة بل ظل ينظر اليه فى شىء من التعجب . وأما شوبين فلم يعبأ به . ولكن يلينا أدهشته . كانت فى انتظاره وقد ارتدت من اجله ذلك الرداء الذى كانت ترتديه يوم أن تقابلا فى الكوخ ولكنها حيته باتزان كما اظهرت ظرفا ومرحا ولم يكن أحد يشك ان مصيرها قد تحدد وان الحيوية التى اكتسبت بها ملامحها والخفة والسحر البادين فى كل حركاتها كانت كلها نتيجة لاحساس خفى بالحب السعيد . وقامت يلينا بتوزيع الشاى بدلا من زويا . كانت تضحك وتتحدث . وكانت تعلم ان شوبين يراقبها وان

برزنيف لايمكنه أن يتظاهر بعدم الاهتمام . وكان تخمينها صحيحا فقد ظل شوبين يراقبها بينما كان برزنيف منحرف المزاج قليل الكلام طوال المساء . وكانت يلينا فى حالة من السعادة جعلتها تفكر فترة فى مداعبته . فسالته فجاة :

ـ ما الذى حدث لمشروعك؟ هل احرزت فيه اى تقدم؟

ففوجىء انزاروف وقال :

ـ اى مشروع ؟؟

فقالت وهى تضحك فى وجهه ضحكة من ضحكاتها التى لم يكن يعرف معناها الا هو ..

ـ اعنى كتاب القراءة الذى تنوى عمله باللغة البلغارية للروس .

فتمتم قائلا بالفرنسية :

ـ يالها من دعابة !

وجلست زويا أمام البيانو . واشارت يلينا الى الباب بعينيهـا تطلب الى انزاروف ان ينصرف . ثم دقت على المنضدة . دقتين خفيفتين باصبعها ونظرت اليه ففهم انها تسعى للقائه بعد يومين وابتسمت عندما تبينت انه فهم . ونهض انزاروف لكى يخرج متذرعا ببعض التعب . وهنا حضر كورنا توفسكى ، فقفز ستاكوف من مكانه وصافحه باحترام بالغ . ورأى انزاروف أن يبقى بضع لحظات ليرى غريمه . ولم ير صاحب المنزل ما يستدعى تقـديم

الرجلين احدهما للآخر وخرج انزاروف بعد أن تبادل نظرة أخيرة مع يلينا · وجلس شوبين يفكر برهة ثم بدأ مناقشة عنيفة مع كورنا توفسكى حول مشكلة قانونية لا يعرف عنها شيئا ·

لم ينق انزاروف النوم فى تلك الليلة واحس بالتعب فى الصباح ·· ورغم ذلك فقد جعل ينظم أوراقه ثم كتب عددا من الخطابات رغم انه كان يشعر بثقل فى رأسه وبشىء من الاضطراب ·

وعندما حلت الظهيرة كانت الحمى قد تملكته فلم يستطع أن يتناول الطعام · وباقتراب الليل زادت حالته سوءا كما هاجمته الام روماتزمية بعنف · فضـــلا عن الصداع الذى لا يطـاق · ورقــد على الأريكة حيث كانت يلينا تجلس منذ يومين وقال لنفسه : اننى أستحق هذا فقد اخطأت بالذهاب الى ذلك الأفاق · وحاول أن ينـــام ولكن دون جدوى ·· أخذت عروقه تدق بشدة وكاد الدم يغلى فى عروقه وفى غمرة من الأفكار غير المستقرة فقد وعيه · كان يرقد مســـتلقيا على ظهره وكأنه تحت ثقل كبير · وخيل اليه انه يسمع شخصا يضحك ويهمس فوق رأسه ففتح فينيه ولكن ضوء الشمعة اذى عينيه · خيل اليه انه يرى رجل القانون العجوز فى رداء حريرى كما رآه فى اليوم السابق وهو يقول : « كارولين فوجلمير » · وعندما دقق انزاروف النظر فيه أخذ الرجـل ينتفخ ثم

تحول الى شـجرة حيل اليه أنه يتسلق جذعها المائل . وتسلقها وهو يمسك بفروعها ولكنه سقط وارتطم صدره بصخرة على الأرض ، بينمـا كانت كارولين فوجلمير فى شكل بائعة فى السـوق تجلس على الأرض وهى تقول : فطائر ! فطائر ! فطائر ! ثم اندفع الدم الى راسـه ورأى وميضا امـام عينيه وصـاع قائلا : يلينا ـ ثم غاب عن وعيه .

-٢٥-

فى مساء اليوم التالى جاء خادم برزنيف لسـيدة وقال له :

ـ بالباب شـخص يبدو عليه مظهر الحداد يريد مقابلتك .

فقال له برزنيف .

ـ دعه يدخل .

ودخل الرجل وعرف برزنيف انه صاحب الحجزة التى يسكنها انزاروف ..

فساله برزنيف .

ـ ماذا وراءك ؟

فقال الرجل وهو يتحدث ببطء وينقل ثقله من قدم الى اخرى ويحرك يده اليمنى :

- لابد ان اتحدث اليك يا سيدى • انني لا ادرى ما الذى حل بالساكن الذى يسكن عندى - انه مريض جدا •

- تعنى انزاروف ؟

- نعم يا سيدى • فقد ظل مستيقظا طوال الليل حتى الصباح وعند المساء طلب كوبا من الماء وقد اعطته زوجتى الماء ولكنه بدأ يهذى فى الليل وكنا نسمع هذيانه• اما هذا الصباح فقد كف تماما عن الكلام ورقد بلا حراك وقد ارتفعت درجة حرارته كثيرا • فقلت لنفسى ان هذا الرجل قد يموت فى اى لحظة ومن الافضل اخطار البوليس لانه وحيد • ولكن زوجتى طلبت منى ان احضر اليك لاخطارك فحضرت اليك يا سيدى لاننا لا نستطيع — •

فخطف برزنيف قبعته ووضع روبلا فى يد الرجل واسرعا سويا الى حجرة انزاروف •

ووجدا انزاروف فاقد الوعى راقدا ببدلته على الاريكة وقد تغير وجهه تغيرا كبيرا فطلب برزنيف الى الرجل وزوجته ان يخلعا ملابس انزاروف ويحملاه الى فراشه واسرع هو بالخروج لاحضار الطبيب الذى جاء ووصف له العلاج اللازم •

ساله برزنيف :

ـ هل الحالة سيئة ؟

ـ فاجاب الطبيب : نعم ، سيئة جدا • انه مصاب بالتهاب رئوى حاد وقد يؤثر هذا على عقله • وقد ارسلتم فى استدعائى متاخرين ولكننى سافعل كل ما فى مقدورى •

وبقى برزنيف الى جواره طول الليل • واظهر صاحب البيت وزوجته كثيرا من الطيبة والاستعداد لمد يد العون •

استرد انزاروف وعيه فى الصباح بضع دقائق • وتعرف على برزنيف وساله قائلا : انا مريض ، اليس كذلك ؟ ونظر حوله نظرات زائغة ثم راح فى غيبوبة • وعاد برزنيف الى بيته واغتسل ثم اخذ معه بعض الكتب وعاد الى حجرة انزاروف • وقرر ان يبقى فيها بصفه مؤقتة على الأقل • وامر بان يوضع ستار حول فراش انزاروف واعد لنفسه مكانا على الأريكة • واخذت الساعات تمر بطيئة مملة • ولم يخرج برزنيف الا مرة واحدة ليتناول بعض الطعام • وعندما حل المساء اضاء شمعة وبدا يقرأ • كان كل شيء هادئا فى الحجرة • وكان يسمع من خلف الستار انفاس انزاروف ثقيلة تتخللها من آن لآخر انات متقطعة • وكانت تتوالى فى راس برزنيف افكار غريبة • فقد كان فى حجرة رجل علقت حياته بخيط رفيع وكان موضع حب يلينا • تذكر تلك الليلة التى لحق به فيها

شوبيف واخبره انها تحب انزاروف ثم سأل نفسه : والآن ماذا أفعل ؟ هل اخطر يلينا بمرضه أو انتظر ؟ هذا الخبر أسوأ من الخبر الذى نقلته اليها ذلك اليوم . ما اغرب هذا القدر الذى يضمنى بينهما .

وقرر اخيرا ان ينتظر . ووقع بصره على اكوام الأوراق المكدسة على مكتبه ، فتساءل : هل سيتمكن من تنفيذ مشروعاته ؟ ارجو الا تكون هذه نهاية كل شئ . وشعر بالأسف نحو هذا الشاب وقرر أن يفعل كل ما يستطيع لانقاذه .

وجاء الليل ثقيلا وكان المريض يهذى . واستيقظ برزنيف عدة مرات وكان يسير على اطراف أصابعه الى فراش انزاروف ويستمع الى هذيانه قال انزاروف ذات مرة بوضوح غير منتظر : اننى لا اريده ... لا اريده ... لاتفعل .

ونظر برزنيف بقلق الى انزاروف الذى تقلص وجهه من الالم . وكانت يداه ممدودتين على الفراش بلا حراك . ثم قال مرة أخرى : لا اريده .

وفى الصباح حضر الطبيب مرة أخرى ونظر الى المريض وهز رأسه ووصف دواء جديدا . ثم قال وهو يضع قبعته على رأسه وينصرف : لا يزال هناك وقت طويل حتى تنتهى الازمة .

ثم ساله برزنيف :

ـ وماذا بعد الأزمة ؟

ـ بعد الأزمة ، اما كل شيء او لا شيء ·

وخرج الطبيب · واخذ برزنيف ، وقد احس بالحاجة لبعض الهواء المنعش ، يسير فى الطريق جيئة وذهابا بعض الوقت ثم عاد الى الحجرة واستأنف القراءة · كان قد انتهى من قراءة رومير من وقت طويل واخذ يدرس جروت·

وفجاة فتح الباب بهدوء واطلت منه ابنة صاحب المنزل بحذر ، وقالت لقد حضرت تلك الفتاة التى اعطتنى بعض النقود منذ بضعة ايام ··

وتراجعت البنت ودخلت يلينا ··

فقفز برزنيف وكان قد لدغته عقرب ولكن يلينا لم تتحرك ولم تصرخ ويبدو انها فهمت كل شيء بسرعة · وعلا وجهها شحوب غريب وسارت ناحية الفراش ونظرت خلف الستار وكانت على وشك أن تندفع الى انزاروف ولكن برزنيف حال بينها وبينه · وسالها فى همس : ماذا تريدين أن تفعل ؟ انك قد تقضين عليه ·· وترنحت ولكنه صحبها الى الاريكة واجلسها ··

فحملقت فى وجهه ثم نظرت الى الأرض وقالت له :

ـ هل هو يحتضر ؟

فقال لها :

ـ بحق السماوات يا يلينا كيف تقولين هذا ؟

انه مريض ومرضه خطير ولكننا سننقذه · انا على ثقة من اننا سننقذه ··

فسالته :

هل هو فاقد الوعى ؟

ـ نعم ·· بصفة مؤقتة ، فان هذا المرض يبدأ دائما هكذا ، ولكن هذا لا يعني شيئا ، صدقيني · خذى هذا الكوب من الماء واشربى · فرفعت عينيها وتنبه الى انها لم تسمعه ··

ثم قالت له بنفس الصوت الهادىء :

ـ اذا مات فساموت انا أيضا ·

واصدر انزاروف انينا خافتا فارتعشت يلنا وامسكت راسها بيديها ثم بدات تفك شرائط قبعتها ·

وسالها برزنيف :

ـ ماذا تفعلين ؟

ـ سابقى هنا ·

ـ الى متى ؟

ـ لا ادرى · ربما ابقى حتى المساء أو حتى الصباح أو ربما الى الابد ـ لا ادرى ··

ـ ارجو يا يلينا نيكولايفنا أن تفكرى فيما انت مقدمة عليه • انا طبعا لم اكن اتوقع أن اراك هنا • ولكننى اعتقد انك حضرت لزيارة قصيرة • ولا تنسى انهم قد يفتقدونك فى البيت •

ـ وماذا فى ذلك ؟

ـ سيبدءون فى البحث عنك وسيعثرون عليك •

ـ وماذا فى ذلك ؟

ـ الا ترين يا يلينا نيكولايفنا انه لا يستطيع حمايتك الآن •

فطاطات راسها كانها قد استغرقت فى تفكير عميق، ووضعت منديلهاعلى شفتيها ثم انفجرت فى البكاء بشدة والقت بنفسها على الاريكة ووجهها لأسفل وهى تحاول ان تكتم صوت بكائها •• ولكن جسدها كان يهتز كله •

فقال لها برزنيف وهو يقف الى جوارها :

ـ استحلفك بالله يا يلينا نيكولايفنا •

وفجاة تردد صوت انزاروف وهو يقول : آه •• ما هذا ؟

فاعتدلت يلينا ووقف برزنيف جامدا ولكنه بعد لحظة اقترب من الفراش ورأى انزاروف يرقد كما كان وعيناه مغلقتان ••

وهمست يلينا قائلة :

ـ هل هو يهذى ؟

فاجابها برزنيف قائلا :

ـ اعتقـد ولكن هذا لا يهم فهذا ما يحـدث دائما وخاصة اذا ...

فقاطعته يلينا قائلة :

ـ ومتى مرض ؟

ـ أول أمس ، وقد جئت الى هنا امس ولك أن تعتمدى على يا يلينا نيكولايفنا . سـوف لا اتركه لحظة واحدة وسافعل المستحيل لمساعدته ساجمع الأطباء له فى مجلس استشارى اذا لزم الأمر ..

فقالت له :

ـ قد يموت وانا غير موجودة .

ـ اعد بان أحيطك علما بحالته يوميا واذا وجدت أن هناك خطرا حقيقيا ـ

ـ اقسم ان ترسل فى طلبى فى أى وقت فى الليل أو فى النهار .

ويمكنك ان تكتب لى مباشرة فلم يعد هناك ما يهمنى الآن . هل تعدنى أن تفعل .

ـ أعدك . وليساعدنى الله .

ـ اقسم ٠

ـ اقسم ٠

وفجاة امسكت بيده وقبل أن يتمكن من ان يسحبها قبلتها ٠

فقال ماخوذا :

ـ كيف تفعلين هذا يا يلينا نيكولايفنا ؟

ـ كلا ! كلا ! لا تفعل هذا ثم سحب يده وتنهد تنهيدة حزينة ٠

وتقدمت يلينا من الستار وهى تعض على منديلها ونظرت الى المريض طويلا والدموع تنهمر من عينيها ٠٠

فقال لها برزنيف ٠

ـ قد يفيق ويعرفك ولا يعرف الا الله ان كان هذا فى صالحه أم لا ٠

وعلاوة على ذلك فان الطبيب على وشك الوصول فى اى لحظة ٠

فالتقطت يلينا قبعتها من فوق الأريكة ولبستها ، واخذت عيناها تتحولان فى الحجرة بنظرات زائغة وهى نهبة للافكار ٠ واخيرا قالت :

ـ لا استطيع ان اذهب ٠

فضغط برزنيف على يدها وقال لها :

ـ تشجعي وحدثي من روعك • أنك تتركينه في رعايتي وسأزورك مساء اليوم •

فنظرت اليه مليا وقالت :

ـ يا لك من صديق رائع •

ثم خرجت وهي تبكي ••

واتكأ برزنيف على الباب وقد اعتصر قلبه احساس بالحزن والمرارة وان لم يخل من بعض الراحة • وفكر فيما قالته « يا لك من صديق رائع » ثم هز كتفيه •

وهنا سمع صوت انزاروف وهو يقول :

ـ من هناك ؟

فذهبت اليه برزنيف وقال له :

ـ هذا أنا يا دمتري نيكاتوروفتش • هل هناك ما استطيع أن اعمله لك ؟ كيف حالك الآن ؟

ـ هل أنت بمفردك ؟

ـ نعم •

ـ واين هي ؟

ـ هي ؟ من تقصد ؟

ولم يجب انزاروف في الحال • ثم قال وهو يهمس : عطر الياسمين ، واغمض عينيه من جديد •

ظل انزاروف يتارجح بين الحياة والموت ثمانية ايام كاملة . وكان الطبيب يتردد عليه كثيرا فقد كان صغير السن وكان مهتما بحالته وحضر شوبين بعد ان سمع بحالة انزاروف الخطيرة لزيارته . كما حضر لزيارته مواطنوه البلغاريون وقد عرف برزنيف من بينهم الرجلين الغريبين اللذين فوجىء بزيارتهما غير المتوقعة فى الكوخ . وكان الجميع يعربون عن أسفهم . وعرض بعضهم ان يحل محل برزنيف فى العناية بامر انزاروف ولكن برزنيف لم يقبل متذكرا وعده ليلينا . وكان يراها كل يوم ويبلغها سرا ـ اما كتابة او بالكلام بتطور المرض . وكانت تنتظر لقاءه بشوق وقلب مشغول وتساله عن كافة التفاعيل . كانت تتوق للذهاب الى انزاروف ولكن برزنيف توسل اليها ألا تذهب لان انزاروف لم يكن يتحرك بمفرده الا نادرا . وقد مرضت هى تقريبا يوم علمت بمرضه .. وما ان عادت للبيت حتى حبست نفسها فى حجرتها . وعندما استدعيت لتناول الغذاء كانت شاحبة ممتقعة مما ازعج أنا فاسيليفنا فاشارت عليها بان تستريح فى حجرة نومها . ولكن يلينا تماسكت . وظلت تقول لنفسها : «ان مات هو فسالحق به» وقد اراحتها هذه الفكرة وساعدتها على أن تتظاهر بعدم الاكتراث . على ان احدا لم يثقل عليها . فقد كانت أنا

فاسيليفنا مشغولة بمرضها وكان شوبين يعمل بكل نشاط وكانت زويا مشغولة بافكارها الحزينة ، وكان ستاكوف يعارض بشدة زيارة « الطلاب » المتكررة لا سيما وان مشروعاته المتعلقة بكورناتوفسكي لم تكن تحرز اى تقدم

ولم تقدم يلينا الشكر لبرزنيف فان هناك من الخدمات ما يشعر الانسان بالخجل من تقديم الشكر عليه . وقد ذكرته بقسمه ووعده مرة واحدة وذلك لى زيارته الرابعة لها وكان انزاروف قد أمضى ليلة سيئة . وقال لها :

ــ حسنا هيا بنا . فبدات ترتدى ملابسها للخروج ولكنه استدرك قائلا لها :

ــ كلا .. لننتظر للغد وقد تحسنت حال انزاروف عند المساء ..

واستمر هذا العذاب ثمانية ايام . وكانت يلينا تبدو هادئة ولكنها لم تكن تتذوق طعاما ولا نوما وكانت اطرافها وراسها تؤلمها كثيرا .

واخيرا جاء التحسن فى اليوم التاسع . كانت يلينا تجلس فى حجرة الجلوس بجوار انا فاسيليفنا تقرا بصوت مرتفع دون ان تعى ما تقراه حين دخل برزنيف . ونظرت اليه يلينا ــ وكانت نظرتها الأولى اليه كل مرة نظرة سريعة حادة قلقة ــ ورات فى الحال انه يحمل أخبارا طيبة . فقد

كان يبتسم واوما اليها براسه فقامت لتلقاه وهمس فى اذنها قائلا :

ـ لقد افاق وزال الخطر وسيشفى تماما بعد اسبوع من اليوم •

ولم تنبس يلينا بكلمة وارتعشت شفتاها . واكتسى وجهها بلون أحمر داكن • ثم اتجه برزنيف للحديث مع انا فاسيليفنا • وذهبت يلينا الى حجرتها وركعت على ركبتيها واخذت تصلى شكرا لله ودموع الفرح تنساب من عينيها ، وبدأت تحس بمدى ما تعانيه من تعب وارهاق ، ووضعت راسها على الوسادة وقالت لنفسها « مسكين اندريا بتروفتش » واستسلمت للنوم فى الحال وقد بللت الدموع رموشها ووجنتيها • كان قد مضى عليها وقت طويل لم تنم فيه ولم تبك •

- ٢٧ -

تحقق بعض ما تنبا به برزنيف ، فرغم أن انزاروف قد تجاوز مرحلة الخطر فان شفاءه كان يسير ببطء ، وقد اشار الطبيب الى صدمة عنيفة هزت كيان المريض • ورغم ذلك غادر انزاروف الفراش واخذ يروح ويجىء فى الحجرة كما عاد برزنيف الى شـــقته ولكنه كان يذهب كل يوم

لرؤية صديقه الذى كان لا يزال ضعيفا • وكان يبلغ يلينا كل يوم بتطور الحالة كما كان يفعل من قبل • اما انزاروف فلم يجرؤ على الكتابة اليها واكتفى بالاشارة اليها فى حديثه مع برزنيف الذى كان يخطره بدوره متصفا عدم الاهتمام بزياراته لبيت ستاكوف • واوضح له ان يلينا كانت فى غاية الاضطراب ولكن حالتها النفسية قد تحسنت ••

ولم تكتب يلينا لانزاروف لأنها عقدت العزم على اتخاذ خطوة اخرى • وذات يوم بعد ان اخبرها برزنيف فى بهجة وسرور ان الطبيب قد صرح لانزاروف بان ياكل قطعة من اللحم وانه ربما استطاع الخروج قريبا طاطات راسها منكرة • واخيرا قالت له : هل تستطيع ان تحقق ما اريد أن اقوله لك ؟ ••

وشعر برزنيف بالحرج فقد فهم مرادها • وقال لها وهو ينظر بعيدا عنها : ربما تريدين أن تقولى انك ترغبين فى رؤيته •

فاحمر وجهها وقالت بصوت واضح مسموع :

ــ نعم ••

ــ حسنا • اظن أن فى امكانك ان تفعل ذلك بكل سهولة •

ثم قال محدثا نفسه :

ـ سحقا لهذا الشعور السخيف الذى اشعر به ٠
وقالت له يلينا :

ـ تعنى انى ـ ولكننى اخشى ـ انك تقول انه نادرا ما يترك بمفرده هذه الأيام ٠

فقال لها برزنيف وهو لا يزال يتحاشى نظراتها :
ـ هذا شيء يمكن التغلب عليه ٠ ولكننى طبعا لا استطيع ان اخطره مقدما ، فلترسل له معى رسالة ٠ فمن ذا الذى يملك أن يمنعك من الكتابة لأحد معارفك القدامى الذين يهمك أمرهم ؟ ليس فى هذا ما تلامين عليه ٠ فحددى له ميعادا ـ أعنى اكتبى له لتخطريه بميعاد ذهابك ٠

فقالت يلينا هامسة :

ـ اننى أشعر بالخجل ٠

ـ اكتبى رسالة وسأحملها له ٠

ـ لا حاجة لذلك ٠ ولكننى اريد أن أرجوك ـ دون أن تشعر من ذلك بأية اساءة يا اندريا ـ الا تزوره غدا ٠

فعض بنزريف على شفته ثم قال وهو يغادر الحجرة على عجل :

ـ أوه لقد فهمت حسنا سوف لا اذهب ٠

وقال لنفسه وهو فى طريقه الى بيته :

- هذا احسن ! هذا احسن ! • ان ما علمته ليس جديدا ولكن هذا افضيل • ما الذى يجعلنى أتشبث بشىء ليس لى ؟ لست آسفا فقد قمت بما أملاه على ضميرى ولكننى الآن قد انتهيت من كل شىء • وليفعلا ما يشاءان • كان ابى محقا عندما قال لى : اننى انا وأنت لسنا مدللين يابنى ولسنا ارستقراطيين •

نحن من الكادحين يابنى • من الكادحين • فالبس فوطتك الجلدية واذهب الى ورشتك المظلمة ! أما الشمس فدعها تضىء للغير • وحتى فى حياتى المظلمة هناك ما افخر به واغتبط ••

وفى اليوم التالى تسلم انزاروف رسالة قصيرة من يلينا عن طريق البريد جاء فيها ما يلى :

انتظرنى ولا تستقبل احدا • لن يزورك أ • ب •

ما أن قرأ انزاروف رسالة يلينا حتى شرع يرتب حجرته الصغيرة • فطلب الى صاحبة المنزل أن تزيل زجاجات الأدوية وخلع ملابس النوم ولبس بدلته • كان ضعيفا وسعيدا فاذا بقلبه يدق بسرعة • وتراخت قدماه فارتمى على الاريكة ونظر الى الساعة ثم قال لنفسه : انها الثانية عشرة الا ربعا • لا يمكن ان تاتى قبل الظهر • ولابد لى أن افكر فى شىء آخر أفعله خلال الربع الساعة القادمة والا فسوف يعيينى تحمل الانتظار • لا يمكن ان تاتى قبل •

وفتح البـاب ودخلت يلينا ترتدى رداء حريريـا وتبدو شاحبة ولكنها منتعشة وسعيدة • القت نفسها بين ذراعيه وهى تصيح صيحة خافتـة مرحـة • وقالت وهى تطوق عنقه بذراعيها وتربت على رأسه :

ـ انك على قيد الحياة • انك لى •• وكررتها عدة مرات •• أما هو فقد ظل ساكنا وهو يلهث من التصاقها به ومن لمساتها ومن الـسـعادة التى كانت تغمره •• ثم جلست الى جانبه وقد تعلقت به واخذت تتطلع اليه وقد بدا عليهـا تعبير السرور والتدليل الذى لا يبدو الا على امرأة تحب •

واختفى هذا التعبير من وجهها فجأة •• ثم قالت وهى تمر بيدها على صدغيه :

ـ نحفت كثيرا يا مسـكين • ونما شـعر ذقنك كثيرا •• فقال لها •• وهو يقبل أصابعها وهى تربت على وجهه :

ـ انت ايضا اصبحت اكثر نحـافة عـن ذي قبل يا يلينا يا مسكينة •

فقالت وهى تهز خصلات شعرها :

ـ لا تهتم • انك سترى أن وزننا سيزداد سريعا •• لقد جاءت العاصفة كما جاءت فى ذلك اليوم الذي التقينا فيه فى الكوخ • جاءت وذهبت •

أما الآن فسوف نعيش ..

فاجابها بابتسامة ..

قالت :

ـ لقد مررنا بايام عصيبة يا دمترى . كانت اياما قاسية . اننى لا استطيع ان اتصور كيف يعيش الناس بعد وفاة من يحبـون . لقد كنت دائمـا اعرف ما كان سيقوله لى اندريا بتروفتش . وكانت حيـاتى ترتفع او تهبط مع حياتك . ياله من صباح سعيد يا دمترى ـ ولم يدر دمترى ماذا يقول . كان يود أن يلقى بنفسه تحت قدميها ..

وقالت له وهى تربت على شعره :

ـ هناك شىء آخر لاحظته . لقد لاحظت اشياء كثيرة اثناء مرضك . لقد اكتشفت انه عندما يكون الانسان فى غاية التعاسة فانه يكون قوى الملاحظة . لقد كنت اجلس احيانا اراقب ذبابة ولكننى كنت اشعر بالخوف والضيق . ولكن كل هذا قد انتهى الآن اليس كذلك ؟ وكل ما هو امامنا بهيج .. اليس كذلك ؟

انت امامى وهذا يضفى البهجة على كل شىء .

اننى اشعر بنفس الشعور . ولكن هل تذكر ذلك اليوم الذى اتيت فيه لزيارتك . لافى المرة الأخيرة .. كلا ..

(وهنا سرت فى جسدها رعشة لا ارادية) ولكن عندما كنا نتحدث انا وانت وذكرت لك الموت . ولا أدرى لم ذكرته . لم آكن اشك حينذاك ان الموت كان يترصدنا . ولكنك الآن بخير .. اليس كذلك ؟

ـ انني اشعر بتحسن كبير وقد شفيت تقريبا .

ـ انك فى صحة جيدة ولم تمت . اوه ـ كم انا سعيدة ..

واعقب ذلك فترة صمت ..

واخيرا قال انزاروف :

ـ يلينا ..

ـ نعم يا عزيزى .

ـ خبريني . هل خطر ببالك أن مرضى كان عقابا موجها لنا ؟ فنظرت اليه يلينا بجد وقالت :

خطر ذلك ببالى يا دمترى . ولكنني سألت نفسى .

ـ وما سر عقابى ؟ ما هى الواجبات التى أهملتها وما هى الزلات التى ارتكبتها ؟ قد لا يكون ضميرى كضمير الآخرين . او ربما آكون قد أذنبت فى حقك . وقد اكون عقبة فى سبيلك وقد أعوقك ..

ـ سوف لا تعوقيننى يا يلينا لأننا سنرحل معا .

ـ نعم يا دمترى . سنسير معا وسوف أتبعك .. هذا واجبى . اننى احبك ولا اعرف واجبا غير ذلك .

ـ اوه يا يلينا .. ان كل كلمة تصدر منك تضع حولى رباطا لا ينفصم .

ـ ولماذا تتحدث عن الرباط ؟ اننى انا وانت اناس احرار .

ثم قالت وهى تنظر الى الأرض فى تفكير ، بينما ظلت تربت على شعره بيدها : لقد مررت باشياء كثيرة فى الأيام الأخيرة .. اشياء لم تكن عندى اى فكرة عنها من قبل .. ولو ان احـدا قال لى اننى انا الفتاة ذات التربية أخرج متذرعة بادعاءات كاذبة لزيارة شاب فى مسكنه ـ تخيل هذا ـ لغضبت كثيرا ! وها قد حدث كل هذا ولكننى لم اغضب على الاطلاق ..

وكان انزاروف يحدق فيها باعجاب شديد حتى انها انزلت يديها من شعره الى عينيه .

ثم قالت له :

ـ يا دمترى .. انك لا تعرف شيئا عما حدث .. لقد رايتك هناك فى ذلك الفراش الرهيب .. رايتك فى قبضة الموت فاقد الوعى ..

ـ حقـا ؟

ـ نعم .

وظل صامتا فترة من الوقت ثم قال :

ـ وهل كان برزنيف هنا ايضا ؟

فاومات براسها ..

فانحنى انزاروف لها وقال في همس :

ـ اوه يا يلينا لا أجد في نفسي الجراة على النظر اليك .

ـ ولم لا ! ان اندريا بتروفتش ذو قلب رحيم كما انني لم اشعر بالخجل امامه اذا ليس هناك ما يجعلني اشعر بالخجل . لا يهمني ان يعلم العالم كله انني لك . اما عن اندريا بتروفتش فاني اثق فيه كما لو كان اخي .

فقال انزاروف :

ـ لقد أنقذ حياتي .. انه أكرم واطيب رجل رايته في حياتي .

ـ هذا صحيح .. وهل تعلم انني مدينة له بكل شيء ؟ هل تعلم انه أول من قال لي انك تحبني ؟

انني لا استطيع أن ابوح لك بكل شيء الآن .. انه حقيقة أكرم رجل ..

فنظر انزاروف الى يلينا مليا ثم قال :

ـ انه يحبك اليس كذلك ؟

فخفضت يلينا عينيها ثم قالت بصوت خفيض :

ـ لقد احبنى ..

وضغط انزاروف على يدها وقال :

ـ ان لكم ايها الروس قلوبا من ذهب . اننى عندما اذكر انه كان عليه هو دون الناس جميعا ان يرعانى وان يمضى الليالى ساهرا الى جوارى يأخذنى العجب . كذلك فانك انت الأخرى يا ملاكي فعلت كل هذا من اجلى دون تردد ..

ـ نعم .. نعم .. من اجلك لانك محبوب .. آه يا دمترى ياله من امر غريب ! اظن اننى قد اخبرتك من قبل اننى اشعر بالسعادة عندما أكرر لك قولى هذا كما انك ستشعر بالسعادة حين أقول لك مرة ثانية اننى عندما رايتك لأول مرة .

وسالها انزاروف فى دهشة :

ـ ولكن لماذا تبكين ؟

فقالت وهى تمسح عينيها :

ـ ابكى ؟ هل انا ابكى ؟ ولكن كيف لا تعرف ان الانسان قد يبكي ايضا من الفرح ؟ انك حين التقينا لأول مرة لم تلق اعجابى كما سبق أن قلت لك .. اذكر اننى شعرت بميل أكثر نحو شوبين ولو اننى لم اشعر بالحب

نحوه وكنت اشعر نفس الشعور نحو اندزيا بتروفتش ، ومرت على لحظة كنت اعتقد انه هو فتاى . أما انت فلم تستلفت نظرى ولكنك استوليت على قلبى بعد ذلك .

فقال لها انزاروف :

ـ ارحمينى .. وحاول أن يقف ولكنه جلس ثانية .

فقالت له يلينا بقلق :

ـ ماذا بك ؟

فقال لها :

ـ لا شىء سوى اننى لا ازال ضعيفا .. ان هـذه السعادة أكثر مما أتحمل .

قالت :

ـ الزم الهدوء اذن .. وارجوك أن تكف عن الحركة وعن الانفعال ما كان يجب أن تخلع ملابس النوم فلم يحن بعد الوقت لكى ترتدى حلة . اهدأ وسأقص عليك بعض القصص المسلية وما عليك الا أن تستمع فى هدوء ، كما عليك ألا تتحدث كثيرا بعد مرضك .

وبدأت تحدثه عن شوبين وكورنا توفسكى وما كانت تفعله خلال الأسبوعين السابقين وقالت انه طبقا لما جاء فى الصحف فان الحرب وشيكة الوقوع .. ولذلك فمجرد أن يشفى فلابد من ايجاد طريقة للرحيل فى الحال . كانت

تتحدث وهي تجلس الى جانبه متكئة على كتفه . وكان ينصت لها بينما اخذ وجهه يشحب ويحمر على التوالى وقام بعدة محاولات لاسكاتها .

وفجأة اعتدل وقال لها بصوت حاد :

ـ يلينا أرجوك أن تتركيني .. اذهبى ..

فهمست في تعجب :

ـ ماذا تقول ! ألست بخير ؟

ـ انني بخير ولكن ارجوك ان تذهبى .

ـ لا أفهمك .. هل معنى ذلك انك تطردني ؟

ثم قالت له فجأة وقد رأته ينحني حتى وصل الى الأرض ثم قبل قدميها :

ـ لا تفعل يا دمترى .. دمترى .

فقام ثم قال :

ـ اتركيني يا يلينا .. انني عندما مرضت لم افقد الوعي في الحال .. كنت أعلم انني على حافة الموت . وحتى أثناء الارتفاع الشديد لدرجة الحرارة وحتى وانا اهذى كنت اشعر شعورا خفيا ان نهايتي اوشكت وودعت الحيــاة وودعتك وودعت كل شيء وفقدت الأمل ثم بعد كل ذلك يأتي هــذا البعث وهــذا النور بعــد الظلام واراك وانت تجلسين الى جوارى وفي حجرتي واسمع صوتك واحس بانفاسك . هذا أكثر مما اطيق حيث انني أشعر انني

أحبك بكل جوارحي . انني حين أسمعك تقولين انك لى افقد السيطرة على نفسى .. اذهبي .

فهمست يلينا وهي تضع رأسها على صدره وقد فهمت :

ـ دمترى .

ـ يلينا انني أحبك وانت تعلمين ذلك .. انني على استعداد للتضحية بحياتي من اجلك .. ولكن لماذا أتيت لى الآن ، وانا ضعيف ولا قبل لى بالسيطرة على نفسى ودمائى تغلى ؟ انك لى كما انك تقولين انك تحبينني .

فقالت وقد احمر وجهها احمرارا شديدا والتصقت به أكثر وأكثر :

ـ دمترى .

ـ يلينا .. ارحميني واذهبي .

انني أشعر انني قد أموت فما بي طاقة لتحمل هذا الانفصال .. ان قلبي يتمزق شوقا اليك .

ولا تنسى ان الموت كاد يفرق بيننا .. والآن هانت هنا بين يدى يا يلينا ..

فانتابتها رعشة في كل جسدها وقالت له وهي تغمغم بصوت لا يكاد يسمع :

ـ خذنى اذن ..

- ٢٩ -

كان ستاكوف يذرع حجرة مكتبه جيئة وذهابا وقد عقد مابين حاجبيه بينما جلس شوبين الى النـافذة وهو يدخن في هدوء ثم قال لستاكوف : كفاك سيرا بالله عليك • لقد كنت أنتظر منك أن تتكلم وقد تعبت من النظر اليك وانت تروح وتجيء كذلك فان في مشيتك شيء من التوتر والانفعال •

فقال ستاكوف :

ـ انت دائما تمزح في غير وقت للمزاح • لابد لك ان تقـدر موقفي • انك لا تريد أن تفهم انني متيم بهـذه السيدة وان غيابها ينغص على حياتي هاقد بدأ شهر اكتوبر واصبح الشتاء على الأبواب • فما الذي يبقيها حتى الآن في ريفال ؟

ـ اعتقد أنها تعد بعض الجـوارب ـ لنفسها طبعـا لا لك •

ـ استمر في لهوك وضحكك • ولكنني اريد أن تفهم انني لم أعرف في حياتي امرأة لها مثل اخلاصها وتفانيها •

فسأله شوبين قائلا :

ـ هل قدمت كمبيالاتها للسداد ؟

فقال ستاكوف وهو يرفع صوته :

ان تفانيها يثير الاعجاب وليست هناك امرأة مثلها . ولكن الشيء المؤلم انها لم تكتب لى .

فقال شوبين :

ــ ان بلاغتك في الحديث مثل بلاغة بايثاجوراس . هل تعرف ما اقترحه ؟

ــ تحدث .

ــ عندما تعود أوجاستينا كريستيانوفا ــ اتفهمنى ؟

ــ نعم .

ــ عندما تراها .. هل تفهمنى ؟

ــ نعم بالطبع .

ــ حاول أن تضربها وانظر مايحدث .

فابتعد ستاكوف فى اشمئزاز ثم قال :

ــ كنت اعتقد انك ستقدم لى نصيحة حقيقية . ولكن ماذا يستطيع الانسان أن ينتظر من شخص مثلك ؟ من فنان .. من رجل بلا مبادىء .

ــ بلا مبادىء !

انهم يقولون ان رجلك المفضل السيد كورناتوفسكى وهو رجل ذو مبادىء قد ربح منك مائة روبل فضة مساء أمس . انك لا شك توافق على ان ذلك من جانبه عمل خال من اللياقة .

ـ وماذا في ذلك ؟ لقد كنا نلعب نظير نقود • لاشك انني كان من الممكن أن أتوقع ـ ولكن ما يتمتع به هو من صفات لا يلقى ما يستحقه من تقدير فى هذا البيت ••

فقاطعه شوبين قائلا :

ـ وربما قال لنفسه : « ليحدث مايحدث ـ لست متأكدا من انني سأتزوج ابنتــه في حــين ان المائة روبل لا ضرر منها على شخص لا يأخذ الرشاوى » •

ثم قال شوبين بالفرنسية :

ـ انك تحلم بأن تزوجه ابنتك يا عزيزى • مما لاشك فيه ان اى فتاة أخرى كانت تقفز من الفرح اذا طلب يدها رجـل مثله • فهو رجل مجتهــد وكفء وله شهرته فى مقاطعتين • كما انه استطاع أن يخدع حاكم احدى المقاطعات

ـ ربما انه رجل يفعل ما يقول كما ان له نشاطا في ميدان التجارة •

ثم قال شوبين :

ـ انه لا شك يجيد لعب الورق •

ـ نعم • يجيده • ولكن يلينا نيكولايفنا فتاة لا يمكن فهم تصرفاتها •

كم أود أن ألقى شخصا يمكنه أن يبين لى ما تريد • فهى مرحة أحيانا وحزينة احيانا أخرى وصحتها تســوء احيانا وتتحسن احيانا أخرى بلا سبب واضح •

وهنا حضر خادم يحمل صينية عليها قدح من القهوة وبسكويت واناء من اللبن ٠

واستمر ستاكوف فى حديثه فقال :

ـ الوالد يميل الى الرجل ولكن ابنته لا تكترث لشيء ٠٠ كان هـذا جائزا فى العهـود القـديمة اما الآن فقد تغيرنا ٠ واى فتاة تستطيع أن تتحدث الى اى انسـان كما تستطيع ان تقرا اى شيء انها تخرج بمفردها دون خادم او وصيفة كما لو كانت فى باريس ٠ واصبح كل هـذا مقبولا ٠ وقد سالت منذ بضعة ايام عن يلينا نيكولايفنا فقيل لى انها خرجت ولم يكن هناك من يعرف اين ذهبت فهل تعتقد أن هذا تصرف لائق ؟

فقال شوبين :

ـ خذ قدحك حتى ينصرف الرجل ٠ ألم نقل اننا لا يجب أن نتحدث هكذا أمام الخدم (قالها بالفرنسية)

فنظر الخادم بتجهم الى شوبين بينما اخذ ستاكوف قدح القهوة وصب عليه بعض اللبن وأخذ فى يده بعض قطع البسكويت ٠

ثم قال بعد أن انصرف الخادم :

ـ كنت أقول انني لا أساوى شيئا فى هذا البيت ٠ الناس يقدرون هذه الايام بمظهرهم ٠ وقد يكون الانسان سطحيا وغبيا ولكنه يحترم اذا ظهر بمظهر الشـخص

المهم • وقد يكون هناك شخص آخر موهوب وله قدرات لها فائدتها واهميتها ولكن لشدة تواضعه •

فساله شوبين قائلا :

ـ هل انت من رجال السياسة يا نيكولاى ؟

فصاح ستاكوف بغضب قائلا :

ـ كفاك سخافة • لقد نسيت نفسك • وهـــذا دليل جديد على أننى لا اساوى شيئا فى هذا البيت •

ـ ان أنا فاسيليفنا تستبد بك يا صديقى المسكين • لا بد ان تخجل من نفسك • ولا بد لك ان تفكر فى هدية تقدمها لآنا فاسيليفنا فى عيد ميلادها الذى يحل بعد ايام وانت تعلم مدى تقديرها باى اهتمام تبديه نحوها •

ـ نعم انت على حق وأنا شاكر لك لانك ذكرتنى بهذا • لابد لى ان افعل هذا • ان لدى عقدا اشتريته من روز نيستروك منذ يومين ولكننى لا أدرى ان كان هـــذا يكفى أم لا •

ـ اشتريته للاخرى • اليس كذلك ؟

ـ ان ـ نعم ـ كنت اعتقد ـ

ـ مادام الامر كذلك فانه يكفى بالطبع •

وقام شوبين من مقعده •

فساله ستاكوف وهو يحملق فى عينيه قائلا :

ـ أين ستذهب الليلة يا بافل باكوفليفتش ••

ـ الست ذاهبا الى النادى ؟

ـ اعنى بعد ذلك ·

فقال شوبين :

ـ آسف يا نيكولاى ارتيمنفتش ان لدى ما اعمل غدا · سنذهب فى وقت آخر · ثم خرج ·

فقطب ستاكوف جبينه وسار فى الحجرة مرة او مرتين ثم اخرج من جيبه علبة صغيرة من القطيفة بداخلها العقد وفحص العقد جيدا · ثم جلس امام المرآة واخذ يمشط شعره الاسود الكثيف وهو يحرك راسه يمنة ويسرة وينفخ شدقيه ·

وسمع شخصا يسعل خلفه فالتفت ورأى الخادم الذى احضر القهوة فساله قائلا :

ـ ماذا تريد ؟

اجاب الخادم :

انك سيدى يا نيكولاى ارتميفتش ·

ـ اعرف ذلك · وماذا هناك ؟

ـ ارجو الا تغضب منى ياسيدى · عندما رايت اننى قد امضيت فى خدمتك حياتى منذ طفولتى ـ اى لانى اريد أن اخدمك كاننى عبدك ـ لابد ان اخبرك ـ

ـ تكلم يارجل ·

ـ لقد قلت ياسيدى أنك لا تعرف أين ذهبت يلينا نيكولايفنا ولكنى اعرف شيئا عن هذا الموضوع ·

ـ انك احمق كاذب ٠

ـ كما ترى ياسيدى ولكننى رايتهـا منذ اربعة ايام وهى تدخل احد المنازل ٠

ـ اين واى منزل ؟

ـ بالقرب من شارع بوفارسكايا وهو شارع لا يبعد كثيرا عن هنا ٠٠ وسالت حارس المنزل عن السكان ٠

فضرب ستاكوف الأرض بقدمه وقال للخادم :

ـ أخرس ايها المغفل ! كيف تجرؤ على أن تقول مثل هذا القول ٠ ان يلينا نيكولايفنا تزور الفقـــراء من باب العطف عليهم وانت ـ اغرب عن وجهى أيها الاحمق ٠

فاندفع الخادم مذعورا الى الباب ٠ وصـــاح فيـــه ستاكوف قائلا :

ـ قف ٠ ما الذى قاله لك الحارس ؟

ـ لم يقل شيئا ٠ قال انها كانت تقوم بزيارة أحد الـــــ الطلبة ٠

ـ اصمت ايها المغفل ـ استمع الى ايها المجرم :

اذا اعدت هذا الكلام حتى وانت نائم ٠

ـ كيف اجرؤ على ذلك يا سيدى ٠

ـ أخرس ـ انك اذا تحدثت عنه ـ أو اذا سمع به اى شخص فانك سوف لا تفلت من عقابى حتى ولو ذهبت الى جهنم ٠ فهمت ؟ والآن اهرب عن وجهى ٠

فخرج الرجل مسرعا ..

وعندما وجد ستاكوف نفسه بمفرده قال لنفسه : يا الهي ! ما هذا ؟ ما الذى قاله لى هذا المعتوه ؟ على اى حال لابد لى ان اعرف كل شىء عن هذا المنزل وعن ساكنيه لابد ان اذهب بنفسى الى هناك ثم أعاد ستاكوف العقد الى الخزانة وذهب الى انا فاسيليفنا فوجدها ترقد فى الفراش وقد ربطت صدغيها بضمادة ولكن فكرة اثارتها اخذت تلح عليه وسرعان ماجعلها تبكى .

- ٣٠ -

فى هذه الأثناء انفجرت العاصفة التى كانت تتجمع فى الشرق وأعلنت تركيا الحرب على روسـيا . وكانت الخطابات التى تصـل الى انزاروف تناشده بشـدة ان يعود الى الوطن . ولم يكن قد عوفى تماما . بل كان مقبلا . وكان يسعل كما كانت تعاوده نوبات من الحمى من آن لآخر ولكنه لم يكن يبـقى فى البيت الا نادرا . كان شديد الحماس ولم يكن لديه متسـع من الوقت لرعاية صحته . وكان يغشى الاجتماعات السرية فى جميع انحاء موسكو وكان كثيرا ما يمضى ليالى باكملها يكتب ، كما كان يتغيب عن البيت اياما متتـالية . وكان قد اخطر

صاحبه بيته انه سيرحل قريبا ، وأهـدى له كل اثاث حجرته مقهما ٠ وكانت يلينا هى الأخرى تستعد للرحلة ٠

وقد حدث ذات ليلة ممطرة أن كانت يلينا تجلس ف حجرتها تطرز بعض المناديل وتنصت عل غير رغبة منها الى صوت الرياح عندما دخلت عليهـا خادمتها واخبرتهـا ان والدها فى حجرة والدتها وانه يريد مقابلتها ٠ وقالت لها الخادمة وهى تغادر الحجرة : ان والدتك تبكى كما أن والدك فى منتهى الغضب ٠

وهزت يلينا كتفيها ودخلت الى حجرة انا فاسيليفنا التى كانت تجلس عل مقعد ضخم تشم الكولونيا من منديل فى يدها بينما كان زوجها يقف الى جانب المدفأة مرتديا ملابس توحى بانه خطيب فى البرلمان واشار ستاكوف بيده اشارة خطابية لابنته لـكى تجلس ٠ وعندما نظرت اليه متسائلة قال لها فى تعال ودون أن يلتفت اليها ٠

ـ ارجو أن تجلسى ٠٠ فجلست يلينا ٠٠

وكانت انا فاسيليفنا تبكى بينمـا وضع ستاكوف يده فى جيب ردائه ٠

وقال بعد فترة طويلة من السكون : لقد استدعيتك يايلينا نيكولافينا لـكى اصل معك الى تفسـير أو بمعنى أصح لكى استوضحك بعض الامور ٠ اننى لست راض ـ عنك ـ كلا هذه لغة معتدلة جدا ـ ان سلوكك يؤلمنى بل ان فيه اهانة لى ولوالدتك التى ترينها هنا ٠

كان ستاكوف يتحدث بصوت خفيض بينما ظلت يلينا تنظر اليه ثم الى أنا فاسيليفنا وقد شحب وجهها واستمر ستاكوف في حديثه فقال : كان هناك وقت لا تتجاسر فيه الفتيات على التقليل من شأن الوالدين وكانت سلطة الوالدين ترهب من تسول له نفسه شق عصا الطاعة عليهما • ويؤسفني ان اقول ان هذا الوقت قد مضى أو هذا ما يعتقده الكثيرون • ولكن صدقيني لا تزال هناك قوانين تمنع ـ تمنع ـ بالاختصار لا تزال هناك قوانين : ارجو أن تلاحظي أنه لازالت هناك قوانين ••

وحاولت يلينا أن تقاطعه قائلة : ولكن يا ابى ••

فقال لها :

ـ ارجو الا تقاطعيني ولننظر للماضي •

لقد أديت انا وانا فاسيليفنا واجبنا • ولم ندخر وسعا في تعليمك • ان الفائدة التى حصلت عليها من هذه النفقات وهذه العناية تعتبر مسالة جانبية • ولكنني كنت اتوقع انا وانا فاسيليفنا ان تقدسي تلك القيم الخلقية التى انشأناك عليها باعتبارك ابنتنا الوحيدة • لقد كنا نعتقد انه لا يمكن للافكار الجديدة المتطرفة ان تؤثر على هذه العقيدة المقدسة • ومع هذا فماذا كانت النتيجة ؟

وبغض النظر عن الطيش الذى يلازم الفتيات فى سنك ، فليس هناك من كان يتصور أنك تنسين نفسك الى درجة أن • قالت يلينا :

ـ أبى اننى اعرف ما تقصد ٠

فصاح ستاكوف وقد نسى كل ما يتعلـق بكبريائه ومظهره الذى يوحى بالعظمة وقال :

ـ انت لاتعرفين شيئا ايتها الوقحة المستهترة ٠

قالت انا فاسيليفنا بالفرنسية ٠

ـ بحق السماء يانيكولاس ٠٠ سنقضى على ٠٠

ـ لاتقول هذا يا انا فاسيليفنا ٠ انك لاتستطيعين ان تتصورى ما ساقوله فلا تزال هناك اخبـار سيئة فى انتظارك ٠

فاستولت الدهشة على انا فاسيليفنا ٠

ثم التفت ستاكوف الى يلينا وقال :

ـ كلا ، انت لا تعرفين ما اقصده ٠

ـ لقد اسات اليكم ٠

ـ آه ـ لقد قلتيها اخيرا ٠

ـ لقد اسات اليكم بعدم الاعتراف لـــكم منذ وقت طويل ٠

فقاطعها ستاكوف قائلا :

ـ هــل تعلمين ان فى مقـــدورى ان اقتلك بكلمة واحدة ؟

فنظرت يلينا اليه ٠

فقال لها وقد وضع ذراعيه على صدره :

ـ نعم ياسيدتي بكلمة واحدة · هل لى ان اسالك ان كنت تعرفين منزلا معينا بالقرب من بوفارسكايا ؛ وهل قمت بزيارة هــذا المنزل ؟ ثم ضرب الارض بقدمه وقال : اجيبى يا قليـلة الحياء ولا تحاولى أن تخدعنى ، فقد رآك خدمنا وانت تزورين ·

واحمر وجه يلينا ولمعت عيناها وقالت :

ـ لا حاجة بى لخداعكم · لقــد زرت هــذا المنزل بالفعل ·

ـ عظيم ! هل سمعت بهذا يا أنا فاسيليفنا ؟ اعتقد أنك تعلمين من الذى يسكن فى هذا المنزل ·

ـ نعم اعرف ـ انه زوجى ·

فحملق فيها ستاكوف وقال :

ـ من ؟؟

ـ زوجى فانا متزوجــة من دمترى نيكاتوروفتش انزاروف ·

فقالت انا فاسيليفنا بدهشة :

ـ أنت ؟ متزوجة ؟

ـ نعم ياوالدتى وارجو المغفرة فقد تزوجنا سرا منذ اسبوعين · انهارت انا فاسيليفنــا على المقعد الذى كانت

تجلس عليـــه بينمـــا رجع ســـتاكوف خطوتين للخلف وقال لها :

ـ تزوجت !؟ تزوجت من ذلك الصعلوك ؟

هل تتزوج ابنة أحـــد النبلاء الأغنيـــاء ٠٠ ابنة نيكولاى ستاكوف من صعلوك تعس من الأحرار دون ان يبارك والداها هذا الزواج ؟ هل تظنين أننى ساقبل هذا ؟ وهل تظنين أننى لن اشكو للجهات المختصة ؟ هل تظنين اننى ساسمح لك ان ـ اسمح بأن ـ كلا سادخلك الدير وســـارسله هو الى السجن ٠ اخبريها يا انا فاسيليفنا الآن أنك ستحرمينها من الميراث ٠

فقالت انا فاسيليفنا وهى تئن :

ـ بحق السماء يانيكولاى ارتيميفتش !!

وقال سبتاكوف :

ـ كيف حدث هـــذا ؟ ومتى ؟ ومن أجرى مراسيم الزواج ؟ واين ؟ وكيف ؟ يا الهى ! ما الـــذى سيقوله اصدقاؤنا وغيرهم من النـــاس أيتهـــا المنافقة المتبجحة ؟ وكيف تستطيعين ان تعيشى فى بيت والديك بعد ان ارتكبت مثل هذا العمل ؟ الم تقيمى حسابا للعقاب الالهى ؟

فقالت يلينا بحزم وان كانت ترتعش من قمة الرأس الى اخمص القدم :

ـ لك ان تقلل من شانى كما تشاء ولكنك تخطىء فى اتهامك لى بالتبجح والنفاق ٠ لم اود ان ازعجك قبل أن

يتم شيء ولكنني كنت لابد ساخطرك في يوم من الايام بكل شيء لأنني سارحل انا وزوجي في الأسبوع القادم

ـ سترحلين ؟ الى اين ؟

ـ الى وطنه بلغاريا ٠

فصاحت انا فاسيليفنا قائلة :

ـ الى الاتراك ؟ ثم فقدت الوعي ٠

واندفعت يلينا نحو امها ٠٠

فصاح فيها ستاكوف وهو يمسكها من ذراعها قائلا :

ـ ابتعدي ـ ابتعدي أيتها الفتاة الحقيرة ٠

وفي هذه اللحظة فتح الباب وظهر شوبين وصاح بأعلى صوته قائلا :

ـ لقد عادت اوجاستينا كريستيانوفا يانيكولاى ارتيميفتش وهي تدعوك ٠

فاستدار ستاكوف بغضب وهز قبضته لشوبين وتردد لحظة ثم اسرع بالخروج ٠٠ أما يلينا فقد ارتمت عند قدمي والدتها وامسكت بركبتيها ٠٠

* كان يوفار ايفانوفتش يرقد في فراشه وقد لبس قميصا بازرار كبيرة أحاط بصدره الضخم وتدثر بغطاء خفيف غطى نصفه الأسفل ٠٠ كانت هناك على المنضدة شمعة ترسل ضوءا خافتا ٠ وكان شوبين يجلس على الفراش عند قدميه وقد بدا مهموما ٠ وقال :

ـ نعم . لقد تزوجت .. اوشكت على الرحيل ..

وقد ثار قريبك واخذ يصيح وكان قد اغلق الحجرة على نفسه حتى لا يسمعه احد . ولان كل الخدم يسمعونه وهو لايزال ثائرا صاخبا ، كان على وشك ان يتشاجر معى ولكنه عاجز عن عمل شيء . اما انا فاسيليفنا فقد تحطمت وحزنت على سفر ابنتها الوشيك اكثر من حزنها على زواجها .

واخذ يوفاريشنى اصابعه ثم قال :

ـ انها أم ولذلك فهى ... انت تعرف .

فاستمر شوبين فى حديثه قائلا :

ـ ان قريبك يهدد برفع الأمر الى الحاكم العام والوزير ولكن كل هذا سينتهى برحيلها . وليس هناك اب يرغب فى تحطيم سعادة ابنته .

فقال يوفار ايفانوفتش :

ـ لاحق لهم .

ثم احتسى جرعة من الخمر .

ـ كلا لا حق لهم . ولا تنس موجة القيل والقال والاشاعات التى ستعم موسكو . انها لا تخشى شيئا . انها فوق كل هذه الاشياء . ولكن التفكير فى المكان الذى ستذهب اليه يثير الخوف . انه بعيد جدا . ولا يدرى احد ما الذى تخبئه لها الأقدار هناك . اننى اتخيلها وكأنها

خارجة من احدى الحانات ليلا فى عاصــــفة ثلجية عاتية ستترحل بعيدا عن وطنهــــا وعائلتهــــا ورغم ذلك فاننى أفهمها . من هم الاشخاص الذين ستتركهم وراءها ؟ واى نوع من الناس صادفتهم هنا ؟ اشخاص امثال كورنياتوفسكى وبرزنيف وأنا . نحن احسن من قابلتهم .

فما الذى ستاسف عليه اذن ؟ المشكلة الوحيدة هى انهم يقولون ان زوجها ... اننى أجد صعوبة فى النطق بهذه الكلمة .. يقولون ان انزاروف يبصق دما عندما يسعل . وهذا امر سيىء . وقد رايته منذ بضعة ايام وكان وجهه أشبه بوجه بروتوس .. هل تعرف من هو بروتوس يا يوفار ايفانوفتش ؟

ـ ومن هو حتى أعرفه ؟ انه مجرد شخص .

ـ نعم ولكنه شخص فى منتهى المرح وله وجه عجيب ولكنه وجه رجل مريض . مريض جدا .

ـ هذا لا يهم عندما يكون الموضوع متعلقا بالحرب .

ـ هذا صــحيح وانت على حق . تعليقاتك اليــــوم دقيقة ولكن هذا من الاهمية بمكان حتى تكون المســألة مسالة حياة وانا على يقين انها تريد أن تستمتع بالحياة معه ..

ـ هذا طبيعى فهما فى مقتبل العمر .

ـ نعم هما فى مقتبل العمر ، كما أن القضية قضية

رائعة طابعها الشجاعة ففيها الموت والكفاح من اجل الحياة والهزيمة والنصر والحب والحرية والوطن • انه شعور فذ وليمنحه الله للجميع هو افضل من الجلوس كمـــا تجلس انت متظاهرا بعدم الاهتمام في حين انك فعـــلا لا تهتم • اما هناك فقد بلغ التوتر حدا كبيرا جعل صداه يسمع في جميع انحاء العالم •

وتدلى رأس شوبين على صدره • ثم اســـتمر قائلا بعد صمت طويل :

ـ نعم • ان انزاروف جدير بهـــا • على كل ـ كلام فارغ ! ليس هناك من هو جدير بها • انزاروف ـ ماقيمة التواضع الكاذب ؟ انني اعترف انه رجل بمعنى الكلمـــة يستطيع ان يثبت وجوده ولو انه ظل حتى هـــذه اللحظة يفعل ما نفعله نحن الأشـــخاص العاديين • ولـــكن هل الى هذا الحد ؟ نحن قوم لا قيمة لهم ؟ هل أنا شخص لا قيمة له يا يوفار ايفانوفتش ؟ الم يهبني الله شيئا قط ؟ الم يعطني بعض القدرات او المواهب ؟ من يدري أن اسم بافل شوبين لن يصبح مشـــهورا يوما ما ؟ ان امامك قطعـــة من النقود النحاسية على المنضدة • من يدري فلعل أحفاده يـــتعملون هذه القطعة ذات يوم • ربما يكون هذا اليوم بعد مائة سنة لاقامة تمثال لبافل شوبين •

فاستند يوفار ايفانوفتش على مرفقيه ونظر الى الفنان المتحمس وقال وهو يثني اصابعه كالعادة :

ـ سيطول هذا الانتظار ٠ لقد كنا نتكلم عن شخص آخر وهانت تتحدث عن نفسك ٠

ـ يافيلسوف روسيا العظيم ان كل كلمـة تفوهت بها انما هى قطعة من الذهب الخالص ٠ لايجب ان يقـام التمثال لى بل لك وساتعهد انا باقامته ٠ سـاصنع لك تمثالا وانت راقد فى هذا الوضع الذى يصعب الحكم عليه أهو وضع قوة أو كسل ٠ لقد أنبتنى على انانيتى وطموحى وانت محق فى هذا او يجب الا نتحدث عن أنفسـنا او نتفاخر ٠ نحـن لا نزال فى الواقع نفتقر الى الرجـال الحقيقين رغم أننا نبحث عنهـم كثيرا ٠ ان رجالنـا اما شخصيات تافهة جاهلة تتحسس طريقهـا فى الظـلام او اشخاص يسـخرهم الأخرون ؛ وهناك ايضـا نوع من الأشخاص قد حللوا انفسهم بدقة تثير الاشمئزاز فهـم يركزون تفكيرهم على أنفسهم ٠

والحق انه لو كان بيننا رجال حقيقيون لما تركتنا هذه الفتاة الحساسة ولما تسللت هكذا كسمكة تهرب إلى الماء ٠ ماذايعنى كلهذا يايوفار ايفانوفتش ؟ متى سيحين وقتنا؟ ومتى يولد رجال حقيقيون فى هذه البلاد ؟

ـ لا تتعجل فسياتى الوقت الذى يظهرون فيه ٠

ـ هل سياتون حقا ؟ هل قلت انهم سياتون ؟ لا تنس انى ساسجل ما تقوله ٠ ولكن لماذا تطفىء الشمعة؟

ـ لانى اشعر بالنعاس ٠ طابت ليلتك ٠

كان شوبين على حق فقد كان خبر زواج يلينا المفاجيء يقضي على انا فاسيليفنا التي لزمت فراشها . وقد طلب اليها ستاكوف الا تسمح لابنتها بمقابلتها . ويبدو أنه كان مغتبطا للفرصة التي اتيحت له كي يظهر أنه هو سيد البيت ورب العائلة . فكان يعنف الخدم دائما ويصيح فيهم ويقول :

ـ ساريكم من انا . ستعرفون حقيقتي .

وطالما كان في البيت لم تكن انا فاسيليفنا ترى يلينا وكانت تقنع بصحبة زويا التي كانت ترعى شئونها بعناية فائقة . ولكن ما ان يخرج ستاكوف وكان هذا يحدث كثيرا ـ فقد عادت اوجاسيتنا كريستيانوفا ـ حتى كانت يلينا تاتي لزيارة أمها التي كانت تتطلع اليها في صمت والدموع تنهمر من عينيها . كان هذا التانيب الصامت ينفذ الى اعماق يلينا اكثر من اى تانيب آخر .

كان يجعلها تشعر شعورا إشبه شيء بالندم . وكانت تقول لها وهي تقبل يديها : أمي العزيزة ما الذى كان في وسعى ان افعله ؟ الخطا ليس خطئي فاني احببه ولم يكن في مقدورى ان أفعل غير ذلك . تستطيعين ان تلومي القدر فهو الذى جمع بيني وبين رجل لايحبه أبى وسياخذني بعيدا عنكم .

وتقول لها انا فاسيليفنا :

ـ لاتذكريني فان قلبي ينفطر عندما افكر في المكان الذي ستذهبين اليه •

ـ فكري يا اماه في انه كان من الممكن إن يحدث اسوأ من هذا • كان من الممكن ان اموت • لتجدي في هذه الفكرة بعض العزاء •

ـ انني فاقدة الأمل في ان اراك ثانية • فاما انك ستموتين هناك في كوخ حقير (كانت انا فاسيليفنا تتصور بلغاريا كمنطقة من مناطق التندرا في سيبريا) واما ان يقضي على الفراق •

ـ لاتقولي هذا يا اماه فاننا سنلتقي بمشيئة الله • وفي بلغاريا مدن لاتقل عن مدننا في القليل أو الكثير •

ـ مدن ! ان الحرب تدور رحاها هناك الآن • وانا على يقين أن المدافع هنـــاك تدوي في كل اتجاه • متى سترحلين ؟

ـ قريبا جدا ـ لو ان والدي لا ـ انه يقـــول انه سيلجأ للقضاء وهو يهدد بان يطلقنا •

وترفع انا فاسيليفنا عينيها الى السماء وتقول

ـ كلا يا لينا انه لن يلجأ للقضاء • انني لو خيرت لما وافقت على زواجك • بل انني كنت افضل الموت ولكن ما باليد حيلة •• كما انني لا يمكن ان اســـمح لكائن من كان بان يلحق العار يابنتي •

ومرت بضعة ايام على هذه الحال . وذات مساء استجمعت انا فاسيليفنا اطراف شجاعتها واغلقت على نفسها وزوجها غرفة النوم ، وقد شمل الخوف والصمت كل من في البيت . ولم يكن يسمع شيء في أول الامر ثم اخذ صوت ستاكوف يعلو وبدأ نقاش بينهما كان يتخلله صياح وانين . وهم شوبين بالدخول الى الحجرة لانقاذ الموقف بمساعدة الخادمات وزويا ولكن الضجة فيها كانت تهدأ تدريجيا وتعود الى مستوى المحادثة العادية الى أن اختفت تماما .

وكان يسمع من آن لآخر صوت بكاء ولكنه توقف نهائيا هو الآخر . واخيرا سمع صرير المفتاح في الخزانة وهي تفتح . ثم فتح الباب وخرج ستاكوف وهو يحملق فيمن مر بهم ثم ذهب الى النادى .. واستدعت انا فاسيليفنا يلينا وعانقتها بحرارة وقالت لها وهي تبكي بحرقة :

ـ لقد سوى كل شيء ولن يثير هو اية متاعب وليس هناك ما يمنعك من السفر .. من هجرنا .

قالت يلينا لامها بعد ان استعادت بعض هدوئها :

ـ هل يمكن لدمترى ان يحضر ليشكرك ؟

ـ انتظرى قليلا ياعزيزتى فانى لا أطيق فى الوقت الحاضر رؤية الشخص الذى سيبعدك عنى . ولكنى سأراه قبل أن ترحلا .

فقالت يلينا بحزن :

ـ قبل أن نرحل ·

لقد وافق ستاكوف على الا يثير المتاعب ولكن أنا فاسيليفنا لم تحط ابنتها علما بالثمن الذى طلبه نظير ذلك · لم تقل لها انها قد وعدته بسداد كل ديونه كما اعطته الف روبل من الفضة نقدا وعدا زد على ذلك انه قد رفض صراحة ان يقابل انزاروف · وعندما وصل ستاكوف الى النادى شرع على الفور فى التحدث الى زميله فى لعب الورق ، وهو مهندس متقاعد من ضباط الجيش ، عن زواج يلينا · فقال وهو يفتعل عدم الاهتمام :

ـ هل سمعت ان ابنتى قد تزوجت طالبا ··· ربما لانبهارها بعلمه ·

وكان الضابط يتفرس فيه من خلال نظارته وسأله عن لعبة الورق التى يريد أن يلعبها ·

- ٣٢ -

كان شهر نوفمبر قد اوشك على الانتهاء واقترب موعد السفر · وكان انزاروف قد انتهى من استعداداته منذ وقت طويل ، وكان يتوق لمغادرة موسكو باسرع ما يمكن ، كما ان الطبيب حثه على الاسراع بالرحيل وقال له :

ـ انك تحتاج الى جو دافىء ولا يمكن ان تسير صحتك على ما يرام هنا ٠

وكانت يلينا هى الاخرى فى هم فقد كان شحوب انزاروف وفقدان وزنه من اسباب قلقها ٠ كانت ترقب تغير ملامحه بانزعاج وخوف ٠ وكان موقفها فى بيت والديها لايحتمل ٠ فكانت امها تبكيها وكانها قد فارقت الحياة بينما راح والدها يعاملها باحتقار وبرود ٠ كان الفراق المنتظر ياكل قلبه هو الآخر ولكنه كان يعتقد من واجبه ـ وهو كوالد لحقته اهانة ـ ان يخفى مشاعره وضعفه ٠

واخيرا طلبت انا فاسيليفنا ان ترى انزاروف ٠ فادخل اليها سرا من الباب الخلفى ٠ وظلت عاجزة عن الكلام لفترة طويلة بعد دخوله الى حجرتها كما انها لم تقدر على النظر اليه ٠ وجلس انزاروف بجوار مقعدها وظل ينتظر فى هدوء واحترام ان تبدأ هى بحديث بينما جلست يلينا ممسكة بيد أمها ٠ واخيرا رفعت انا فاسيليفنا راسها وقالت :

ـ اسال الله ان يجازيك يادمترى نيكافوروفتش ٠ اننى ٠٠٠ ثم توقفت عن الكلام وعلى شفتيها كلمات من اللوم والتانيب ٠٠ ثم قالت فجأة :

ـ ولكنك مريض انه مريض يا يلينا ٠

فقال لها انزاروف :

ـ كنت مريضا يا انا فاسيليفنا ولم اشف بعد

تماما ولكننى آمل ان يســـاعدنى جو بلادى وهواؤها على استعادة صحتى ..

فقالت وهى تتمتم :

ـ نعم ـ بلغاريا .

ثم لنفسها :

ـ ياالهى .. بلغارى يوشك أن يموت . له صوت كصوت الأشباح وعينان غائرتان وليس فيــه الا جلد على عظم ويرتدى بدلة قد اتسعت عليه حتى ليخيل للنــاظر اليها أنها مستعارة . ثم هذا اللون ... لونه الأصفر ـ ولكن ما هى ذى زوجته تحبه ! لابد اننى احلم .. ولكنها تمالكت نفسها سريعا وقالت ..

ـ ايتحتم عليك ان تسافر يا دمترى نيكاتورفتش ؟

ـ نعم يا آنا فاسيليفنا .

فنظرت اليه ، ثم قالت :

ـ آه يا دمترى اسأل الله الا تمر بتجربة كالتى امر بها انا الآن .. عدنى أن تحبها وتعتنى بهــا . انكما لن تشعرا بالحاجة او العوز وانا على قيد الحياة . ولكن العبرات خنقتها وفتحت ذراعيها وتعلقت بها يلينا وانزاروف ..

واخيرا جاء اليوم الموعود . كان من المتفق عليه ان تذهب يلينا الى بيت والديها لوداعهما ثم تبدأ رحلة السفر من بيت انزاروف كان موعد السفر وقت الظهر . وذهب

برزنيف قبل السفر بربع ساعة لوداعها . كان يتوقع ان يرى في بيت انزاروف .. بعض مواطنيه ولكنهم كانوا قد سبقوه في السفر ، كما سبقه الشخصان الغامضان اللذان يعرفهما القارىء وكانا شاهدى زواج انزاروف .

وحيا صاحب البيت انزاروف بانحناءة وكان قد شرب اكثرمن اللازم اما لانه كان يشعر بالأسف لسفر ذلك الساكن ، واما لشعوره بالسعادة لحصوله على اثاث الحجرة . وسرعان ما حضرت زوجته وجرته الى داخل البيت . وكانت هناك حقيبة على الأرض وكان برزنيف غارقا في افكار كثيرة .

كانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة وقد وقفت زحافة بالباب . الا أن يلينا وانزاروف لم يصلا بعد . واخيرا سمع وقع اقدام مسرعة تصعد السلم ودخلت يلينا يصحبها انزاروف وشوبين .

كانت عينا يلينا شديدتي الاحمرار فقد أغمى على والدتها من الم الفراق . وكان قد مر اكثر من اسبوع منذ أن رأت يلينا برزنيف لآخر مرة ، فقد قل تردده على بيت ستاكوف . ولم تكن تتوقع ان تقابله فهتفت قائلة :

ــ انت هنا ! شكرا على مجيئك . واندفعت بين ذراعيه .. ثم عانقه انزاروف هو الآخر . وساد الجميع سكون رهيب .. فما الذى كان يمكن لهؤلاء الثلاثة ان يقولوه ؟ وماذا كان شعورهم ؟ وتبين شوبين انه لابد من وضع حد لهذا الموقف فقال .

ـ ها نحن قد اجتمعنا ثانيا لآخر مرة . لنحن راسنا لمشيئة القدر ولنذكر ماضينا بكلمة طيبة ونحن نبدأ حياة جديدة نسأل الله ان يباركها . وبدا يغني اغنية « ليبارك الله رحلتنا الطويلة » .

ولكنه توقف عن الغناء فجأة وقد شعر بالخزى والحرج بأن الغناء في حضرة الماضي المحتضر ! ثم .. كان الماضي الذي ذكره وماضي هؤلاء الثلاثة المجتمعين في الغرفة يموت في تلك اللحظة ، يموت ليبعث في حياة جديدة ولكنه يموت على أى حال .

وتحدث انزاروف فقال :

ـ يلينا ، يبدو أن وقت الرحيل قد حان فكل شيء قد تم وليس امامنا الا انزال هذه الحقيبة . واستدعى صاحب المنزل الذي حضر مع زوجته وابنته واستمع الى تعليمات انزاروف وحمل الحقيبة ونزل بها .

وقال انزاروف :

ـ والآن دعونا نجلس حسب العادة الروسية .

فجلسوا . وجلس برزنيف على الاريكة القديمة ويلينا الى جواره في حين جلست صاحبة المنزل وابنتها على الارض . ولم يتحدث احد . كانوا جميعا يبتسمون ابتسامة جامدة . وكان كل منهم يود أن يقول شيئا قبل الفراق . كان كل منهم ـ ماعدا صاحبة المنزل وابنتها اللتين ظلتا تحملقان ـ يشعر ان ما يقال في مثل هذه

اللحظات كلمـــات عادية وان اى الفاظ اخرى منمقة او مختارة ستبدو كاذبة • وقام انزازوف ورسم الصـليب عل صدره وقال :

ـ وداعا ياحجرتنا الصغيرة •

وتبودلت القبلات والتمنيات والوعود بالكتابة وآخر كلمات الوداع المختنقة • وركبت يلينا الزحافة وهى غارقة فى دموعها واحكم انزاروف الغطاء حول قدميها • ووقف شوبين وبرزنيف وصاحب المنزل وصـاحبته وابنتهمـــا والحارس أمام المنزل ، واذا بزحافة أخرى تندفع الى فنـاء المنزل ويخرج منها ستاكوف وهو يزيل الثـــلج من عل معطفه •

قال وهو يعدو الى الزحافة الاخرى :

ـ شكرا لله انكما لاتزالان هنا • اننى أقدم لكمـــا يايلينا آخر بركاتنا الأبدية •

واخرج من جيب معطفه علبة من القطيفة فتحهـــا واخرج منها تعويذة ربطها حول عنق ابنته •

فانفجرت باكية وقبلت يديه ، بينمـــا اخرج سائقه زجاجة من الشمبانيا وثلاثة كئوس من مقدمة العربة •

وقال ستاكوف والدموع تتساقط من عينيه :

ـ لابد أن نودعك وداعا حارا ونتمنى لك ••• وبدأ يصب الشمبانيا بيدين مرتعشتين وامتلأت الكئوس واخذت الشمبانيا تتدفق منها عل الثلج الذى اكتست به الأرض •

وتناول هو كاسا واعطى الكاسين الأخرين ليلينا وانزاروف الذى كان قد جلس فى العربة الى جوارها . وقال لهما ستاكوف :

- ارجو لكما حظا سعيدا ..

ولكن العاطفة غلبته فامسك عن الحديث وشرب الكاس وفعل انزاروف ويلينا مثله . ثم التفت الى شوبين وبرزنيف وقال :

- والآن جاء دوركما يا سادة ولكن السائق الهب ظهر الخيل ، وتحركت العربة واخذ ستاكوف يجرى الى جوارها وهو يصيح بصوت متقطع : لا تنسى ان تكتبى يا يلينا . ونظرت يلينا من العربة وقالت : وداعا يا ابى . وداعا ياندريا بتروفتش وداعا يا بافل ياكوفليفتش وداعا لكم جميعا . وداعا يا روسيا .

ثم عادت الى مقعدها . وخرجت العربة من البوابة وانحرفت الى اليمين واختفت عن الانظار ..

- ٣٣ -

كان يوما من أيام ابريل المشرقة . وكان الجندول ينساب برقة فوق البحيرة الكبيرة التى تفصل بين فينسيا والليدو وهو يهتز مع كل ضربة من ضربات المجداف بينما

جلست يلينـــا وانزاروف فوق المراتب الجلدية فى القمرة الصغيرة ٠

ولم تكن ملامح يلينا قد تغيرت كثيرا منذ أن غادرت موسكو ولكنها كانت تنطق الآن بتعبير جديد ـ تعبير أكثر جدية واكثر تركيزا ، كانت عينــاها أكثر ثقــة ٠ وكان جسدها بضا ناضجا وشعرها يتدلى على جبينها الناصع فى بهاء ، وكانت وجنتاها أكثر جمالا عن ذى قبل ٠ ولــكن شــفتيها كانتا تكشفان عن شيء من القلق اذا كفتــا عن الابتسام ٠ أما وجه انزاروف فكان لا يزال يحتفظ بتعبيره الســابق وان كانت ملامحه قد تغيرت تغيرا ملموســا كان يبدو أكثر نحافة وأكبر ســنا كما كان شاحب الوجه وقد انحنى ظهره قليلا٠ وكانت تنتابه نوبات كثيرة من السعال٠ وكان سعاله قصيرا وجافا كما كانت عيناه الغائرتان تلمعان ببريق غريب٠ وكان قد أمضى شهرين فى أحد مستشفيات فينا وهو فى طريقه من روسيا ٠ ولم يصلا الى فينسيا الا فى أواخر مارس ٠

وكان ينتظر أن يذهب من فينسيا الى الصرب وبلغاريا عن طريق زار ، فقــد كانت جميع الطرق الاخرى مغلقــة أمامه ٠ كانت الحرب مشتعلة بالفعــل فى منطقة الدانوب وقد أعلنت انجلترا وفرنسا الحرب على روســيا وكانت جميع الدول السلافية فى حركة واستعداد ٠

ووصل الجندول الى الليدو ٠ واخذت يلينا وانزاروف

يسيران على طريق رمل ضيق غرست على جانبيه أشجار صغيرة هزيلة (تزرع كل عام وتموت كل عام) .

ساراً على طول الشاطىء . وكانت مياه الادرياتيكي الزرقاء تمتد أمامهما والامواج تتلاطم ارتفاعا وانخفاضا تاركة بعض قطع المحار والأعشاب البحرية على الرمال .

وقالت يلينا :

ـ يا له من مكان بارد ! اخشى ان يكون هذا المكان غير ملائم لصحتك . ولكنني أستطيع ان افهم سبب مجيئك الى هنا .

فقال انزاروف: بمرارة وعلى شفتيه ابتسامة سريعة:

ـ بارد ! ان الجندى لا يخشى البرد . أما سبب مجيئى هنا فسأخبرك به . انني عندما أنظر الى البحر من هنا أحس كأن بلادى أقرب الى . لقد انتهى كل شىء هناك .

قال ذلك وهو يمد يديه ناحية الشرق . ثم أضاف :

ـ وهذه الريح تأتى من هناك .

ـ الا تعتقد أن هذه الريح قد تأتى بالسفينة التى تنتظرها ؟ الا يمكن أن يكون ذلك الشراع الأبيض الذى ينعكس عليه الاضواء من بعيد هو شراعها ؟

فنظر انزاروف الى المكان الذى أشارت اليه يلينا ثم قال :

ـ لقد وعد رانديتش أن يعد كل شىء لنا خلال اسبوع واعتقد أننا نستطيع الاعتماد عليه .

ثم بحماس مفاجيء :

– هل سمعت يا يلينا أن صيادى السمك فى دالماشيا قد انتزعوا قطع الرصاص المركبة فى شباكهم لتحويله الى رصاص للبنادق ؟ انهم معدمون وصيد الاسماك هو مورد رزقهم الوحيد ولكنهم تبرعوا به عن طيب خاطر وهم الآن يتضورون جوعا وارتفع فجاة صوت يصيح :

« افسحا الطريق »

وسمعا وقع حوافر جواد يمر بهما سريعا عليه ضابط نمساوى وابتعد عن طريقه بسرعة • ونظر انزاروف اليه وهو يبتعد • فقالت يلينا :

– لا لوم عليه فليس لديهم – كما تعلم – مكان آخر لتدريب خيولهم •

فقال انزاروف :

– لا لوم عليه نعم ولكنه اثارنى بصيحته وبشاربه وقبعته وبمظهره كله • لنعد ••

– نعم يا دمترى وان الهواء شديد هنا • وانت لم تعتن بنفسك العناية الكافية بعد المرض الذى أصابك فى موسكو وقد دفعت ثمن ذلك فى فينا • لا بد ان تكون أكثر حرصا •

ولم يجبها انزاروف ولكن نفس الابتسامة المريرة ارتسمت على شفتيه ••

وقالت يلينا :

ـ ما رأيك لو ركبنا جندولا في القنال الكبير ؟

اننا لم نر فينيسيا جيدا منذ وصولنا • وسنذهب هذا المساء الى المسرح فقد حجزت تذكرتين لنشاهد اوبرا جديدة • دعنا نستمتع معا بهذا اليوم وننسى كل شيء عن السياسة والحرب ننسى كل شيء الا أننا نحيا ونتنفس ونفكر معا واننا قد ارتبطنا الىالابد • ما رأيك ؟

ـ ما دامت هذه رغبتك يا يلينا فلك ما تريدين •

فقالت يلينا وهي تبتسم :

ـ كنت أعلم انك ستوافق هيا بنا •

وعادا الى الجندول وطلبا الى صاحبه ان يجدف بهما في القنال الكبير على مهل •

ان من لم ير فينيسيا في شهر ابريل لا يستطيع ان يكون فكرة عن سحر هذه المدينة وجمالها • ان الربيع اللطيف المعتدل يناسب فينيسيا كما يناسب الصيف المشمس جنوا الجميلة ، وكما يناسب الخريف روما وجمال فينيسيا كالربيع يثيرك ويحرك فيك كوامن الرغبات •

وسرى الجندول يحمل انزاروف ويلينا حتى دخل الى القنال الكبير• القصور الرخامية تنتشر على الجانبين• يلينا في سعادة جارفة ، ولكن سحابة واحدة معتمة بدت في سمائها • واخذت هذه السحابة تنقشع• واحس انزاروف بتحسن كبير في ذلك اليوم • وتذكرت يلينا اكاديمية الفنون الجميلة فطلبت من صاحب الجندول أن يجدف بهما

الى هناك . ولم يستغرقا وقتا طـويلا فى زيارة حجرات المتحف المختلفة. وطغى عليهما شعور بالمرح على غير انتظار فكانا يريان فى كل شىء جامنا مضحكا (وهو احســاس معرفة الأطفــال جيدا) ، فكانا يضحكان من الزوار ومن بعض اللوحات والتماثيل .

واخيرا خرجا من المتحف ولما شاهدا صاحب الجندول بمعطفه وبنطلونه القصير ضحكا ايضا ..

ثم شــاهدا احدى البائعات وقد عقصت على راسها خصلة من الشـــعر الأشيب فضحكا أكثر وأكثر . واخيرا نظر كل منهما الى وجه الآخر وانفجرا ضاحكين دون توقف. ولما وصلا الى الجندول وجلسا أمسك كل منهما بيد الآخر. وعادا الى الفندق واسرعا الى حجرتهما وطلبا طعام الغداء ولم تتركهمــا روح المرح حتى أثنــاء تناول الطعــام فكانا يتمازمان على الطعام . وشربا نخب اصدقائهما فى موسكو وكانا يصفقان ويمدحان الطباخ على طعامه الشهى .

وعندما حان الوقت ذهبا الى المسرح .

كانت الأوبرا لفيردى وكانت رغم انهـــا لم تكن من روائع الأوبرا فقد عرضت بالمسارح الاوربية كما أن جمهورنا الروسى يعرفها جيدا ، واعنى بها أوبرا لاترافياتا .

وكان الموســـم فى فينيســيا قد انتهى فلم يكن بين المغنين من ارتفع عن المستوى العادى وكان كل منهم يصيح باعلى صوته . أما دور فيولينا فقد قامت به مغنية مغمورة

وان لم تخل من موهبة كانت ملابسها متواضعة وخالية من الذوق على نحو ساذج • وكانت تلف حول شعرها شبكة حمراء وترتدى ثوبا من الحرير الازرق الباهت يضغط على بطنها وزوجا من القفازات السميكة يصل الى مرفقيها المدببين • لم تكن تعرف كيف تتحرك على خشبة المسرح على أن تمثيلها كان يتسم بالدقة والبساطة • كما انها كانت تغنى بانفعال عاطفى واضح ونغم لا يجيده الا الايطاليات • كانت يلينا تجلس الى جوار انزاروف فى المقصورة المجاورة لخشبة المسرح ، وكانت روح المرح التى تملكتها فى أكاديمية الفنون الجميلة لم تبارحها •

وقالت يلينا :

ـ ان الفتاة المسكينة لم تحصل على أى تشجيع من المتفرجين ولكننى أفضلها عن كثيرات من الممثلات اللاتى يتكلفن فى تمثيلهن • انها تؤدى دورها دون أن تشغل نفسها بالمتفرجين •

واتكأ انزاروف على حافة المقصورة لينظر الى فيوليتا جيدا ، ثم قال :

ـ انها جادة فى تمثيلها وتجيد تمثيل دورها ••

ولم تتحدث يلينا بعد ذلك ••

ثم بدأ الفصل الثالث وارتفع الستار • وانزعجت يلينا من منظر الفراش والستائر المسدلة وزجاجات الأدوية والمصباح الخافت ، وتذكرت ماضيها القريب •

وتساءلت :

ـ ترى ماذا سيحدث فى المستقبل وفى الحاضر ؟

وسمعت الممثلة وهى تقوم بدورها لتردد صدى سعالها عندما سعل انزاروف . فاختلست يلينا نظرة اليه ثم ارتسم على وجهها تعبير هادىء وفهم انزاروف وابتسم وهو يردد الأغنية بصوت منخفض .

ولكنه سرعان ماتوقف عن الغناء فقد تحسن تمثيل فيوليفا واصبح اقل عصبية وتخلصت من كل ماهو مفتعل وظهرت كممثلة ناجحة . وتأثر المتفرجون واظهروا استحسانهم فقد سيطرت عليهم الفتاة بصوتها وجعلتهم يتمايلون من الطرب . ثم دخل الفريدو وبدا حوارهما اجمل جزء فى الأوبرا وهو الجزء الذى بدأ المؤلف يعبر فيه عن الأسف على الشباب الضائع والكفاح الأخير فى سبيل حب يائس ..

واندمجت الممثلة فى الدور وتغير وجهها أمام شبح الموت المخيف الذى اقترب فجأة وغنت المقطع الذى جاء فيه « دعنى أعيش ـ اننى لا أزال صغيرة » بتوسل وضراعة جعلت القاعة تدوى بالهتاف والتصفيق وصيحات الاستحسان .

واحست يلينا بقشعريرة تسرى فى جسدها وتحسست بيدها يد انزاروف حتى وجدتها وضغطت عليها بشدة وضغط هو الآخر على يدها ولكن احدهما لم ينظر

للآخر . لم تكن هذه الضغطة كتلك التي تبادلاها في الجندول منذ بضع ساعات .

وقفلا راجعين الى الفندق على طول القنال الكبير . كان الليل قد خيم باضوائه الكثيرة . واخذت نفس المناظر تقابلهم ولكنها كانت تبدو مختلفة هذه المرة . القصور تبدو في ضوء القمر غارقة في بياض مشوب باللون الفضي . اما النقوش التي تزين هذه القصور والنوافذ والشرفات فتبرز من المباني وقد غمرتها ظلال باهتة ، والزوارق تنساب باضوائها الخافتة جميلة على صفحة الماء وقد لمعت مقدماتها في الظلام واخذت مجاديفها تعلو وتهبط على مياه البحيرة الفضية .

كان الفندق الذي نزل فيه انزاروف ويلينا يقع في ريفاشيافوني . وغادرا الجندول قبل أن يصلا اليه ، وطافا عدة مرات بميدان سانت مارك تحت القباء حيث كان كثير من المتسكعين يتسكعون امام المقاهي الصغيرة . شعور جميل ذلك الذي يشعر به المرء وهو يسير مع من يحب بين الغرباء في مدينة اجنبية ، كل شيء يبدو جميلا وهاما .. ونظرا للسرور الذي تشعر أنه يملأ كل جوانحك فانك ترجو للجميع السرور والطمانينة . ولكن يلينا لم يعد في وسعها أن تستمتع بهنائها في هدوء فان قلبها وقد هزته الانطباعات الأخيرة كان يرفض ان يهدأ . اما انزاروف فكان يسير في سكون صوب قوهات المدافع النمساوية وهي تبرز من تحت القباء . وجذب قبعته حتى غطت حاجبيه . وادركه التعب

فالقيا نظرة أخـــيرة على كاتدرائية سـانت مارك وقبابها المتمعة في ضوء القمر واتجها نحو الفندق ٠

كانت حجرتهما تطل على بحيرة كبيرة ٠ وكان يواجه الفندق كنيسة ويدنيتور وتعتبر من أجمل كنائس العالم ٠ وعلى اليسار كانت العين تلمح صـاريات السفن ومداخن البواخر كما كانت تظهر من أن لآخر سفينة شراعية وقد فردت شراعها كجناح ضخم ٠ وجلس انزاروف الى النافذة ولكن يلينا لم تتركه يستمتع بالمنظر طويلا فقـد فاجأته الحمى واصيب بضعف شـديد ٠ وسندته حتى وصـل الى الفراش ٠ نام فعادت في هـدوء الى النافذة ٠ كان الليل ساجيا والهـواء لطيفا يزيل الألم والحزن تحت السـماء الصافية والأشعة المقدسة النقية وقالت يلينا لنفسها :

ـ يا الهـى ٠٠ لماذا خلقت الموت والفراق والمرض والبكاء والدموع ؟ ولماذا بدعت الجمال وهـذا الاحساس الجميل بالأمل والشعور المريح بالملجـا الآمن والحمـاية الدائمة ٠ والا فما معنى هذه السماء الباسمة التى تنزل بركاتها على الأرض ، وهذه الأرض السعيدة المطمئنه ؟ هل يمكن ان يكون كل هذا فينـا نحن فقط ، بينما يسود السكون والبرد فى الخارج ؟ هل يمكن ان نكون نحن فى عزلة ٠٠ فى عزلة وان يكون كل شىء آخر فى كل مكان فى كل هذه الأغوار السحيقة غريبا عنا ؟ ماذا تجدى اذن هذه الرغبة الملحة فى الصلاة وفى الابتهاج بالصلاة ؟ الا يمكن ان تسـامحه وتنقذه ؟ الا يمكننى أن أعتقـد فى حدوث

بالمجرة ؟ ثم وضعت رأسها على يديها وغمغمت :

ـ هل هذه هي النهاية ؟ هل يمكن حقا ان تكون هذه هي النهاية ؟ لقد غمرتني السعادة لا لعدة دقائق أو ساعات او ايام بل لأسابيع متتالية . ولكن باى حق ؟ .

واستمرت في تساؤلاتها :

وماذا اذا كانت هذه السعادة أكثر مما نستحق ؟ وماذا اذا كان لابد لنا ان ندفع ثمن هذه السعادة . انها السماء وما نحن الا بشر ـ بشر مساكين عصاة ـ ابتعد أيها الشبح المشئوم فلست أنا الوحيدة التى تهمني حياته .

ولكن ماذا اذا كانت هذه عقوبة ؟ ماذا اذا كان علينا ان ندفع الآن نحن ثمن اثمنا كاملا ؟ لقد كان ضميرى صامتا وهو صامت حتى هذه اللحظة ولكن هل هذا دليل على البراءة ؟ يا الهى هل نحن حقا آثمون ؟ هل يمكن أن تعاقبنا لأننا احببنا احدنا الآخر وانت الذى خلقت هذا الليل وهذه السماء ؟ فاذا كان الأمر كذلك ، وكان مذنبا وكنت انا مذنبة ، فلتكن ارادتك يا الهى أن نموت نحن الاثنين اخيرا ميتة كريمة ـ هناك في الحقول في بلاده لا في هذه الحجرة المعتمة . ثم مضت تتساءل :

ـ ولكن ماذا يكون من أمر الحزن الذى سيحل بأم مسكينة وحيدة ؟

وشعرت بالحيرة عندما لم تجد اجابة على سؤالها ..

لم تكن تعرف أن سعادة أي انسان قائمة على تعاسة انسان آخر وان راحته تتطلب تعب الآخرين تماما كما يحتاج التمثال الى قاعدة ٠

وتحدث انزاروف وهو نائم فقال :

ـ راندتش ٠

فاسرعت اليه يلينا على اطراف اصابعها وانحنت فوقه وجففت العرق من على وجهه ٠ فحرك راسه على الوسادة ثم هدأ ٠

وعادت الى النافذة ولكن الأفكار السوداء استبدت بها ٠ وحاولت ان تقنع نفسها بانه ليس ثمة مايدعو للخوف بل عيرت نفسها بضعفها ، وتمتمت لنفسها :

ـ ليس هناك اى خطر اليس كذلك ؟
انه الآن احسن حالا اليس كذلك ؟

لاشك أنني لو لم اذهب الى المسرح لما خطر ببالى مثل هذا الخاطر ٠

ولفت نظرها في هذه اللحظة طائر بحرى يحلق فوق الماء لابد أن احد صيادى السمك أزعجه ٠ كان يطير في صمت في خط متعرج كانه يبحث عن مكان يهبط عليه ٠ فقالت يلينا لنفسها :

اذا طار في هذا الاتجاه فسيكون هذا فالا حسنا ، ولكن الطائر طوى جناحيه وهوى وهو يصرخ صرخة طائر جريح خلف احدى السفن ٠ وانزعجت يلينا ولكنها شعرت

بالخجل من انزعاجهـــا . واتجهت الى انزاروف ورقـدت بجانبه دون أن تخلع ملابســـها . كان انزاروف يتنفس بصعوبة .

- ٣٤ -

استيقظ انزاروف متأخرا على صداع مؤلم . وكان يشعر بضعف شديد في كل أطرافه .

ورغم ذلك فقد غادر الفراش .

وكان أول سؤال ساله ليلينا قوله لها :

ـ هل حضر راندتش ؟

فقالت :

ـ كلا . ثم ناولته الطبعـــة الأخـيرة من صحيفة أونبرير فالور تريستينو التي أطالت في الحديث عن الحرب وعن أرض السلاف وعن المقاطعات .

وبدأ انزاروف يقرؤهـا بينما انشغلت هي باعداد فنجان من القهوة له . ثم سمع طرق على الباب . واعتقد كل منهـــما انه راندتش ولكن الطارق قال بلغة روسية واضـــحة ؟ هل استطيع الدخـــول ؟ وتبادلت يلينا مع انزاروف نظرة استغراب وقبـل ان يجيبا الطارق دخل عليهما شاب أنيق الملبس ذو وجـــه صغير مدبب وعينين

صغيرتهن . وكان متهللا كانه تلقى لتوه بشرى سارة .
وقام انزاروف من مقعده وقال الغريب وهو يسعر اليه وينحنى فى ادب ليلينا :
ــ يبدو أنك لم تتذكرنى . اننى لو بويفاروف . الا تذكر اننا تقابلنا فى موسكو عند « ى » .
فقال انزاروف : نعم عند « ى » .
فقال الرجل :
ــ هذا صحيح . والآن أرجو ان تقدمنى لزوجتك . اننى ياسيدتى من المعجبين كل الاعجاب بدمترى فاسيليفتش ويسعدنى أن يكون لى شرف التعرف عليك .
ثم التفت الى انزاروف وقال له :
ــ تصور أننى لم أكن اعلم بوجودك هنا الا امس . اننى أقيم فى نفس هذا الفندق . يالجمال مدينة فينسيا . انها مدينة شاعرية .. ان الشيء الوحيد الذى آكرهه فيها أنك تقابل هؤلاء النمساويين الملاعين فى كل مكان . على فكرة ، هل سمعت عن وقوع معركة حاسمة على الدانوب؟ لقد قتل فيها ثلاثمائة من الضباط الأتراك وتم الاستيلاء على سيليستريا ، وأعلنت الصرب استقلالها .
.. انك كوطنى لابد أن تشعر بالغبطة . اننى اشعر بدمائى السلافية تغلى فى عروقى ولكننى أنصح بالحذر . اننى على يقين بانك مراقب كما أن المدينة تعج بالجواسيس . وقد زارنى بالأمس شخص غريب وسألنى انكنت روسيا ، فأجبته بانى دانماركى . ولكنك تبدو مريضا ياعزيزى

انزاروف فاسيليفتش ولابد لك من العلاج · لابد لزوجك ياسيدتى من العلاج · لقد كنت بالأمس اسير كالمجنون من قصر الى قصر ومن كنيسة الى كنيسة للفرجة · كذلك زرت السجون الشهيرة هنا فأثارت استيائى · لعلك تذكر اننى دائم الاهتمام بالمشاكل الاجتماعية ، وقد ثرت على طبقة الارستقراطيين · كم اود لو أوتيت القدرة على القاء المدافعين عن ابناء هذه الطبقة فى اعماق السجون ·

كان بايرون على حق عندما قال :

ـ « لقد وقفت فى فينيسيا على جسر التنهدات » وعلى كل فقد كان هو نفسه ارستقراطيا · لقد كنت دائما من دعاة التقدم · ان الجيل الصاعد يدعو كله للتقدم · ما رأيك فى الانجليز والفرنسيين ؟ سنرى الى اى مدى يمكن ان يصل نابليون الثالث وبالمرستون · لقد اصبح بالمرستون رئيسا للوزراء · ومهما قلت فانك يمكن ان تستهين بقبضة الروس · ان نابليون الثالث مجرم حقير ·

انا لا اعرف شعورك ولكنى شخصيا مغتبط بالحرب · وارجو الا استدعى الى روسيا لأننى أنوى الذهاب من هنا الى فلورانسا وروما · انا لا استطيع الذهاب الى فرنسا ولذا فانى افكر فى الذهاب الى اسبانيا ـ يقال ان الاسبانيات جميلات ، ولو ان اسبانيا بلد الفقر المدقع والأمراض ·

انا لا يهمنى ان اذهب حتى الى كاليفورنيا ـ فليس

هناك ما لا نستطيع نحن الروس أن نفعله ـ ولكنني وعدت أحد الناشرين أن أقوم بدراسة مفصلة لمشكلة التجارة في البحر المتوسط . قد تقول انه موضوع ممل ويحتاج الى تخصص ولكننا نريد المتخصصين وكفانا فلسفة . ان ما نحتاجه الآن هو التدريب والتمرين . ولكنك تبدو مريضا جدا يادمتري فاسيليفتش . ربما ضايقتك ولكن حتى لو كان الامر كذلك فسأمضي معك وقتا أطول .

وظل لوبوبفاروف يتحدث هكذا فترة طويلة ووعد قبل خروجه أن يعود ثانيا .

أحس انزاروف بالارهاق من هذه الزيارة الطارئة فرقد على الاريكة وقال بمرارة :

ـ هذا هو نموذج الجيل الجديد . ان بعضهم يدعى الشجاعة ويتظاهر بها ولكنهم في حقيقة انفسهم كالطبل الأجوف مثل هذا الشاب .

ولم تناقشه يلينا فقد أقلقها ضعف انزاروف في تلك اللحظة أكثر مما اقلقتها حالة الجيل الجديد في روسيا. فجلست الى جواره وتناولت شغل الابرة الذى كانت تعمل به ، كان انزاروف قد أغلق عينيه ورقد بلا حراك وقد بدا عليه الشحوب والضعف الشديد .. ونظرت يلينا الى ملامح وجهه البارزة والى ذراعيه الممتدتين ، واستحوذ على قلبها صوت مفاجىء . ونادت عليه بصوت رقيق :

ـ دمتري .

فتحرك ثم قال لها :

ـ هل رادتش هنا ؟

ـ كلا ، لم يحضر بعد . ولكن الا تعتقد ـ انك محموم لاتبدو انك بخير ـ الا ترى من الافضل استدعاء طبيب ؟

ـ هل اخافك ذلك الثرثار ؟ انا لست فى حاجة الى طبيب وساستريح قليلا وسيصبح كل شىء على مايرام. سنخرج ثانية بعد الظهر .

ومرت ساعتان وانزاروف لم يبارح الاريكة .ولكنه لم يستطع ان ينام ولو أنه لم يفتح عينيه . وجلست يلينا الى جواره ، وتركت شغل الابرة وظلت ساكنة .

واخيرا سألته قائلة :

ـ لماذا لا تنام ؟

فقال لها وقد اخذ يدها ووضعها تحت راســـــه كالوسادة :

ـ انتظرى . ايقظينى عندما يصل راندتش . واذا قال ان السفينة على استعداد للرحيل فســـــنرحل فى الحال . ولابد أن نحزم امتعتنا .

فقالت يلينا :

ـ لن يستغرق ذلك طويلا .

وقال انزاروف : بعد هنيهة :

ـ هل سمعت ما قاله ذلك الثرثار الاحمـــق عن الحرب فى الصرب ؟ اعتقد ان كل ما قاله كان من تاليفه .

ولكننا لابد أن نذهب على أى حال فليس هنـــاك وقت نضيعه • كوني على استعداد •

ونام وكان كل شيء هادئا في الحجرة •

واسندت يلينا راسها الى ظهر المقعـــد ونظرت من النافذة • كانت الريح قد اشتدت والسحب تسير مسرعة عبر السماء وشراع صغير يرفرف على بعد وترفرف عليه راية طويلة عليها صليب احمر •

كذن بندول الســـاعة القديمة يهتز وكأنه يحـــدث بدقاته أنينا حزينا •

واغلقت تلينا عينيها • كانت قد امضت ليلة سيئة شيئا فشيئا استغرقت هي الأخرى في النوم •

ورات حلما غريبا • رات انها فى قارب مع بعض الغرباء في بحيرة تسارتسينو • وكانوا يجلسون في صمت ودون حراك • لم يكن هناك من يجدف وكان القارب يتحرك تلقائيا • ولم تكن يلينا • خائفة بل كانت تشعر بالملل •

كانت تود لو انها عرفت من هم هؤلاء الاشخاص ولماذا كانت معهم • وبينما هي تنظر اخذت البحيرة تتسع ولم تعد بحيرة ، بل أصبحت بحرا هائجا تهز أمواجـــه العالية القارب • ثم ارتفع شيء مخيف في دوى شديد من القاع فقفز رفاقها الغرباء وهم يصيحون ويلوحـــون

بأيديهم • وعرفتهم يلينا ـ كان والدها واحداً منهم ، ولكن هبت عليهم عاصفة ثلجية واختلط كل شيء •

ونظرت يلينا حولها • كان كل ما يحيط بها ابيض ولكنه كان جليدا لا نهاية له ولـــم تعد هي في قارب بل وجدت نفسها على زحافة على غرار تلك التي ركبتهـــا من موسكو • ولم تكن بمفردها فقـــد كان يجلس الى جوارها كائن صغير ملفوف في معطف نســـائي قديم • ودققت يلينا النظر في رفيقها فتبينت انه كاتيا صديقتها الفقيرة فجزعت يلينا ، وقالت لنفسها :

ـ « كيف هذا ؟ الم تمت هذه الفتاة ؟ » ثم سألتها قائلة :

ـ الى اين نحن ذاهبون يا كاتيا ؟

ولم تجبها كاتيا بل جمعت حولها اطراف المعطف ـ فقد كانت تشعر بالبرد •

كانت يلينا هي الاخرى تشـــعر بالبرد • ونظرت امامها على طول الطريق ومن خلال ذرات الجليد المعلقة في الهواء •

رأت مدينة ذات أبراج عالية بيضاء ذات قمم فضيه• وقالت يلينا :

ـ هل هذه هي موسكو ياكاتيا ؟

وقالت يلينا ترد على نفسها :

ـ كلا هذا هو دير سولوفكس ،هو يحتوى على كثير

من الصوامع الضيقة كخلية النحل ودمترى محبوس فيه ولابد لى ان اطلق سراحه .

.. وفجأة انفتحت عند اقدامها هوة عميقة واندفعت اليها الزحافة بشدة . وضحكت كاتيا وسمعت يلينا صوتا يناديها من الهوه :

ـ يلينا .. يلينا ..

رن الصوت واضحا فى اذنها ينادى : يلينا . فحركت راسها وتجمد الدم فى عروقها عندما رات انزاروف ابيض كالثلج ـ الثلج الذى رأته فى الحلم ـ يجلس على الأريكة وهو يحملق فيها بعينين كبيرتين لامعتين مخيفتين وقد تدلى شعره على جبهته وانفرجت شفتاه بشكل غريب . كان وجهه قد تغير فجأة وارتسم عليه تعبير من الرعب المختلط بالرقة والالم .

وقال انزاروف :

ـ يلينا اننى احتضر .

فركعت على ركبتيها واحتضنته الى صدرها وهى تصرخ ..

وقال :

ـ لقد انتهى كل شىء . اننى أحتضر . وداعا ياحبيبتى المسكينة وداعا يا وطنى .. ثم سقط على ظهره .

وخرجت يلينا وهى تعدو فى طلب الغوث . واسرعت الخادمة لاحضار الطبيب . وتعلقت يلينا بانزاروف . وفى هذه اللحظة ظهر عند مدخل الحجرة رجل

عريض الكتفين لفحت الشمس وجهه وهو يرتدى معطفا ثقيلا وقبعة • ووقف الرجل مهبوتا •

فصاحت يلينا :

ـ راندتش ! لقد جئت اخيرا • بحق السماء تقدم وساعدني •

لقد اغمى عليه ! يا الهي ما الذى أصابه ؟ لقد خرج بالامس وكان منذ لحظة واحدة يتحدث معي •

ولم يقل راندتش شيئا وخطا جانبا ومر به رجل قصير هو الطبيب وكان يقطن فى نفس الفندق •• مقتربا من انزاروف ••

وقال الطبيب بعد لحظات :

ـ سيدتى ، لقد مات هذا السيد الاجنبى من هبوط فى القلب واضطراب فى الرئتين •

- ٣٥ -

فى اليوم التالى كان رانـــــدتش يقف امام نافذة الحجرة نفسها ، بينما جلست يلينا أمامه ملتفة بوشاح •

كان انزاروف يرقد فى تابوت فى الحجرة المجاورة• غاضت الحياة من وجه يلينا الذى بدا عليه الخوف • وكان جبينها مقطبا فاضفى على عينيها نظرة متوترة • كان هناك

خطاب من انا فاسيليفنا ملقى على قاعدة النافذة ، كانت تدعو فيه ابنتها للعودة الى موسكو لتمضى فيها شهرا على الأقل كما كانت تشكو من الوحدة ومن ستاكوف • وكانت ترسل تحياتها لانزاروف وتستفسر عن صحته وترجوه أن يسمح لزوجته بالسفر •

كان راندتش بحارا من دالماشيا وقد قابله انزاروف اثناء اقامته في بلغاريا ولقيه اخيرا فى فينيسيا • وكان رجلا حازما قويا شجاعا كرس حياته للقضية السلافية ـ وكان يكره الأتراك والنمساويين •

وقالت له يلينا بصوت خلا من الحياة كوجهها :

ـ الى متى عليك ان تبقى فى فينسيا ؟

فقال :

ـ اننا نحتاج الى يوم لنقل التابوت دون ان نثير الشك وسوف نتجه بعد ذلك زارا مباشرة • انه خبر سىء ذلك الذى ساحمله الى مواطنى • لقد لموا ينتظرون انزاروف طويلا ووضعوا فيه آمالهم •

فرددت يلينا قوله بطريقة آلية :

ـ وضعوا فيه آمالهم •

ثم قال لها راندتش :

ـ متى ستوارينه التراب ؟

فاجابت يلينا بعد قليل :

ـ غدا •

ـ غدا ؟ اذن سابقى · اننى اريد أن ارمى حفنة من التراب فى قبره · ثم لابد لى ان اساعدك · من المؤسف أنه سوف لا يدفن فى أرض سلافية ·

فنظرت يلينا اليه وقالت :

ـ خذنى معك على ظهر السفينة واحملنا عبر البحر بعيدا عن هنا ·

هل يمكنك أن تفعل ذلك ؟

فاطرق راندتش مفكرا ثم قال :

ـ نعم · ولكن هذا لن يكون أمرا سهلا اذ لابد لى ان اتحايل على السلطات اللعينة · ولكن لنفترض اننا سوينا هذا الامر وواريناه التراب هناك فكيف أستطيع ان أعود بك ·

ـ لا حاجة بك الى العودة بى ·

ـ ولكن اين تذهبين بعد ذلك ؟

ـ ساجد مكانا · فلا تقلق واصحبنا ـ خذنى معك ·

فحك راندتش راسه وقال :

ـ كما تريدين · ولكن هذا يحتاج الى اجراءات كثيرة متعبة ·· ساذهب واحاول · عليك ان تنظرى هنا وساعود خلال ساعتين تقريبا ·

وخرج · وذهبت يلينا الى الحجرة المجاورة واستنبت

الى الحائط وظلت واقفة فترة طويلة وكانها قد تحولت الى تمثال . ثم ركعت على ركبتيها ولكنها لم تستطع ان تصلى . ولم تجرؤ على أن تسأل ربها لماذا لم يبق على حياته ولم يرحمه ولم يحفظه ولماذا عاقبه هذا العقاب الشديد الذى لا يستحقه . ان كلا منا يستحق هذا العقاب لمجرد أنه وجد على قيد الحياة . وليس هناك مفر مهما عظم ولا محسن مهما كثرت حسناته يستطيع أن يدعى لنفسه حق البقاء للأشياء المفيدة التى اداها . ولكن يلينا لم تستطع ان تصلى . لقد تحولت الى تمثال .

وفى تلك الليلة رسا الى جانب الفندق الذى كانت فيه يلينا قارب ذو سطح عريض . ووضع فى القارب صندوق طويل مغطى بقماش اسود وجلست يلينا وراندتش بجواره . وابحر القارب مدة ساعة تقريبا ثم رسا الى جانب سفينة راسية عند مدخل الميناء . وصعدت يلينا وصعد راندتش الى السفينة وتبعهم البحارة بالصندوق . وهبت عاصفة عند منتصف الليل ولكن السفينة كانت قد ابتعدت عن الليدو . عند الفجر زادت العاصفة عنفا واثناء النهار وكان البحارة المتمرسون يهزون رءوسهم خوفا من حدوث ما لا تحمد عقباه . فبحر الادرياتيك شديد الخطورة فى المنطقة بين فينيسيا وتريستا وساحل دالماسيا .

وبعد أن غادرت يلينا فينيسيا بثلاثة اسابيع تلقت انا فاسيليفنا فى موسكو الخطاب التالى :

والدى العزيز ووالدتى العزيزة . اننى اودعكما الى

الابد فسوف لا تريانى ثانية • لقد مات دمترى بالأمس وقد انتهى كل شيء بالنسبه لى • سأسافر الى زارا اليوم مع جثته وساواريه التراب ولا أدرى ما سيحدث لى ولكننى لا وطن لى الان غير وطن دمترى • وهناك ثورة على وشك القيام والشعب يستعد للحرب • سوف أعمل ممرضة واعتنى بالمرضى والجرحى • لا أدرى ما سيحل بى ولكننى ساظل وفية لذكرى دمترى وللقضية التى كرس لها كل حياته حتى بعد موته • وقد تعلمت اللغة البلغارية واللغه الصربية ولكننى قد لا اعيش بعد كل هذا ـ وهذا ما افضله • لقد وصلت الى حافة الهاوية ولا بد لى أن اسقط• لم يكن ارتباطنا مصادفة • وربما أكون أنا التى قتلته وقد جاء دوره لكي يجرني للموت • لقد كنت أبحث عن السعادة وقد وجدت الموت واعتقد ان ما قدر سيكون • ويبدو أننى قد اذنبت ولكن الموت يخفى وينهى كل شيء اليس كذلك ؟ ارجو أن تغفرا لى كل ما سببته لكما من احزان فلم يكن لى حيلة فى ذلك •

اما فيما يختص بالعودة الى روسيا فما الذى يجعلنى اعود ؟ وما الذى استطيع أن أعمله فى روسيا ؟ ارجو أن تتقبلا قبلاتى الاخيرة ودعائى ولا تدينانى •

« ى »

مضت حوالى خمس سنوات على هذا الخطاب دون أن تصل أى اخبار اخرى عن يلينا ، وراحت كافة الخطابات

والاستفسارات دون جدوى . وذهب ستاكوف بنفسه الى فينيسيا وزارا بعد توقيع ومعاهدة السلام ولكن بلا فائدة. وقد علم وهو في فينيسيا ما علمه القارىء . أما في زارا فانه لم يستطع الحصول على معلومات دقيقة عن راندتش او عن السفينة التى استاجرها .

وكانت هناك اشاعات غامضة منها ان البحر قد قذف الى الشاطىء بعد عاصفة شـــديدة تابوتا به جثة رجل ، وذلك منذ بضع سنوات .

وقالت مصادر اخرى أكثر وثوقا ان التابوت لم يقذف الى الشاطىء ولكن حملته الى الشاطىء ودفنته بالقرب منه سيدة اجنبية قدمت من فينيسيا . وهناك من اضاف الى هذه الرواية أن هــذه الســيدة شــوهدت بعد ذلك في هرزيجو فينا مع جيش كان يجرى تكوينه ، وقد وصفوا ملابسها فقالوا انها كانت ترتدى ملابس سوداء تغطى كل جسمها . ومهما يكن من أمر فقد اختفى كل اثر ليلينــا نهائيا وليس هناك من يعرف أهى ما زالت على قيد الحياة أم أنها مختفية أو أن حياتها قد انتهت واختطفها الموت .

قد يحدث احيانا ان يستيقظ المرء ويسال نفسه فى خوف :

ـ هل حقــا انى قد بلغت الثلاثين ـ الاربعــين ـ الخمسين من العمر ؟ كيف مرت الحياة بهذه السرعة ؟ وكيف اقترب الموت بهذا الشكل ؟ ان الموت كصياد السمك الذى

امسك بسمكة فى شبكته ولكنه ابقاها فى الماء فترة من الوقت • فالسمكة لا تزال تسبح ، ولكنها سجينة سيخرجها الصياد من الماء متى أراد •

ولنا الآن ان نتساءل عما حدث لبـــاقى شخصيات هذه القصة •

ان آنا فاسيليفنا لا تزال على قيد الحياة ولكنها تقدمت فى السن كثيرا ـ منذ النكبة التى حلت بها • انها لا تكثر الشكوى ولكنها كثيرا ما تشعر بالحزن والانقباض • وقد تقدم ســتاكوف فى العمر هو الآخــر وهجر أوجاســتينا كريستيانوفا ، وهو الآن ينتقد كل ما هو أجنبى وترتدى مدبرة منزله وهى امرأة روسية جميلة فى حوالى الثلاثين من عمرها ملابس حريرية وخــواتم وقرطا من الذهب • أما كورناتوفسكى وهو شخص متقلب الطباع يحب الشقراوات، فقد تزوج زويا التى أصبحت مطيعة وهادئة حتى أنها كفت عن التفكير بالألمانية •

وقد سافر برزنيف الى هيدلبرج على نفقة الدولة وزار برلين وباريس واستفاد كثيرا بوقته وســـيصبح استاذا قديرا • وقد نشر مقالين أثارا اهتمام الطبقة المتعلمة أحدهما عن بعض النــواحى الغريبة فى القانون الالمانى القديم فى حالات العقوبات القضائية • والآخر عن أهمية المبــدأ الحضرى فى المدنية • ولكن الذى يؤســف له ان المقالين كتبا بأسلوب صعب ورد فيهما كثير من المصطلحات الأجنبية •

أما شوبين فانه فى روما وقد كرس كل حياته لفنه وأصبح يعتبر واحدا من ابرز المثالين الشبان وان كان بعض الفنانين يرى انه لم يقم بدراسة كافية للنحت القديم وانه ينقصه الاسلوب وهم يضعونه مع المدرسة الفرنسية. وتصله طلبات كثيرة من الانجليز والأمريكيين . وقد اثار تمثاله « الراهبة » استحسانا كبيرا حتى أن الكونت الروس بوبوشكين وهو من الاثرياء كان على وشك ان يدفع الف سكودى تمثاله ولا يزال شوبين يكتب من آن لآخر ليوفار ايفانوفتش وهو الشخص الوحيد الذى لم يتغير قط . وقد كتب له منذ فترة ليست بالبعيدة يقول : هل تذكر ما قلته لى تلك الليلة عندما علمنا بزواج يلينا المسكينة وانا اجلس على فراشك أتحدث ؟ هل تذكر أننى سألتك ما اذا كانت روسيا سترزق يوما ما برجال حقيقيين ، فاجتنبى بانهم سيوجدون يوما ما ؟ هانذا أسألك مرة أخرى من هنا .. من هذا المكان البعيد الجميل : هل سيوجد مثل هؤلاء الرجال ؟

أخذ يوفار ايفانوفتش يثنى أصابعه وهو ينظر الى الفضاء فى غموض ..

(تمت)